دِيوانُ الصَّبابة

للأديب الفاضل شهاب الدين أحمد بن حجلة
المغربي
رحمه الله
المولود في دمشق
والمعروف بابن أبي حجلة

منشورات
دار ومكتبة الهلال

دار ومكتبة الهلال

بيروت - حارة حريك - شارع المقداد
ص.ب: ١٥/٥٠٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل للعاشقين بأحكام الغرام رضا وحبب إليهم الموت في حب من يهوونه فلا تكن يا فتى بالعدل معترضاً فكم فيهم من عاشق ومحب صادق :

رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا   فسام صبراً فاعيا نيله فقضا

(أحمده) من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وشبب يذكر محبوبه ان كان تهامياً في حجازا وشامياً في نوى :

طور ايمان اذا لاقيت ذا يمن   وان لقيت معدياً فعد ناني

وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له الحميد المجيد شهادة من أصبح موته لبعده أقرب من حبل الوريد وقال لعاذ له لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد :

ولو أن ما بي من حبيب مقنع   عذرت ولكن من حبيب معمم

وأشهد ان محمداً عبده ورسوله شهادة من أخلص في موالاته وتبرأ من الأثم حين تولى عنه محبوبه بخاتم ربه وبراءته صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين يحبهم ويحبونه ويقفون عند ما أمرهم ولا يتعدونه ما ذر شارق وهام عاشق .

(أما بعد) فان كتابنا هذا كما قيل .

كتاب حوى أخبار من قتـل الهوى وسار بهم في الحب في كل مذهب مقاطعيه مثل المواصيل لم تزل * تشبب فيه بالرباب وزينب فهـم ما هم تعرفهم بسيماهم قد تركهم الهوى كهشيم عقال المحتظر وأصبحوا من علة الجوى على قسمين فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر فهم ما بين قتيل وشهيـد وشقي وسعيد على اختلاف طبقاتهم وأشكالهم وتباين مراتبهم وأحوالهم وغير ذلك مما تصبح به اوراقه يانعة الثمر وتمسي به صفحاته في كل ناحية من وجهها قمر فاذا نظرت الى الوجود بأسره * شاهدت كل الكائنات ملاحاً على ان جماعة من العصريين غلبوا من تقدم بالتأليف في هذا الباب ولم يفرق غالبهم في التشبيب بين زينب والرباب :

وكل يدعى وصلا بليلى   وليلى لا تقر لهم بذاكا

فربع كتابنا هذا بذكر العامرية مغمور وهو بالنسبة الى مـــا الفه الشهاب محمود مشكور ومن وقف عليه علم صحة هذا الكلام وأنشدني تصديق هـــذه الدعوى اذا قالت حذام مؤلف طوق الحمامة بالنسبة الى حجلته يحجل وصاحب منازل الاحباب ممن عرف المحل فبات دون المنزل .

وعذرت طيفك في الجفاء   يسري فيصبح دوننا بمراحل

(آخر)

فيادارها بالخيف ان مزارها   قريب ولكن دون ذلك أهوال

فان قلت الفضل للمتقدم وهـل غادر الشعراء من متردم قلت نعم في الخمر معنى ليس في العنب وأحسن ما في الطاوس الذنب فدع كل صوت بعد صوتي فأنني انا الصائح المحكي والآخر الصدا فكم ترك الاول للآخر ولا اعتبار بقول الشاعر :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحب إلا للحبيـــب الاوّل
كم منزل في الارض يالفة الفتى   وحنينـــه أبداً لاول مــنزل

فقد سقط في يديه وقيل في الرد عليه :

أفخر بآخر من كلفت بحبه
لا خـــير في الحبيب الأول

أتشك في ان النبي محمداً ساد البرية وهو آخر مرسل

وقال ديك الجن الحمصي يرد على حبيب قوله المتقدم :

كذب الذين تحدثوا عن الهوى لا شك فيه للحبيب الأول
ما لي أحنّ إلى خراب مقفر درست معالمه كأن لم يوهل

فقال حبيب حين بلغه قول ديك الجن المذكور :

كذب الذين تخرصوا في قولهم ما الحب إلا للحبيب المقبل
أفطيب في الطعم ما قد ذقته من مأكل أو طعم ما لم يؤكل

فقال ديك الجن ايضاً حين بلغه قول حبيب هذا :

أرغب عن الحب القـديم الأول وعليك بالمستأنف المستقبل
نقل فؤادك حيث شئت فلن ترى كهوى جديد أو كوصل مقبل

وقال أبو البرق وسلك بينهما جادة الانصاف وبقوله يجب الاعـتراف لانه أحسن في المقال حيث قال :

زادوا على المعنى فكل محسنٍ والحق فيه مقالة لم يجهل
الحب للمحبوب ساعة وصله ما الحب فيه لآخر ولأول

على أنني لم أجحد ما في منـــازل الأحباب من ذكرى حبيب ومنزل ولا تحملت على مصنفه فواعجبا من قلبي المتحمل ولكن قصدت التنبيه على ان حسن التأليف مواهب وان للناس فيما يعشقون مذاهب ومعلوم ان الجنون فنون وكل حزب بما لديهم فرحون ولم يزل كتابنا هذا في مسوداتـه منذ حجج وبيوته من بحورها في لجج لا أبيح ما فيه من منازل الأحباب لساكن ولا أمكن عاشقاً من

المررو بتلك الأماكن :

أغار إذا آنست في الحيّ أنة   حذاراً وخوفاً ان تكون لحبه

حتى برز لطلبه المرسوم الشريف الملكي الناصري أدام الله نشر اعلامه ولا أخلى كنانة من سهامه ما نفذت مراسيم سهام المقل وتثني قوام الحبيب الذي طاب به الزمان واعتدل فبادرت الى تجهيزه وسبك إبريزه حسب المرسوم والمعدن الشريف من غير تسويف ولا تكليف ولم أبح زهر منثوره لغير حضرته الشريفة من الأنام لأنه كان يقال كل ما يصلح للمولى على العبد حرام لا جرم انه جاء بنظره السعيد نزهة للنظر وقال الواقف على عتبة بابه أن السعادة لتلحظ الحجر فهو للسلطان بستان وللعاشق سلوان وللمحب الصادق حبيب موافق وللمهجور نجوة وللنديم قهوة وللناسي تذكرة وللاعمى تبصرة وللشاعر المجيد بيت القصيد وللاديب الماهر مثل سائر وللمحدث قصص وللحاسد غصص وللفقيه تنبيه وللحبيب بالقمر تشبيه :

تبادره بالبدر منه بوادره   وتحلو له عند المرور نوادره
ففيه له في كل يوم وليلة   حبيب ملم أو نديم يسامره
ولي فيه نظم ان تضوع نشره   ففي طيه حلو الكلام ونادره
ولي فيه منثور غدا في مقامه   وعرف سناه مشرق الروض عاطره
ولي فيه من سحر البيان رسائل   إذا ما جفاني أحور الطرف ساحره
ولي فيه اسرار الحروف لانه   ينقطه دمعي فتبدو سرائره
فنثور دمعي مثل نظم سطوره   خدودي إذا ما خط فيها دفاتره
تمد مداد الدمع اقلام هدبه   فدمعي حبري والسواد محابره
خدمت بديوان الصبابة عاملا   فباشر قتلي من سباتي ناظره
فلولا الهوى ما مات مثلي عاشق   ولا عمرت بالعامري مقابره
وفي غزلي ذكر الغزال ومربع   تطار حتى فيه الحديث جآذره
أنزهه عن وصف خدر عنيزة   ومنزل قفر سرن عنه اباعره
تجر قوافيه معال غدابها   جرير كمبدا وثقته جرائره

يشيب بها فود الوليد لانه   يسير وجنح الليل سود ضفائره
ولست أرى يوماً بدارة جلجل   سوى شاعر دارت عليه دوائره
إذا ما نسي ذكر حبيب ومنزل   فإني لمن اهواه ما عشت ذاكره
اجاور في سفح المقطم جيرة   فيا حبذا المحبوب حين تجاوره
فيا طيف من اهواه طرفي إن غفا   اتهجره بالله ام انت زائره
وحقك لو سايرته بعض ليلة   لسايرت صيامات في الحب سائرة
يمتلك الشوق الشديد لطرفه   فتجري به كالحاجري محاجره
ويا تيه طيف من خيالك طارق   فيطرق إجلالاً كأنك حاضرة
وبي من يحج الغصن رمح قوامها   إذا بات في الروض النضير يناظره
إذا اقبلت في الحلى والطيب قيل لي   حبيبك بستان تضوع أزاهره
وان رمت منها وهي غضبى التفاتة   ثنت عواطفها نحو الغزال تشاوره
أيبرد ما ألقاه من حرّ هجرها   وقد حميت يوماً عليّ هواجره
تحصنت في حصن الهوى من عواذلي   وبات لقلبي جيش همّ يحاصره
ولو لم يكن أعمى البصيرة عاذلي   لما عميت عمن هويت نواظره
يشبهها بالغصن والغصن عندها   يشاهدها يغضي ويطرق ناظره
ألغصن خد كالشقيق إذا بدا   وشعر كجنح الليل سود غدائره
لئن طاب ذلي في هواها فإنني   وحقك ممن عز في مصر ناصره
مليك يهز الرمح أعطاف قدّه   كما اهــتز غصن طار في الحب
مليك تريه قبل ما صار هو كائن   بصيرته أضعاف ما هو ناظره
مليك إذا ما جئته حسن اللقا   جميل المحيا بارع الحسن باهره
مليك إذا ما صار كالبدر في الدجى   فأولاده مثل النجــوم تسايره
مليك أرى من حوله كل عالم   يذكره في العلم ما هو ذاكره
مليك له في كل يوم وليــلة   بشير توالت بالهناء بشائره
مليك أسود الغاب تحذر بأسه   لأن ملوك الارض طرا تحاذره
تروعهم شهب السماء وبروقه   وما هي إلا سمره وبواتره
إذا اقترعت أشكال حال اجتماعهم   فأي ضمير لم يدس فيه ضامره

وأي كماة لم بحرها يرعهم نزاله وأيّ مكان ما علته منابره
وأي قصيد بخرها لم يرق له وغائص فكري ناظم الدر ناثره
ولي فيه من غرّ التصانيف خمسة وهذا الذي طوّق الحمامة عاشره
يضوع به المنثور كالزهر عندما تراوحه ريح الصبا وتباكره
فكم فيه لي من مرقص حول مطرب بتشبيبه في الحي يطرب زامره
ولولم يكن مثل السكردان ماغدا بحضرته يوماً تطيب حواضره
نعم الفته باسم مولانا السلطان على الوجه المشروح وتوليت لاجله
عمله بنفسي فجاء كماقيل عمل الروح للروح
أهيم بمن هام الحبيب بحبه ألا فاعجبوا من ذا الغرام المسلسل
وسلكت في تأليفه الاختصار والاقتصار على النوادر القصار
لأنه كان يقال الوضع وضعان وضع له افتخار ووضع له نجار

وقال يحيى بن خالد لولده :

اكتبوا أحسن ما تسمعون واحفظوا احسن ما تكتبون وحدّثوا بأحسن ما تحفظون وخذوا من كل شيء طرفاً فإنه من جهل شيئاً عاداه * (وسميته) * ديوان الصبابة ليصبح الواقف عليه مولهاً ويعلم أنه ان لم أكن أنا للصبابة من لها :

ما يعلم الشوق إلا من يكابده ولاالصبابة إلا من يعانيها
أي والله
قلما يبرح المطيع هواه كافا ذا صبابة وجنون

(ورتبته) على مقدمة وثلاثين باباً وخاتمة أما المقدمة ففي ذكر حد العشق واشتقاقه وما قيل في وسمه ورسمه واسبابه وعلاماته ومراتبه واسمائه ومدحه وذمه وذكر اختلاف الناس فيه هل هو اختياري واضطراري ونحو ذلك وأما الأبواب فالباب الأول في ذكر الحسن والجمال وما قيل فيهما من تفصيل وإجمال والباب الثاني في ذكر المحبين والظرفاء من الملوك والخلفاء . والباب الثالث في

ذكر من عشق على السماع ووقع من النزوع الى الحبيب في نزاع . والباب الرابع في ذكر من نظر اول نظرة فاحترق من خد الحبيب بجمرة . والباب الخامس في ذكر تغير الألوان عند العيان من صفرة ووجل وحمرة وخجل وما في معنى ذلك من عقد اللسان وسحر البيان. والباب السادس في ذكر الغيرة وما فيها من الحيرة وقرع سن ديك الجن . والباب السابع في ذكر إفشاء السر والكتمان عن ابناء الزمان. والباب الثامن في ذكر مغالطة الحبيب واستعطافه وتلافي غيظه وانحرافه والباب التاسع في ذكر الرسل والرسائل والتلطف في الوسائل . والباب العاشر في ذكر الاحتيال على طيف الخيال وغير ذلك مما قيل فيه اختلاف معانيه . والباب الحادي عشر في ذكر قصر الليل وطوله وخضاب شفقه ونصوله وما في معنى ذلك . والباب الثاني عشر في ذكر قلة عقل المزول وما عنده من كثرة الفضول . والباب الثالث عشر في ذكر الإشارة الى الوصل والزيارة . والباب الرابع عشر في ذكر الرقيب والنمام والواشي الكثير الكلام . والباب الخامس عشر في ذكر العتاب عند اجتماع الاحباب وما في معنى ذلك من الرضا والعفو عما مضى . والباب السادس عشر في ذكر إغاثة العاشق المسكين إذا وصلت العظم السكين . والباب السابع عشر في ذكر دواء علة الجوى وما يقاسيه أهل الهوى . والباب الثامن عشر في ذكر تعنت المعشوق على الصب المشوق وغير ذلك من اقسام الهجر وصبر النابض فيه على الجمر . والباب التاسع عشر في ذكر الدعاء على المحبوب وما فيه من الفقه المقلوب . والباب العشرون في ذكر الخضوع وانسكاب الدموع . والباب الحادي والعشرون في ذكر الوعد والأماني ومافيهما من راحة العاني . والباب الثاني والعشرون في ذكر الرضا من المحبوب بأيسر مطلوب . والباب الثالث والعشرون في ذكر اختلاط الأرواح كاختلاط الماء بالراح . والباب الرابع والعشرون في ذكر عود المحب كالخلال وطيف الخيال وما في معنى ذلك من رقة خصر وتشبيه الردف بالكثيب . والباب الخامس والعشرون في ذكر ما يكابده في طلب الأحباب من الامور الصعاب . والباب السادس والعشرون في ذكر طيب ذكرى حبيب . والباب السابع والعشرون في ذكر طرف يسير من المقاطيع الفائقة والأغزال الرائقة مما اشتمل على ورد

الخدود ورمان النهود وغير ذلك مما هنالك . والباب الثامن والعشرون في ذكر طرف يسير من أخبار المطربين المجيدين من الرجال وذوات الجمال وما في معنى ذلك من ذكر موالاتهم ووصف آلاتهم . والباب التاسع والعشرون في ذكر من ابتلى من أهل هذا الزمان بحب النساء والغلمان . والباب الثلاثون في ذكر من اتصف من العفاف بأحسن الأوصاف . وأما الخاتمة ففي ذكر من مات من حبه وقدم على ربه من غني وفقير وكبير وصغير على اختلاف ضروبهم وتباين مطلوبهم ولأجل ذكرهم أسست قواعد هذا الكتاب ودخلت فيه من باب وخرجت من باب ومن هنا نشرع في ذكر ما يجلب الراحة كمراوح الخيش وتكون عند المطالعة كالطليعة للجيش وهذه المقدمة في ذكر رسم العشق ووسمه ومدحه وذمه وذكر اختلاف الناس فيه هل هو اختياري واضطراري ويشتمل ذلك على خمسة فصول :

(الفصل الأول في رسم العشق ووسمه وما قيل في اسمه)

أقول هذا الفصل عقدناه لذكر رسم العشق وحدّه وجزر بحره المتلاطم ومده وما للناس فيه من الكلام البابن والقول المتباين إذ فيهم من التبس عليه فسماه باسم سببه أو باسم ما يؤول اليه وغير ذلك مما التبس عليهم فيه الجواب وإصابة الصواب وعذرهم الظاهر قول الشاعر :

يقول أناس لو نعت لنا الهوى ... والله ما أدري لهم كيف أنعت

فليس لشيء منه حد أحده ... وليس لشيء منه وقت مؤقت

فمن حدوده المليحة ورسومه الصحيحة قول فيثاغورس الذي أخذ عن اصحاب سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام فيما ذكره صاعد في كتاب الطبقات العشق طمع يتولد في القلب ويتحرك وينمو ثم يتربى وتجتمع اليه مواد من الحرص وكلما قوي زاد صاحبه في الاهتياج واللجاج والتمادي في الطمع والفكر والأماني والحرص على الطلب حتى يؤديه ذلك الى الغم المقلق ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالة السوداء أو التهاب الصفراء وانقلابها اليها ومن طبع السوداء إفساد الفكر يكون زوال العقل ورجاء ما لا يكون وتمنى ما لا يتم حتى يؤدي ذلك الى الجنون فحينئذٍ ربما قتل العاشق نفسه وربما مات غماً وربما نظر الى معشوقه فمات فرحاً وربما شهق شهقة فتختنق روحه فيبقى أربعاً وعشرين ساعة فيظنون انه مات فيدفنونه وهو حي وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه في تامور قلبه وينضم عليها القلب ولا ينفرج حتى يموت وتراه إذ أذكر من يهواه هرب

دمه واستحال لونه قال الإمام ابن الامام محمد بن داود الظاهري وتكرار واذا كان ذلك كذلك فان زوال المكروه عمن هذه حالته لا سبيل إليه بتدبير الأدوية ولا شفاء له (٣ في نسخة وقال فزاري) إلا بلطف رب العالمين وذلك ان المكروه العارض من سبب واحد قائم بنفسه يتهيأ التلطف فيه بزوال سببه فأما اذا وقع السببان وكان كل واحد منهما سبباً فإذا كانت السوداء سبباً لاتصال الفكر وكان اتصال الفكر سبباً لاحتراق الدم والصفراء وقلبهما الى تقوية السوداء فهذا هو الداء العضال الذي يعجز عن معالجته الاطباء * ومنها قول افلاطون الآخذ للحكمة عن فيثاغورس المتقدم ذكره العشق قوة غريزية متولدة من وسواس الطامع واشباح التخيل نام بأيصال الهيكل الطبيعي محدث للشجاع جنباً وللجبان شجاعة يكسو كل انسان عكس طباعه حتى يبلغ به المرض النفساني والجنون الشوقي فيؤديانه الى الداء العضال الذي لا دواء له * ومنها قول ارسطاطاليس الآخذ للحكمة عن افلاطون المتقدم ذكره العشق عمى العاشق عن عيوب المعشوق وهذا كقوله ﷺ حبك الشيء يعمى ويصم وقول الشاعر :

فلست براء عيب ذي الودّ كله ولا بعض ما فيه اذا كنت راضياً
وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

(وقول لآخر)

وعين السخط تبصر كل عيب وعين أخي الرضا عن ذاك عميا

ومنها ما مشى عليه أبو علي بن سينا وغيره من الأطباء العشق مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا يجلبه المرء الى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والتماثيل وقد يكون معه شهوة جماع وقد لا يكون وقال بعض الأدباء الظرفاء العشق عبارة عن طلب ذلك الفعل المخصوص من شخص مخصوص وهذا ظريف * وقال الجنيد العشق ألفة رحمانية وإلهام شوقي أوجبها كرم الله تعالى على كل ذي روح لنحصل بة اللذة العظمى التي لا يقدر على مثلها إلا بتلك الألفة وهي موجودة في الأنفس بقدر مراتبها عند أربابها فما أحد إلا عاشق لأمر يستدل به

على قدر طبقته من الخلق ولأجل ذلك كان أشرف المراتب في الدنيا مراتب الذين زهدوا فيها مع كونها معاينة ومالوا الى الأخرى مع كونها مخبراً لهم عنها بصورة اللفظ وقال الأصمعي سألت إعرابية عن العشق فقالت : جل والله عن أن يرى وخفى عن أبصار الورى فهو في الصدور كامن ككمون النار في الحجر إن قدحته أورى وإن تركته توارى وقال بعضهم ان الجنون فنون والعشق فن من فنونه واحتج بقول قيس :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ... العشق أعظم ممـــا بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه ... وانما يصرع المجنون في الحين
اني جننت فهاتوا من جننت به ... ان كان ينفي جنوني لاتلومني

وقيل لأبي زهير المدايني ما العشق فقال: الجنون والذل وهوداء أهل الظرف وقيل لأبي وائل الاوضاحي ما تقول في العشق فقال: إن لم يكن طرفاً من الجنون فهو عصارة من السحر وقالت إعرابية : هو تحريك الساكن وتسكين المتحرك وقال المأمون ليحيى بن أكثم ما العشق فقال : سوانح تسنح للمرء فيهيم بها قلبه وتؤثر بها نفسه فقال له تمامة : أسكت يا يحيى إنمـا عليك أن تجيب في مسألة طلاق أو محرم صاد صيداً فاما هذه فمن مسائلنا نحن فقال له المـأمون : قل يا تمامة قال : العشق جليس ممتع وأليف مؤنس وصاحب مالك وملك قاهر ملك مسالكه لطيفة ومذاهبه غامضة وأحكامه جائرة ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها والعقول وآراءها قد أعطى عنان طاعتها وقوة تصرفها وقياد ملكها وتوارى عن الابصار مدخله وعمى عن القلوب مسلكه فقال له المأمون أحسنت يا تمامة وأمر له بألف دينار وهذا القدر كاف في معرفة العشق ورسمه .

(الفصل الثاني في أسبابـــه وعلاماته)

أقول هذا الفصل عقدناه للكلام على أسباب العشق النفسانية وعلاماته الجسمانية على ان هذا النوع الاخير كثير والمتصف به من المحبين جم غفير وسنورد من ذلك ما يعذب وروده وتخفق كقلب العاشق بنوده ان شاءالله تعالى قال بعض الاطباء سبب العشق النفساني الاستحسان والفكر وسببه البدني ارتفاع بخار رديء الى الدماغ عن مني ّ محتقن ولذلك أكثر ما يعتري العزاب وكثرة الجماع تزيله بسرعة وقال ابن لاكفاني في كتابة غنية اللبيب عند غيبة الطبيب ان أكل الطيور المسموعة يورث العشق وقال ايضاً في الخلاصة علامته نحافة البدن وخلاء الجفن للسهر وكثرة مايتصعد اليه من الابخرة وغور العين وجفافها إلا عند البكاء وحركة الجفن ضاحكة كأنه نظر الى شيء لذيذ ونفس كثير الانقطاع والاسترداد والصعداء ونبض غير منتظم لا سيما عند ذكر أسماء وصفات مختلفة فأيها اشتد عنده اختــلاف النبض وتغير الوجه فهو وقال ارسطاطاليس الفلكي للعشق من النجوم زحل وعطارد والزهرة جميعاً ولذلك اذا اشتركوا في أصل المولـــد أو اجتمعوا وتناظروا في أشكال محمودة وقع بينهم العشق والمحبة في بيت أحدهم أو في حده وكان رب ّ البيت أو صاحب الحد ناظراً اليه أو كانت الكواكب المذكورة ناظرة في أشكال محمودة أو متقارنة فزحل يهيىء الفكرة والتمني والطمع والهم والهيجان والاحزان والوسوسة والجنون وعطارد يهيىء قول الشعر ونظم الرسائل والملق والخلاعة وتنميق الكلام والتذلل والتلطف والزهرة تهيىء العشق والوله والهيمان والرقة وتبعث في النفس التلذذ بالنظر والمؤانسة بالحديث والمغازلة التي تبعث على الشبق

والغلمة وتدعو الى الطرب وسماع الأغاني وما شابهه وقال بطليموس سببه أن تكون الشمس والقمر في برج واحد أو متناظرين من تثليث أو تسديس فمتى ن كذلك كانا مطبوعين على مودّة كل واحد منهما لكون سهمي سعادتهما في مولديهما في برج واحد أو يتناظر السهمان من تثليث أو تسديس بعد أن يكون نظر صاحب سهم المحبة والصداقة فذلك يدل على ان هذين المولودين محبتهما من جهة المنفعة ومنفعتهما من جهة واحدة وان أحدهما ينتفع بمودة صاحبه فتجلب المنفعة ما بينهما المحبة والمودة ويمتزجان ويؤيد هذا قول الخبزارزى :

ولكن أرواح المحبين تلتقي إذا كانت الاجساد عنهن نوّما
وأحسب روحينا من الأصل واحداً ولكنه ما بيننا منقسماً
ولو لم يكن هذا كذا ما تألمت له مهجتي بالغيب لما تألما

ومن علاماته إغضاء المحب عند نظر محبوبه اليه ورميه بطرفه نحو الأرض وذلك من مهابته له وحيائه منه وعظمته في صدره ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يحدّ النظر اليهم بل يكون خافض الطرف الى الارض قال الله تعالى مخبراً عن كمال أدب نبيه ﷺ في ليلة الاسراء ما زاغ البصر وما طغى وهذا غاية الادب فإن البصر لم يزغ يميناً ولا شمالاً ولاطمح متجاوزاً الى ما وراء ومنها اضطراب يبدو للمحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه كما قيل:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من مني فهيج اشجان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدري
دعا باسم ليلى أسخن الله عينه وليلى بأرض الشام في بلد قفر

ومنها أنه يستدعي سماع اسم محبوبه ويستلذ الكلام في اخباره ويحب اهل محبوبه وقرابته وغلمانه وجيرانه ومن ساكنه كما قال الشاعر :

فيا ساكني اكتاف دجلة كلكم الى القلب من أجل الحبيب حبيب

وقال آخر :

أحب لحبها السودان حتى أحب لحبها سود الكلاب

ومنها كثرة غيرته عليه ومحبة القتل والموت ليبلغ رضاه والانصاف لحديثه إذا حدث واستغراب كل ما يأتي به ولو أنه عين المحال وتصديقه وان كذب وموافقته وان ظلم والشهادة له وان جار واتباعه كيف يسلك والاسراع بالسير نحو المكان الذي يكون فيه والتعمد للقعود بقربه والدنو منه واطراح الاشغال الشاغلة عنه والزهد فيها والرغبة عنها والاستهانة بكل خطب جليل داع الى مفارقته والتباطيء في المشي عند القيام عنه وجوده بكل ما يقدر عليه مما كان يتمتع به قبل ذلك حتى كأنه هو الموهوب له وهذا قبل استعار نار الحب فإذا تمكن أعرض عن ذلك كله وبدله سؤالاً وتضرعاً كأنه يأخذه من المحبوب حتى انه يبذل نفسه دون محبوبه كما كانت الصحابة يفدون النبي ﷺ في الحرب بنفوسهم حتى يصرعوا حوله كما قيل :

بفديك بالنفس صب لو يكون له أعز من نفسه شيء فداك به

ومنها الانبساط الكثير الزائد والتضايق في المكان الواسع والمحاربة على الشيء يأخذه احدهما وكثرة الغمز الخفي والميل والتعمد للمس اليد عند المحادثة ولمس ما أمكن من الاعضاء الظاهر وشرب ما أبقى المحبوب في الإناء قلت ومنها تقبيل نعله في غيبته وقد رأيت من فعل هذا فعنفته على ذلك فقال : أسكت يا فلان ما تعلم ما في هذا من اللذة ثم اني وجدت هذا المذكور بمكة وأرسل معي كتاباً الى محبوبه المذكور لانه جاور فقلت له : كيف امكن الصبر يا زيد عن عمرو فأنشد :

ولله مني جانب لا أضيعه وللهو مني والخلاعة جانب

ومنها تقبيل جدار الدار كما قيل :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

ومنها الاتفاق الواقع بين المحب والمجبوب ولا سيما اذا كانت المحبة محبة مشاكلة ومناسبة فكثيراً مـــا يتكلم المحبوب بكـلام أو يريد أن يتكلم به فيتكلم المحب به بعينه وكثيراً ما يمــرض المحب بمرض محبوبه قلت وقد اتفق هذا غير مرة للسلطان الملك الناصر أحمد لما كان بالكرك مع محبوبه الشهيب فانه كان يمرض لمرضه ويصح لصحته أخبرني بذلك من لا ارتاب في قوله ممن كان في خدمته ملازماً له وأما وقوع ذلك للمتقدمين فكثير فمن ذلك ما حكى عن أبي نواس أنه مرض فدخل عليه بعض اصحابه يعودونه فوجدوا به خفة قال فانبسط معنا وقال : من أين جئتم فقلنا : من عند عنان جارية الناطفي فقال : او كانت عليله قلنا: نعم وقد عوفيت الآن فقال : والله لقد انكرت علتي هذه ولم أعرف لها سبباً غير أني توهمت ان ذلك لعلة نالت بعض من أحب ولقد وجدت في يومي هذا راحة ففرحت طمعاً ان يكون الله عافاه منها قبلي ثم دعا بدواه وكتب الى عنان :

انی حممت ولم أشعر بحماك حتى تحدث عوادي بشكواك
فقلت ما كانت الحمى لتطرقني من غير ما سبب إلا بحماك
وخصلة كنت فيها غير متهم عافاني الله منها حين عافاك
حتى اذا اتفقت نفسي ونفسك في هذا وذاك وفي هذا وفي ذاك

ومنها انه إذا سئل عن أمر اجاب بخلافه وكثرة التثاؤب والتمطي والتكسل إذا نظر الى محبوبه ونكته في الأرض بإبهام رجله . وهذا كثير ما يقع للنساء وعضها على شفتها السفلى وضربها على عضديها أو ثدييها وإظهار محاسنهـا لمن تهواه توهمه انها ترى ذلك لبعض أهلها ونظرها إلى اعطافها ووضعها الحديث في غير موضعه (إياك أعني واسمعي يا جارة) ومنها الانقياد للمحبوب في جميع ما يختاره من خير وشرّ فإن كان المحبوب مشغوفاً بالعلم اجتهد المحب في طلبه أشدّ من اجتهاده وان كان مشغوفاً بالنوادر والحكايات الحسان والأخبار المليحة المستحسنة بالغ المحب في طلبها وحفظها وان كان مشغوفاً بحرفــة أو صناعة

اجتهد في تعلمها ان أمكنه ذلك فالمحبة النافعة ان يقع الانسان على عشق كامل يحمله عشقه على طلب الكمال والبلية كل البلية ان يبتلي الانسان بمحبة فـــارغ بطال صفر من كل خير فيحمله حبه على التشبه به * وفي أخبار العشاق ان عاشقاً عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقته فوجد في تركته اثنا عشر حملا وفردة من السراويلات ذكره الصيمري وعشق آخر الهاونات من أجل صوت هاون محبوبته فوجد في تركته عشرة آلاف منها وقد وقفت من هذا على أشياء كثيرة والجنون فنون .

الفصل الثالث

في مراتبه واسمائه

اقول هـذا الفصل عقدناه لذكر مراتب الحب وسياقه واسمائه واشتقاقه على اختلاف لغاته وانفـاق رواته ومن المعلوم ان الشيء اذا كان عند العرب عظيماً وخطره جسيماً كالهزبر والرمح والخمر والسيف والداهية والمحبة المحرقة وما أدراك ماهية وضعوا له اسماء كثيرة وكانت عنايتهم به شهيرة ولا شيء يعدل اعتناءهم بالحب الذي يسلب اللب فأوّل مراتبه الهوى وهـو ميل النفس وقد يطلق ويراد به نفس المحبوب . قال الشاعر :

ان التي زعمت فؤادك ملها   خلقت هواك كما خلقت هوى لها

ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب كما قال الشاعر :

ولقد اردت الصبر عنك فعاقني   علق بقلبي من هواك قـديم

وسميت علاقة لتعلـق القلب بالمحبوب ثم الكلف وهو شدة الحب واصله من الكلفة وهي المشقة يقال كلفة تكليفاً إذا أمره بما يشق عليه فكان الحبيب يكلف المحب ما لا يطيق ويتغافل عن قوله تعالى لا يكلف الله نفساً إلا وسعهـا وقيل هو مأخوذ من الأثر وهو شيء يعلو الوجه كالسمسم والكلف أيضاً لون بين السواد والحمرة وهي حمرة كدرة ثم العشق وهو اسم لمـا فضل عن المقدار الذي اسمه الحب وفي الصحاح العشق فرط الحب وهو عند الاطباء من جملة انواع الماليخوليا والمراد بالماليخوليا تغير الظنون والفكر عن المجرى الطبيعي الى

الفساد وهو أمرّ هذه الاسماء وقلما نطقت به العرب وكأنهم ستر ا اسمه وكنوا عنه بهذه الاسماء فلم يكادوا يفحصون به ولا تكاد تجده في شعرهم القديم وانما اولع به المتأخرون ولم يقع هذا اللفظ في القرآن ولا في السنة إلا في حديث ابن داود الظاهري كما يأتي بيانه وقال ابن سيده العشق عجب المحب بالمحبوب يكون في عناف الحب وذعارته وقيل العشق الاسم والعشق المصدر وعشيق كثيـــير العشق وامرأة عاشق وشجرة يقال لها . وقيل عاشقة تخضر ثم تدق وتصغر قال الزجاجي واشتقاق العاشق من ذلك وقال الفراء العشق نبت لزج فسمى العشق الذي يكون بالانسان لزوجته ولصوقه بالقلب .

وقال ابن الاعرابي العاشقة اللبلابة تخضر وتصفر وتعلق بالذي يليها من الشجرة فاشتق من ذلك العاشق ذكره في ديوان العاشقـين والعشيق يكون للفاعل والمفعول وجمع العاشق عشق وعشاق ويقال في المرأة عاشقة وامرأة عاشق ايضاً وقد تقدم ذكر ذلك والله اعـلم ثم الشغف قال العزيزي في غريب القرآن شغفها حباً اصاب حبه شغاف قلبها والشغاف غلاف القلب ويقال هو حبة القلب وهي علقة سوداء في صميمه وشغفها حبـــاً ارتفع حبه الى أعلى موضع في قلبها مشتق من شعاف الجبال أي رؤسها وقولهم فـــلان مشغوف أي ذهب به الحب اقصى المذاهب واما الشغف بالعين المهمله فهو احراق الحب القلب قال في الصحاح شعفة الحب أي احرق قلبه وقد قرى بهما جميعا شغفها حباً وشعفها وكذلك اللوعة واللاعج اعني مثل الشغف في الاحراق فاللاعج اسم فاعل من من قولهم الضرب لعجه اذا آلمه واحرق جلده ويقال هوى لاعج لحرقة الفؤاد من الحب وفي الصحاح لوعة الحب حرقته فهذا هـو الهوى المحرق ثم الجوى وهـو الهوى الباطن وفي الصحاح الجوى الحرقة وشدة الوجـــد من عشق أو حزن ثم التتيم وهو ان يستعبده الحب ومنه سمى تيم الله أي عبدالله ومنـه قيل رجل متيم ثم التبل وهو ان يسقمه الهوى ومنه رجل متبول وفي الصحاح تبلهم الدهر واتبلهم اذا افناهم ثم التدلة وهو ذهاب العقل من الهوى ويقال دلهه الحب أي حـيرة ثم الهيام وهو ان يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه ومنه رجل هائم والهيام بالكسر الأبل العطاش وقوم هيم أي عطاش والصبابة رقة الشوق وحرارتـــه

والمقة المحبة والوامق المحب والوجد والحسران الحزن واكثر ما يستعمل في الحزن والدنف لا تكاد تستعمله العرب في الحب وانما ولع به المتأخرون وانما استعملته العرب في المرض والشجو حب يتبعه هم وحزنُ الشوق سفر القلب الى المحبوب قال في الصحاح الشوق والاشتياق نزاع النفس الى الشيء وقد جـــاء في السنة واسألك النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك واختلـف في الشوق هل يزول بالوصال او يزيد فقالت طائفة يزول لأنه سفر القلب الى المحبوب فـاذا وصل إليه انتهى السفر فألقت عصاها واستقر بها النوى .

كما قر عينا بالاياب المسافر وقالت طائفـة بل يزيـد واستدلوا بقول الشاعر :

واعظم ما يكون الشوق يوماً اذادنت الخيـام من الخيام

قالوا الآن الشوق هو حرقة المحبـة والتهاب نارها في حرقة المحبة والتهاب نارها في قلب المحب وذلك ممـا يزيده القرب والمواصلة والصواب ان الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة والصواب ان الشوق الحادث عنـد اللقاء والمواصلة غير النوع الذي كان عند الغيبة عن المحب قال ابن الرومى :

اعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاها كي تزول صبابتي فيشتد مـا ألقي من الهيمان
كان فؤادي ليس يشفى غليله سوى ان ترى الروحين يمتزجان

والبلبال الهم ووسواس الصدر والبلابل جمع بلبلة يقال بلابل الشوق وهي وساوسه والتباريح الشدائد والدواهي يقال برح به الحب والشوق اذا اصابه منه البرح وهو الشدة والغمرة ما يغمر القلب من حب أو سكر أو غفلة والشجن الحاجة حيث كانت وحاجة المحب أشد الى محبوبه . وقال الراجز :

اني سأبدي لك فيما أبدي لي شجنان شجن بنجد
وشجن لي ببـلاد السند

وقال آخر :

تحمل أصحابي ولم يجدوا وجدي   وللناس اشجان ولي شجن وحدي

والوصب ألم الحب ومرضه فان أصل الوصب المرض والكمد الحزن المكتوم والكمد تغير اللون . والأرق والسهر وهو من لوازم المحبة والحنين الشوق اصل مادته الستر والحب المفرط يستر العقل فلا يعقل المحب ما ينفعه ولا ما يضره فهو شعبة من الجنون ومن الحب ما يكون جنوناً والودّ خالص الحب وألطفه وأرقه وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة والخلة توحيد المحبة فالخليل هو الذي يوحد حبه لمحبوبه وهي مرتبة لا تقبل المشاركة ولهذا اختص بها من العالم الخليلان ابراهيم ومحمد صلوات الله عليهما كما قال واتخذ الله ابراهيم خليلاً وصح عن النبي ﷺ انه قال ان الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً وفي الصحيح عنه لو كنت متخذاً من أهل الارض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً وقيل إنما سميت خلة لتخلل المحبة جميع أجزاء الروح .

قال الشاعر :

قد تخللت موضع الروح مني   وبذا سمي الخليل خليلا

وزعم من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل وقال محمد حبيب الله وابراهيم خليل الله وهذا الزعم باطل لأن الخلة خاصة وهي توحيد المحبة كما تقدم والمحبة عامة قال الله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وقد صح ان الله تعالى اتخذ نبياً خليلاً فحصل من أنعام الحب العام على الخاص والعام :

حللت بهذا حلة ثم حلة   بهذا فطاب الواديان كلاهما

والغرام الحب اللازم يقال رجل مغرم بالحب وقد لزمه الحب . وفي الصحاح الغرام الولوع والغريم الذي يكون عليه الدين وقد يكون الذي له الدين :

قال كثير :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه وعزة ممطول معنى غريمها

والوله ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ، وله اسماء غير هذه أضربت عنها خوف الاطالة والمحبة .

أم باب هذه الاسماء كلها وقيل الشوق جنس والمحبة نوع منه ، ألا ترى ان كل محبة شوق وليس كل شوق محبة وخالف ذلك صاحب المنظوم والمنثور . فقال : زعموا أن العشق والوجد والهوى ان يهوى الشيء فيتبعه غياً كان أو رشداً والحب حرف تنتظم هذه الثلاثة فيه ، وقد يقال للعاشق والواجدوالذي يهوى الأمر محب وللناس في حد المحبة كلام كثير فقيل : هي الميل الدائم بالقلب الهائم وقيل : هي قيامك لمحبوبك بكل ما يحبه منك . وقيل : ذكر المحبوب على عدد الانفاس كما قال المتنبي :

يُراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وقيل هي مصاحبة المحبوب على الدوام كما قيل :

ومن عجب اني أحن إليهم واسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وقيل هي حضور المحبوب عند المحب دائماً كما قال الآخر :

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فاين تغيب

وفي اشتقاقها أيضاً اقوال فقيل هي مشتقة من حبة القلب وهي سويداؤه ، ويقال ثمرته فسميت المحبة بذلك لوصولها الى حبة القلب وقيل هي مشتقة من اللزوم والثبات ومنه أحب البعير إذا برك فلم يقم وقيل من حباب الماء بفتح الحاء وهو معظمه أو يعلو الماء عند المطر الشديد فعلى هذا المحبة غليان القلب وقيل : من حب الماء الذي يوضع فيه لأنه يمسك ما فيه من الماء ولا يسع غيره إذا امتلأ

به كذلك اذا امتلأ القلب من الحب فلا اتساع فيه لغير المحبوب وعلى ذكر حب الماء الذي يسميه المصريون الزير ما أحسن قول القاضي محيى الدين عبد الظاهر ملغزاً في كوز الزير وفيه اعتراض يشينه وحسن نظم يزينه .

وذي أذن بلا سمع — له قلب بـلا قلب
اذا استولى على حب — فقل ما شئت في الصب

الفصل الرابع

في مدحه وذمه

أقول هذا الفصل عقدناه لمدح العشق وذمّه وترياقه وسمه فكم مدحه عاقل وذمّه متعاقل هيهات فات من ذمه المطلوب ومن أين للوجه المليح ذنوب فمن خصاله المحمودة وفضائله الموجودة ماقاله العلامة قدامة العشق فضيلة تنتج الحيلة وتشجع الجبان وتسخي كف البخيل وتصفي ذهن الغبي وتطلق بالشعر لسان العجم وتبعث حزم العاجز وهو عزيز يـدل له عز الملوك وتضرع له صولة الشجاع وهو داعية الادب وأول باب تفتق بة الاذهان والفطن وتستخرج به دقائق المكايد والحيل وإليه تستريح الهمم وتسكن نوافر الاخلاق والشيم يمتع جليسه ويؤنس أليفه وله سرور يجول في النفوس وفرح يسكن في القلوب وقيل لبعض العلماء ان ابنك قد عشق فقال الحمد لله ، الآن وقت حواشيـه ولطفت معانيه وملحت إشاراته وظرفت حركاته وحسنت عباراته وجادت رسائلة وجلت شمائله فواظب على المليح واجتنب القبيح وقيل لآخر كذلك فقال لابأس إذا عشق لطف وظرف ودق ورق وقيل لبزرجمهر متى يكون الفتى بليغاً فقال إذا صنف كتاباً أو وصف هوى أو حبيباً وقد صدق فيماقال العباس ابن الاحنف:

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى ... ولا خير فيمن لا يحب ويعشق

وقال غيره :

وما سرني انى خلى من الهوى ... ولو ان لي ما بين شرق ومغرب

وقال آخر :

ولا خير في الدنيا بغير صبابة   ولا في نعيم ليس فيه حبيب

وقال آخر :

اسكن الى سكن تلذ بحبه   ذهب الزمان وانت خال مفرد

وقال آخر :

اذا لم تذق في هذه الدار صبوة   فموتك فيها والحياة سواء

وقال آخر :

ولا خير في الدنيا إذا أنت لم تزر   حبيباً ولا وافى إليك حبيب

وقال آخر :

ما ذاق بؤس معيشة ونعيمها   فيما مضى أحد إذا لم يعشق

وقال المتنبي :

وعذلت أهل العشق حتى ذقته   فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وقلت أنا مضمناً لقول المتنبي هذا مع زيادة التورية :

ان تسألوا عما لقيت من الهوى   فأنا الذي مارسته وعرفته

خالفت في رشف الرضاب وطعمه   وعذلت أهل العشق حتى ذقته

(حكي) أن الملك بهرام جور كان له ولد واحد فأراد ترشيحه للملك بعده فوجده ساقط الهمة دنيء النفس فسلط عليه الجواري والقيان فعشق منهن واحدة فأعلم الملك بهرام بذلك ففرح وأرسل الى التي قيل انه عشقها ان تجني

عليه وقولي اني لا أصلح إلا لشريف النفس عالي الهمة ملك أو عالم فلما قالت ذلك راجع العلم وما عليه الملوك من شرف الهمة حتى برع في دلك وتولى الملك فكان من خيرهم وأثبت ذلك في حكمة إلى كسرى ان الملك لا يكمل إلا بعد عشقه و كدلك العالم قالوا والعشق المباح مما يؤجر عليه العاشق كما قال شريك وقد سئل عن العشاق فقال أشدهم حباً أعظمهم أجراً .

قالوا وأرواح العشاق عطرة لطيفة وأبدانهم ضعيفة وأرواحهم بطيئة الانقياد لمن قادها حاشى سكنها الذي سكنت اليه وعقدت حبها عليه وكلام العشاق ومنادمتهم تزيد في العقول وتحرك النفوس وتطرب الأرواح وتجلب الأفراح ويتشوّق الى سماع أخبارهم الملوك فمن دونهم ويكفي العاشق المسكين الذي لم يذكر مع الملوك ومع الشجعان الأبطال انه يعشق ويشتهر بالعشق فيذكر في مجالس الملوك والخلفاء فمن دونهم تدور أخباره وتروى أشعاره ويبقى له العشق ذكراً مخلداً ولولا العشق لم يذكر له اسم ولا جرى له رسم ولا رفع له رأس ولا ذكر مع الناس * وقال المرزباني سئل أبو نوفل : هل سَلم أحد من العشق فقال : نعم الجلف الجافي الذي ليس له فضل ولا عنده فهم فأما من في طبعه أدنى ظرف أو معه دماثة أهل الحجاز وظرف أهل العراق فلا يسلم منه وقال بعضهم لا يخلو أحد من صبوة إلا ان يكون جافي الخلقة ناقصاً أومنقوص البنية أو على خلاف تركيب الاعتدال :

فواعجباً للدهر لم يخـــل مهجة من العشق حتى الماء يعشقه الخمر

ويكفي العاشق أنه يرتاح للمعروف وإغاثة الملهوف كما قيل :

ويرتاح للمعروف في طلب العلا لتحمد يوماً عند ليلى شمائله

وقال أبو النجـاب رأيت في الطواف فتى نحيف الجسم بين الضعف يلوذ ويتعوذ ويقول :

وددت بأن الحب يجمع كله فيقذف في قلبي وينفلق الصدر

فلا ينقضي ما في فؤادي من الهوى ومن فرحي بالحب أو ينقضي العمر

فقلت يا فتى أما لهذه البنية جرمة تمنعك من هذا الكلام . فقال بلى والله ولكن الحب ملأ قلبي فتمنيت المني والله ما سرني ما بقلبي منه ما فيه أمير المؤمنين من الملك واني أدعو ان يثبته الله في قلبي عمري ويجعله ضجيعي في قبري دريت به أم لا أدري هذا دعائي وله قصدت وفيه ترغبت مما يعطي الله سائر خلقه . ثم مضى (قلت) ذكرت هنا ما قاله الأخطل وقد لامه عبد الملك على الخمر ، فقال :

ليت شعري ما يعجبك فيها وأولها مراراً وآخرها خمار

فقال لكن بينهما والله نشوة لا أبيعها بخلافتك يا أمير المؤمنين أخذه

الشاعر فقال :

إن يكن أول المدام كريهاً أو يكن آخر المدام صداعاً
فلها بين ذا وذاك هنات وصفها بالسرور لن يستطاعا

* وأما ما جاء في ذمه وسريان سمه فأكثر من أن يحصر فكم ترك الغنى صعلوكاً والمالك مملوكاً كما قيل :

ظلّ من فرط حبه مملوكاً ولقد كان قبل ذلك مليكاً
تركته جآذر القصر صبا مستهاماً على الصعيد تريكا

وهذه الأبيات لبعض ملوك الأندلس وسيأتي ذكرها في الباب الثاني من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعرضه ونفسه وضيّع أهله ومصالح دينه ودنياه ووقع فيما يأباه أي والله .

والعشق يجتذب النفوس الى الردى بالطبع واحسدي لمن لم يعشق

قالوا وكم عاشق هرب من الحب الى مواقف التلف ليتخلص من التلف بالتلف . وعلى هذا حكاية دعبل الشاعر . قال : كنت بالثغر فنودي بالنفير

فخرجت مع الناس فإذا أنا بفتى يجرّ رمحه بين يديّ . فالتفت فنظر إليّ فقال : أنت دعبل . قلت : نعم . قال : اسمع مني ثم أنشد :

أنا في أمري رشـــاد بين حب وجهـــاد
بدني يغـزو وعدوي والهوى يغزو فؤادي

ثم قال كيف ترى . قلت : جيد والله . قال : فوالله ما خرجت إلا هارباً من الحب ثم قاتل حتى قتل (وقال الواوا الدمشقي) :

سبيل الهوى وعر وحلو الهوى مرّ وبرد الهوى حر ويوم الهوى دهر

(وقال غيره) :

العشق مشغـــلة عن كل صالحة وسكرة العشق تنفي سكرة الوسن

وقال عبد المحسن الصوري :

وكان ابتداء الذي بي مجوناً فلما تمكن أمسى جنونـــاً
وكنت أظنّ الهوي هينا فلاقيت منه عذاباً مهيناً

(وقال محمد اليزيدى) .

كيف يطيق الناس وصف الهوى وهو جليل ماله قدر
بل كيف يصفو لحليف الهوى عشق وفيه البين والهجر

(وما أحسن قول عبد الله بن اسباط)

القيرواني :

قال الخليّ الهوى محال فقلت لو ذقته عرفته
فقال هل غير شغل قلب ان أنت لم ترضه صرفته
وهل سوى زفرة ودمع ان لم ترد جريه كففته
فقلت من بعد كل وصف لم تعرف الحب إذ وصفته

* (تنبيه) * الهوى أكثر ما يستعمل في الحب المـذموم . قال الله تعالى :

وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المــأوى وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالاً مقيداً ومنــه الحديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به . وقال ابن عباس : الهوى إله معبود وقرأ أفرأيت من اتخذ إلهه هـــواه فتلخص من الآية الكريمة . والحديث الشريف ان الهوى ينقسم الى قسمين : هوى محمود وهو في الخير والصلاح ، وهوى مذمــوم وهو في الشر والفســاد * وفي كتاب السهل المواتي في فضائل ابن مماتي : ان بعض الصوفية قال: إنما سمي الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه الى النار . قلت :لوقال يهوى بصاحبه الى الهاوية لكان أنسب . وقال بعضهم الهوى الهوان زيدت فيه النون كما قيل :

فسألتها بأشارة عن حالها وعليّ فيها للوشاة عيون

فتنفست صعداً وقالت ما الهوى إلا الهوان أزيل عنه النون

وقوله تعالى أخلد الى الأرض واتبع هواه قيل أخلد الى الأرض أي سكن إليها ونزل بطبعه عليها وكانت نفسه أرضية سفلية لا سماوية علوية وبحسب ما يخلد العبد الى الارض يهبط من السماء . قال سهل قسم الله للاعضاء من الهوى لكل عضو حظاً فاذا مال عضو منها الى الهوى رجع ضرره الى القلب وللنفس سبع حجب سماوية وسبع حجب أرضية فكلما دفن العبد نفسه أرضاً أرضاً سما قلبه سماء سماء فاذا دفن النفس تحت الثرى وصل قلبه الى العرش وحاصل القضية ان العشق والهوى أصل كل بلية وفيه ذل كل نفس أبية . وقد قال النبي ﷺ لا ينبغي للمرء أن يذلّ نفسه . قال الامام : أحمد تفسيره ان يتعرّض من البلاء لما لا يطيق وهذا مطابق لحال العاشق فانه أذل نفسه لمعشوقه كما قيل :

اخضع وذل لمن تحب فليس فيّ شرع الهوى أنف يشال ويعقد

وقال آخر :

مساكين أهل العشق حتى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر

وقال الشيخ شرف الدين بن الفارض :

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهـــل
فما اختـاره مضنى بـه وله عقـل
وعش خالياً فالحب راحته عنا
فأوله سقم وآخره قتل

الفصل الخامس

في اختلاف الناس فيه هل هو اضطراري أو اختياري

أقول هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره وأسفر كالصباح سفره إذ للناس فيه كلام من الطرفين وتبختر بين الصفين فقائل بأنه اضطراري وقائل بأنه اختياري ولكل من القوانين وجه مليح .

وقدّر جيح ونحن نذكر منذلك ما يعم به الانتفاع ونتكلم في طوله وعرضه بالباع والذراع فمن ذلك ما قاله القاضي أبو عمر ومحمد ابن احمـــد النوفاني في كتابه تحفة الظراف العشاق معذورون على كل حال مغفور لهم جميع الأقوال والأفعال إذ العشق إنما دهاهم على غير اختياري بل اعتراهم على جبر واضطرار والمرء إنما ُيلام على ما يستطيع من الأمور لا في المقضي عليه والمقـدور . وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أن الحامل كانت ترى يوسف عليه الصلاة والسلام فتضع حملها فكيف ترى هذه وضعته أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار لا بل باضطرار وفقد اقتدار هذا مما لا شك فيـه دو لب ولا يختلج خلافه في قلب (قلت) وجاء في تفسير قوله تعالى فلما رأينه أكبرنه أي رأينه في أعينهن كبيراً وقيل حضن من الدهش . وقال ابن عبـاس أمذين وأمنين من الدهش وقطعن أيديهن يحسبن أنهن يقطعن الأترج ولم يجدن ألماً لحز أيديهن لاشتغال قلوبهن بحسنه . وقال وهب : كنّ أربعين امرأة فمات منهن تسع وجدا بيوسف وكمدا عليه . وما أحسن قول بعض بني عذرة ، وقد قال له بعض العرب ما لأحدكم

يموت عشقاً في هوى امرأة يألفها إنما ذلك ضعف نفس ورقة وخور تجدونه فيكم يا بني عذرة . فقال أما والله لو رأيتم الحواجب الزج فوق النواظر الدعج تحتها المباسم الفلج لأتخذتموها اللات والعزى . وقال الفضيل بن عياض : لو رزقني الله دعوة مجابة لدعوت الله بها أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية لا اختيارية ورؤى أبو السائب المخزومي وكان من أهل العلم والدين بمكان متعلقــاً بأستار الكعبة وهو يقول : اللهم ارحم العاشقين وقوّ قلوبهــم واعطف عليهم قلوب المعشوقين فقيل له ذلك . فقال : والله للدعاء لهم أفضل من عمرة من الجعرانة ثم أنشد :

يا هجر كف عن الهوى ودع الهوى ... للعاشقــين يطيب يا هجر
ماذا تريد من الذين جفونهــم ... قرحى وحشو قلوبهم جمر
متذبلين من الهــوى ألوانهــم ... مما تجن قلوبهــم صفر
وسوابق العبرات فوق خدودهم ... درر تفيض كأنها قطر

والظاهر أن قوله أفضل من عمرة مَن الجعرانــة هو الذي جسر الفتح ابن خاقان على قوله من أبيات :

أيها العاشق المعذب صبراً ... فخطايا أهل الهوى مغفورة
زفرة في الهوى أحط لذنب ... من غزاة وحجة مبرورة

قلت وقد بالغ في هذا الكلام حتى استحق الملام فليته اكتفى بما قتل في التمثيل :

على انني راضٍ بأن أحمل الهوى ... وأخلص منه لا عليّ ولا ليّا

والظاهر ان الحامل له على هذا ما ذهب اليه الشافعي في أن الميت عشقا من الشهداء للحديث الوارد في ذلك وسيأتي ذكره في باب العفاف ان شاء الله تعالى. وقال التميمي في كتابه امتزاج الأرواح . سئل بعض الأطباء عن العشق . فقال ان وقوعه بأهله ليس باختيارهم ولا بحرصهم عليه ولا لذة لا كثرهم فيه ولكن

وقوعه بهم كوقوع العلل المدنفــة والأمراض المتلفة فقال : لا فرق بينه وبين ذلك . وقال المدائني لام رجل رجــلاً من أهل الهوى . فقال : لو كان الذي هوى اختيــار لا اختياران لا يهــوي ولكن لا اختيار الذي هوى قالوا والعشق نوع من العذاب والعاقل لا يختار العذاب لنفسه وفي هذا قال المؤمـــل شفا المؤمل يوم الحيرة النظر * ليت المؤمل لم يخلــق له بصر يكفي المحبين في الدنيا عذابهم * والله لاعذبتهم بعدهـــا سقر حكي أنه نال ما تمنى لأنه عمي بعد قوله هذا ★ وقال أبو محمد بن حزم قال رجل لعمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين اني رأيت امرأة فعشقتها فقال عمر ذلك مما لا يملك وقال كامل في سلمي :

يلومونني في حب سلمى كأنما
يرون الهوى شيئاً تمنيته عمداً

ألا انما الحب الذي صدع الحشا
قضاء من الرحمن يبلو به العبدا

وقال الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنابه بالعشق وهذا لم يريدوا بهالتخصيص وانما أرادوا به التمثيل وأن العشق من تحميل ما لا يطـــاق والمراد بالتحميل ههنا التحميل القدري لا الشرعي الأمري انتهى كلامه .

وقال عبيد الله بن طاووس في قوله تعالى وخلــق الانسان ضعيفاً قال إذا نظراً إلى النساء لم يصبر نقله عنه سفيان بن سعيد في تفسيره وقالوا قـــد رأينا جماعة من العشاق يطوفون على من يدعو لهم أن يعافيهم الله من العشق ولو كان اختيارياً لأزالوه من نفوسهم ومن هنا يتبين خطـأ كثير من العاذلين ويظهران عزلهم من هذا الحال بمنزلة عذل المريض في مرضه وما أحسن قول بعضهم :

يا عاذلي والأمر في يده
هلا عذلت وفي يدي الأمر

وانما ينبغي العدل قبـــل تعلق هذا الداء بالقلب وانصباب دمع العاشق الصب .

وذهب جماعة من الاطباء وغيرهم إلى أنه اختياري لا اضطراري وقد تقدم في حد العشق الذي ذكره ابن سينا وغيره انه مرض وسواسي يجلبـه المرء إلى نفسه بتسليط فكرته على استحسان بعض الصور والشمائل فهـذا تصريح منهم بان الانسان هو المختار في العشق بتسليط فكرته الواقع في بحار سكرته قالوا ولأن المحبة إرادة قوية والعبد يحمد ويذم على إرادته ولهذا يحمد مريد الخير وأن لم يفعله وقد ذم الله تعالى الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنـــوا وأخبر أن عذابهم أليم ولو كانت المحبة لا تملك لم يتوعدهم بالعـذاب على ما لا يدخل تحت قدرتهم ومنه قوله تعالى ونهى النفس عن الهوى ومحـــال أن ينهي الانسان نفسه عما لا يدخل تحت قدرته قالوا والعقلاء قاطبة مطبقون على لوم من يحب ما يتضرر بمحبته وهذه فطرة فطرا الله عليها الخلق فلو اعتذر بأني لا املك قلبي لم يقبلوا له عذراً (قلت) والقول الصحيـح الذي ليس فيه رد ولاعن محبوبة صدّ التفصيل في ذلك وهو أن العشق يختلف بأختلاف بني آدم وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية وغلظ الكبد وقساوة القلب ونفور الطباع وغير ذلك منهم من اذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش كما تقدم في حق النسوة اللاتي متن لما رأين يوسف عليه الصلاة وقد كان مصعب أبن الزبير اذا رأته المرأة خاضت لحسنه وفيه يقول الشاعر :

انما مصعب شهاب من الله تجلت بنوره الظلمـــاء

ومنهم من اذا رأي الملايح سقط من قامتـه ولم يعرف نعله من عمامته قال الشاعر :

فما هو إلا ان يراها فجاءة فتصطك رجلا ويسقط للجنب

فهذا وأمثاله عشقه اضطراري والمخالفة فيـه مكابرة في المحسوس ومنهم من

يكون أوّل عشقه الاستحسان للشخص ثم تحدث له إرادة القرب منه ثم المودة وهو أن يود لو ملكه ثم يقوى الودّ فيصير محبة ثم يصير خلة ثم يصير هوى ثم يصير عشقاً ثم يصير تتيماً والتتيم حالة يصير بها المعشوق مالكاً للعاشق ثم يزيد التقيم فيصير ولها والوله والخروج عن حد الترتيب والتعطل عن التمييز فهذا وأمثاله مبدأ عشقه أختياري لأنه كان يمكنه دفع ذلك وحسم مادته على ان هذا النوع أيضاً اذا انتهى بصاحبه إلى ما ذكرناه صار اضطرارياً كما قال الشاعر :

العشق أوّل ما يكون مجانة

فاذا تمكن صار شغلاً شاغلاً

ولهذا قال بعض الفلاسفة لم أر حقاً أشبه بباطل ولا باطلاً أشبه بحق من العشق هزله جد وجده هزل أوله لعب وآخره عطب قال الشاعر :

تولع بالعشق حتى عشق

فلما استقل به لم يطق

رأى لجة ظنها موجة

فلما تمكن منها غرق

قال صاحب روضة المحبين وهذا بمنزلة السكر مع شرب الخمر فان تناول المسكر اختياري وما يتولد عنه من السكر اضطراري فمتى كان السبب واقعاً باختياره لم يكن معذوراً فيما تولد عنه بغير اختياره ولا ريب ان متابعة النظر واستدامة الفكر بمنزلة شرب المسكر فهو يلام على السبب ولهذا اذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يلم عليه صاحبه كمن كان يعشق امرأته أو جاريته ثم فارقها وبقي عشقها غير مفارق له فهذا لا يلام على ذلك كما في قصة مغيث وبريرة المشهورة وقد ظهر بهذا ان العشق يكون اضطرارياً تارة وتارة اختيارياً

وذلك بحسب كمالة العاشق كما تقدم فحينئذ يكون إدعاء من قال انه اضطراري مطلقاً أو اختياري مطلقاً غير مقبول عند ذوي العقول والله تعالى أعلم أقول والى هنا انتهى الكلام على هذه الفصول التي طاب زمانها واعتدل وظهر بها في جنة الورد حمرة الخجل وما بقي إلا الدخول في الابواب على الوجه المقترح والاتيان بما فتح الله سبحانه ومن دق باب كريم فتح .

الباب الأوّل

في ذكر الحسن والجمال وما قيل فيهما من تفصيلي واجمالي

أقول هذا باب عقدناه للكلام على الحسن واقسامه :

والحبيب وكلامه .

ولا سيما اذا ابتسم عن حبب .

واضطرب في ثغره الصرب .

فعذب مقبله .

وتساوى من حسنه في الحالي ماضيه ومستقبله .

هنالك يحتوي من الجمال على القسمين الذين هما الظاهر والباطن .

والظاعن والقاطن .

فالجمال الباطن المحمود لذاته كالعلم والبراعة .

والجود والشجاعة .

والجمال الظاهر ما ظهر من غصن قوامه الرطيب .

ووجهه الذي فاق البدر بلا غيبة للشمس عند المغيب .

فعند ذلك يشمت بالبدر بشاماته .

ويقول لخدة الذي ازداد بها حسناً من زاد زاد الله في حسناته .

فلذلك قيل الحسن الصريح .

ما استنطق الآفواه بالتسليح .

وقيل بل هو كما قيل شيء به فتن الورى غـير الذي يدعى الجمال ولست أدري ما هو قلت وهو الصحيح لأنه لا يدري كنهه ولا يعرف شبهه .

حتى كأنه فكرة لا تتعرف .

ومجهول لا يعرف .

ولذلك قال بعضهم للحسن معنى لا تناله العبارة ولا يحيـــط به الوصف وقيل الحسن مشتق من الحسنة قلت والذي يظهر انه لهذا المعنى قيل للشامات حسنات قال بعضهم في سوداء مليحة يا رب سوداء تجلى .

بحسنها الظلمات ماذا يعيبون فيها رؤيته .

وكلها حسنات وقلت أنا ووجه زال رونقه فأضحت .

محاسنه بلحيته عيوباً قليل الحظ بالشامات أمسي .

فما حسناته إلا ذنوب .

وقيل الحسن أمر مركب من اشياء وضاءة وصباحـــة وحسن تشكيل وتخطيط ودموية في البشرة وقيل الحسن تناسب الخلقة واعتدالها واستواؤهـا ورب صورة متناصبة الخلقة وليست في الحسن بذاك .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا تم بياض المرأة في حسن شعرهـــا فقد تم حسنها وقالت عائشة رضى الله عنهـا البياض شطر الحسن وقالوا في

الجارية جميلة من بعيد مليحة من قريب فالجميلة التي تأخـذ جملة بصرك فاذا دنت منك لم تكن كذلك والمليحة التي كلما كررت بصرك فيها زادتك حسناً وقيل الجميلة السمينة من الجمال وهو أشحم والمليحة أيضاً من الملحة وهي البياض والصبيحة كذلك من الصبح لبياضة وقال بعضهم الظرف في القدر والبراعة في الجيد والرقة في الأطراف والخصر والشأن كله في الكـلام وأحسن الحسن ما لم يجلب بتزيين وقال امرؤ القيس :

وجدت بها طيباً وان لم تطب .

وقال آخر :

ان المليحة من تزين حليها لا من غدت بحليها تتزين

وقال بعض أهل اللغة العرب تقول الحلاوة في العينين والملاحة في الفـم والجمال في الأنف والظرف في اللسان ومنه قول الحسن رضي الله عنه اذا كان اللص ظريفاً لا يقطع أي اذا وقع دفع عن نفسه بطلاقـة لسانه ومنطقه وما أحسن قول بعضهم البدن فيه الوجه والاطراف .

وفي الوجه المحاسن وإليها الاستشراف .

وفي المحاسن النكت التي هي الغاية في الاستحسان والاستظراف .

كالملاحة في العين ونكتة الملاحة الدعـج وكالحسن في الفم ونكتة الحسن الفلج وكالطلاوة في الجبين ونكتة الطلاوة البلج وكالرونق في الخد ونكتة الخد الضريح .

ومما يستحسن في المرأة طوال أربعة وهي اطرافها وقامتها وشعرها وعنقها . .

وقصر أربعة يديها ورجليها ولسانها وعينيها والمراد بهذا القصر المعنوي فلا تبذر ما في بيت زوجها ولا تخرج من بيتها ولا تستطيع بلسانها ولا تطمع بعينها .

وبياض أربعة لونها وفرقها وثغرها وبياض عينها وسواد أربعة اهدابهـا وحاجبها وعينيها وشعرها .

وحمرة أربعة لسانها وخدهـا وشفتيها مع لعس واشراب بياضها بحمرة * وغلظ أربعة ساقها ومعصمها وعجيزتها وما هنالك . وسعة أربعة جبهاتهـا وجبينها وعينها وصدرها. وضيق أربعة فمها ومنخرها ومنفذ أذنيها وماهنالك وهو المقصود الأعظم من المرأة . قيل وجدت جارية في زمن بني ساسان بهذه الصفات المذكورة جميعها فما كان أحقها ان يقال في حقها .

لو أن عزة حاكمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها وحكى ان يعصور أحد ملوك الصين أهدى الى كسرى انوشر وان ملك فارس هدية من جملتها جارية تغيب في شعرها وتتلألأ جمالاً فبعث اليه كسرى بهدية من جملتها جارية طولها سبعة أذرع تضرب أهداب عينيها خديها كأن بين أجفانها لمعان البرق مقرونة الحاجبين لها ضفائر تجرّهن إذا مشت .

(فصل) قال روضة المحبين كان النبي ﷺ يدعو الناس الى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبدالله وكان عمر بن الخطاب يسميه يوسف هذه الامة قال : قال لي رسول الله ﷺ انت امرؤ قد حسن الله خلقك وقال بعض الحكماء ينبغي للعبد ان ينظر كل يوم في المرآة فإن رأى صورته حسنة فلا يشنها بقبيح فعله وان رآها قبيحة فلا يجمع بين قبح الصورة والفعل. وقد نظم بعضهم هذا فقال :

يا حسن الوجه توق الخنا لا تفسدنّ الزين بالشين
ويا قبيح الوجه كن محسناً لا تجمعن بين قبيحين

ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس معظمـاً في القلوب لم يبعث الله نبياً لا جميل الوجه كريم الحسب حسن الصوت كما قال علي بن أبي طالب وقد سئل أكان وجه الرسول ﷺ مثل السيف قال : لا بل مثل القمر وفي صفته ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه فكان كما قال شاعره حسان بن ثابت :

متى يبدو في الدجي البهيم جبينه يلح مثل مصباح الدجى المتوقد

فمن كان أو من قد يكون كأحمد نظام لحق أو نكال لمعتدي

(وقال ايضا) :

فأجمل منه لم تر قط عيني وأكمل منه لم تلد النساء
خلقت مبراء من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا رآه يقول :

أمين مصطفى بالخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه ينشد قول زهير :

لو كنت من شيء سوى بشر كنت المضيء لليلة البدر

ونظرت اليه عائشة يوماً ثم تبسمت فسألها عن ذلك فقالت : كأن أبا كثير الهذلي إنما عناك بقوله :

واذا نظرت الى أسرّة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

وفي الجملة فقد كان رسول الله ﷺ من الحسن في الذروة العليا وروى بعض الصحابة لقي راهباً فقال : صفّ لي محمداً كأني أنظر اليه فإني رأيت صفته في التوراة والانجيل . فقال : لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير فوق الربعة أبيض اللون مشرباً بالحمرة جعد الشعر ليس بالقطط جمته الى شحمة أذنه صلب الجبين واضح الخد أدعج العينين أقنى الأنف مفلج الثنايا كأن عنقه ابريق فضة وجهه كدائرة القمر فأسلم الراهب وكان ﷺ مع هذا الحسن قد القيت عليه المحبة والمهابة فمن وقعت عليه عيناه أحبه وهابه وقد كمّل الله سبحانه له مراتب الكمال ظاهراً وباطناً فكان أحسن خلق الله خلقاً وخلقاً وصورة ومعنى وهكذا كان يوسف عليه الصلاة والسلام . قال ربيعة : قسم الحسين نصفين فبين سارة ويوسف نصف الحسن ونصف الحسن بين سائر الناس وفي الصحيح عنه

ﷺ انه رأى يوسف ليلة الاسراء وقد أعطى شطر الحسن وكان النبي ﷺ يستحسن أن يكون الرسول حسن الوجه حسن الاسم وكان يقول اذا أبرد تم بريداً فليكن حسن الوجه حسن الاسم وقد روى الخرائطي من حديث ابن جريج عن ابي مليكة يرفعه من آتاه الله وجهاً حسناً واسماً حسناً وجعله في موضع غير شائن له فهو من صفوة الله من خلقه . وقال وهب : قال داود يا ربّ أي عبادك أحب اليك . قال : مؤمن حسن الصورة . فقال أي عبادك أبغض اليك قال : كافر قبيح الصورة ويذكر عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ كان ينتظره نفر من أصحابه على الباب فجعل ينظر في المرآة ويسوي شعره ولحيته ثم خرج اليهم فقالت : يا رسول الله وأنت تفعل هذا . فقال نعم : اذا خرج الرجل الى اخوانه فليجملن نفسه فان الله جميل يحب الجمال وقال معاوية لرجل دخل عليه فرأى في وجهه ما يكرهه مما يمكن إزالته ما يمنع أحدكم إذا خرج من منزله ان يتعاهد أديم وجهه .

(فصل) قوله تعالى ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم أي في أحسن تعديل لقامته وصورته وحسن شارته منتصباً يتناول مأكوله بيده مزيناً بالعقل لا كالبهائم وعلى هذا حكاية الرشيد لما خلا بزوجته في ليله مقمرة فقال لها : ان لم تكوني أحسن من هذا القمر فأنت طالق فأفتى علماء زمانه بالحنث إلا يحيى بن اكثم فإنه قال : لا يقع عليه الطلاق فقيل له : خالفت شيوخك فقال الفتوى بالعلم ولقد أفتى به من هو أعلم منا وهو الله سبحانه وتعالى حيث قال : لقد خلقت الانسان في أحسن تقويم .

وجاء تفسير قوله تعالى يزيد في الخلق ما يشاء انه الصوت الحسن والوجه الحسن ولهذا قال أبو فراس :

قد فاق بدر السماء حسناً	والناس في حبه سواء
فزاده ربّه عذاراً	تم به الحسن والبهاء
لا تعجبوا ربنا قدير	يزيد في الخلق ما يشاء

(وحكي) عن بعض النساء أنها كانت تكثر صلاة الليل فقيل لها في ذلك فقالت انها تحسن الوجه وأنا أحب ان يحسن ٣ وجهي .

وحكي أن المأمون استعرض جيشاً فمرّ رجل قبيح فاستنطقه فرآه ألكن فأمر باسقاطه . وقال : ان الروح اذا وقع أثرها في الظاهر كانت صباحة وإذا وقع أثرها في الباطن كانت فصاحة وهذا الرجل لا ظاهرله ولا باطن وكل شخص له حكمان : أحدهما من جهة جسمه وهو منظره والآخر من جهة نفسه وهو مخبره وكثيراً ما يتلازمان ولذلك فرغ اصحاب الفراسة من معرفة أحوال النفس الهيئة البدنية حتى قال بعض الحكماء قلما توجد صورة حسنة تدبرها نفس رديئة وقد قال عليه الصلاة والسلام اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه فهذا كله يدل على ان الحسن وكال الجسم من الفضائل ويدل عليه قوله تعالى وزاده بسطة في العلم والجسم والحسن أول سعادة الانسان لأن الله تعالى بلطف حكمته لم يخلق الصورة مختارة الصفات سليمة من الآفات إلا وأضاف اليها ما يناسبها من العقل والصفات وقلما تجد الخلق إلا تبعاً للخلقة تناسباً مطرداً وأصلا لا ينعكس وإجماعاً لا ينفرد وما خلق الله نبياً قط إلا وقد بهر أهل زمانه بحسنه واحسانه فإذا نظرته أول مرة رأيته أحسنهم صورة وأتقنهم بنية فهو أولاهم مرتبة وأعلاهم منقبة . وقد قال ﷺ : لا يعذب الله حسان الوجوه سود الحدق . قال الإمام فخرالدين الرازي في أسرار التنزيل ما ملخصه حسن الصورة وان كان أمراً مرغوباً فيه فإن حسن السيرة أفضل منه ويدل عليه وجوه منها أن حسن الصورة من مطالب الشهوة وحسن السيرة من مطالب الحكمة ولا شك ان الحكمة أفضل من الشهوة فكان حسن السيرة أفضل من حسن الصورة لا محالة، ومنها أن يوسف عليه الصلاة والسلام اجتمع له حسن الصورة وحسن السيرة ثم انه بسبب حسن الصورة وقع في أنواع من البلايا منها انّ أباه كان يحبه أزيد من أخوته بدليل قوله تعالى اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا فلهذا قصدوا قتله بدليل حكايته عنهم أقتلوا يوسف أو اطرحوه ارضاً يخل لكم وجه أبيكم ومنها انه وقع بسبب الحسن في أسر الرق ومراودة امرأة العزيز وادخاله السجن بسبب ذلك فلما علم الملك بعد ذلك حسن سيرته اصطفاه لنفسه وقال له

انك اليوم لدينا مكين أمين ولم يقل صبيح مليح فدل ذلك على ان حسن السيرة أفضل من حسن الصورة ومعلوم ان حسن الصورة لا يبقى إلا أياماً قلائل وأما حسن السيرة فانه لا يزول أثره ولا تبطل نتيجته (قلت) وممن حصل له الأذى بسبب حسن صورته نصر بن حجاج وذلك ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ ليلاً فسمع امرأة تقول :

هل من سبيل الى خمر فاشربها ... أم هل سبيل الى نصر بن حجاج

فدعا نصر بن حجاج وهو من بني سليم فرآه أحسن الناس وجهاً وله شعر حسن فحلق شعره فكان احسن منه بشعر فقال :

لا تساكني في بلد فتشفع نصر اليه ان لا يخرجه من المدينة فلم يقبل عمررضي الله عنه فلما ودعه نصر قال له يا امير المؤمنين لقد سمتني قتل نفسي فقال عمر كيف ذلك فقال قال الله تعالى: ولو أنا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم أواخرجوا من دياركم فقرن هذا بهذا . فقال عمر : ما أبعدت لكن أقول ما قال شعيب عليه السلام : ان أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله ولقد أضعفت لك يا نصرعطاءك ليكون ذلك عوضاً لك (أقول) ذكرت بحلقة شعره فكان أحسن منه بشعر قول بعضهم في ذلك :

حلقوا رأسه ليزداد قبحاً ... غيرة منهم عليه وشحا
كان صبحاً عليه ليل بهيم ... فمحوا ليله وأبقوه صبحاً

وما أحسن قول السراج الورّاق في مليح قلندري :

عشقت من ريقته قرقفاً ... وماله إذ ذاك من شارب
قلندر يا حلقوا حاجباً ... منه كنون الخط من كاتب
سلطان حسن زاد في عدله ... فاختار ان يبقى بلاحاجب

(وقال) ابن سنا الملك :

حكيت جسمي نحوك فهل تعشقت حسنك
وكان جفنك مضني فصرت كلك جفنك
وزادك السقم حسناً والله انك أنك

(فصل)

قد تقدم ذكر ما يستحسن من المرأة فلنذكر هنا ما قالته الشعراء في تشبيه الأعضاء بالحروف لأنهم أكثروا من ذلك فشبهوا الحاجب بالنون والعين بالصدغ بالواو والفم بالميم والصاد والثنايا بالسنين والطرة المضفورة بالشين ومن أحسن ما قيل في ذلك قول محاسن الشواء أرسل فرعاً ولوى هاجري صدغاً فأعيا بهما واصفه فخلت ذا من خلقه حية :

تسعى وهذا عقرباً واقفه ذي ألف ليست لوصل ودي
واو ولكن ليست العاطفة . (وقول الآخر)

ياسين طرتها وصاد عيونها إلى أعـوّذ بسورة طه

(وقول ابن مطروح)

قالت لنا الف العذار بخده في ميم مبسمه شفاء الصادي

(وقول ابن نقاده)

صنم الجمال فصاده من عينها والنون حاجبها بخال ينقط
والميم فوهاً فالحروف تألفت مكتوبة والصبر عنها يكشط

وقول (الآخر) :

لا تقول لي لا فمكتوب على وجهك المشرق نورا نعم
بحروف صورت من قدرة مـا جرى قط عليها قـلم
نونها الحاجب والعين بها طرفك الفتان والميم الفم

(وقال شهاب الدين أحمد بن الخيمي) :

ان صدغ الحبيب والفم والعا   رض منه واو وصاد ولام
هي وصل بين المحاسن لما   تم حسناً وبالعذار التمام
غير أني أراه وصل وداع   فيه يقضي افتراقنا والسلام

(وقلت أنا) :

حبيب تعالي قده حين سمته   وقال قوامي رمحه ما يقوم
وخط عذاري أعجم الخال لامه   ولم أدر ان اللام في الخط يعجم

(وقلت أيضاً) :

يرنو اليّ بعين نون حاجبها   كالقوس تصمي الرمايا وهي مرنان

(وقلت أيضاً) :

في عكس هذا المعنى اشارت وهو تشبيه الحروف بالاعضاء في تقريظ قصيدة مدحت بها مولانا السلطان الملك الناصر حسن .

فكم الف بها أمسى   رشيق القامة النضره
وكم شين بحاشية الـ   كتاب تخالها طرّه
وعين أصبحت في العين   مثل العيز والنقرة

(وقلت أيضاً) :

في تقريظ كاب ورد على بعض الاحباب من رسالة افتتحها بقصيدة منها :

رفضت النوم بعدك يا علي   فلا تعجب لدمعي ان توالا
ووافاني كتاب منك عال   حكت الفاته السمر الطوالا

وكم شاهدت من خطا ولكن | مثالك ما رأيت له مثالا
لين أمست به الفات قطع | فكم وصل به ضمن الوصالا
وكم ألف به للوصل لاحت | كغصن البان ليناً واعتدالا
تعانق لامها طوراً يميناً | وآونة تعانقه شمالاً
ظننت اللام فيه عذار خدّ | وخلت النقط فوق الخد خالا
وأمسى طالع الطاآت فيه | يعلم لينه الغصن الكمالا

(وقال القاضي الفاضل) من رسالة كتب بها الى موفق الدين خالد القيرواني وقد وقف له على رسالة كتبها بالذهب جاء منها فمن ألفات ألفت الهمزات غصونها حمائم ومن لامات بعدها يحسدها المحب على عناق قدودها النواعم ومن صادات نقعت غلة القلوب الصوادي والعيون الحوائم ومن واوات ذكرت ما في وجنة الأصداغ من العطفات ومن ميمات دنت الأفواه من ثغرها لتنال جنى الرشفات ومن سينات كأنها الثنايا في تلك الثغور ومن دالات على الطاعية لكاتبها بانحناء الظهور ومن جيمات كالمناسر تصيد القلوب التي تخفق لروعات الاستحسان كالطيور وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وخالد فيها خالد وتحيته فيها المحامد ويده تضرب في ذهب ذائب والناس تضرب من حديد بارد.

الباب الثاني

في ذكر المحبين الظرفاء من الملوك والخلفاء

أقول هذا باب عقدناه لذكر أحسن الملوك طباعاً وأطولهم باعاً وأطيبهم عيشاً وأكثرهم طيشاً وأرقهم شعراً وأدقهم فكراً وأقربهم مرجوعاً وأكثرهم بالحبيب ولوعاً أذهم في الحقيقة أولى الناس بذلك وأحقهم بالنوم على تلك الارائك وذلك بحسب ما سولته لهم نفوسهم وزينه لهم جليسهم كما قيل :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم   ولا تصحب الأردى فتردى مع الرّدى

فمنهم من قنع من محبوبه بالنظر حتى مات كمداً ولحق مثل نور الدين الشهيد بالشهدا

وستأتي حكايته في باب العفاف ان شاء الله تعالى ومنهم من أصبح دونه في العفاف وأقام سالف محبوبه مقام السلاف ومنهم من خلع العذار واحتج بقول الشاعر في العقار :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء   وداوني باللتي كانت هي الداء

فجمع ما بين ذات العقود وابنة العنقود ولكن مع صيانة ورجوع الى ديانه فهو وان طال به المجلس اختصر وان جنى فيه على محبوبه اعتذر كما قيل :

ان أكن قد جنيت في السكر ذنباً فاعف عني يا راحـــة الأرواح
أي عقل يبقى هناك لمثـــلي بين سكر الهوى وسكر الراح

ومنهم من نال بالراح اللذة المحظورة وأخرج بها وجنة الحبيب من صورة الى صورة فجارى النديم في الجريال وسما الى الحبيب سموّ حباب الماء حالاً على حال فأفضى به ذلك الى هلكه وفساد ملكه كما اتفق للامين بن الرشيد وغيره قال الربيع : قعد الأمين يوماً للناس وعليه طيلسان ازرق وتحته لبد أبيض فوقع في ثمانمائة قصة فوالله لقد أصاب وما أخطأ وأسرع فما أبطأ ثم قـــال يا ربيع اتراني لا أحسن التدبير والسياسة ولكن وجدت شم الآس وشرب الكاس والاستلقاء من غير نعاس اشهى إلى مقابلة الناس وكذلـك خلع قبله الوليد بن يزيد وبعده المتوكل وغيرهم من الخلفاء والأمراء ممن آثر راحة النفس على تعب السياسة والذي آراه اطلاق ما ذهبوا إليه بالصريح ومفارقة الجميع على وجـه مليح كما قيل :

لو رأى وجه حبيبي عاذلي لتفارقنا على وجه مليح

(وما أحسن قول أبي الفتح البستي)

اذا غدا ملك باللهو مشتغلاً :

فاحكم على ملكه بالويل والحرب اما ترى الشمس في الميزان هابطة لما غدا وهو برج اللهو والطرب ومن هنا نشرع في ذكر منذل لمحبوبه من الملوك فأصبح مع كونه مالكاً له كالمملوك وهم في ذلك لشدة الباس على خلاف ما عليه الناس وهذا وذلك لأن العشق وأصحابه طبقات فمنهم من لا يطيب له العشق إلا بالذل هو الغالب على العشاق الصادقين في المحبة كما قال الشيخ شرف الدين بن الفارض :

ولو عز فيها الحب ما لذلي الهوى
ولم يك لولا الذل في الحبّ عزتي

وكما قيل :

تذلل لمن تهوى لتكسب عزة
فكم عزة قدنا لها المرء بالذل

ومنهم من يرى توحيد المحبوب وعدم الشريك كما قيل :

ليس في القلب موضع لحبيبين ولا أحدث الأمور اثنان
فكما العقل واحد ليس يدري خالقاً غير واحد رحمن
فكذا القلب واحد ليس يهوى غير فرد مباعداً ومدان
وكذا الدين واحد مستقيم وكفور من عنده دينان
هو في شرعة المودة ذو شر بعيد من صحة الايمان

فمن كان على خلاف هذا ممن يرى الشريك في المحبة كالرشيد وغيره كما يأتي بيانه في بابه لم يكن محباً حقيقة وهذا الغالب على الملوك لكثرة ما لديهم واختلاف الشكل عليهم كما قيل :

تنقل فلذات الهوى في التنقل ورد كل صاف لا تقف عند منهل

فالملوك ليسوا كغيرهم لقدرتهم على من يحبونه بالنقود النضة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة نعم قد يعشق الملك العظيم فلا يذهب به عشقه الى ترك تدبير ملكه وإنما أكثر ما يظهر من أمر الملوك أن يضعوا محبوبهم في مقام مالكهم وهم مالكوه كما قال الحكم بن هشان ملك الأندلس ظلّ من فرط حبه مملوكاً :

ولقد كان قبل ذاك مليكا تركته جآذر القصر صبا
مستهاماً على الصعيد تريكا يجعل الخد واضعاً فوق ترب
للذي يجعل الحرير اريكا هكذا يحسن التذلل بالحرّ
إذا كان الهوى مملوكاً

وقال الرشيد وقد عشق ثلاث جوار :

ملك الثلاث الآنسات عناني وحللن من قلبي بكل مكان
ما لي تطاوعني البرية كلها وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا ان سلطان الهوى وبه قوين أعز من سلطاني

(وقال) المستعين بالله بن الحكم الأموي أحد خلفاء المغرب واجاد :

عجباً يهاب الليث حد سناني وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لا متهيباً منها سوى الأعراض والهجران
وتملكت نفسي ثلاث كالدمى زهر الوجوه نواعم الأبدان
حاكمت فيهن السلو الى الصبا فقضى بسلطان على سلطان
فأبحن من قلبي الحمى وتركنني في عز ملكي كالأسير العاني
لا تعذلوا ملكاً تذلل للهوى ذل الهوى عز وملك ثاني
ما ضر انى عبدهن صبابة وبنو الزمان وهن من عبداني

(قلت) وكم :

مثله من ملك قاهر وسلطان قادر تذل لهيبته الأملاك وتذعن لسطوته الفتاك هدم الهوى أركانه وأذل عزه وسلطانه فقصر جفنه في الليالي الطوال وأقعه مع عقله الحسن في أسر الاعتقال

فقال :

أما يكفيك انك تملكيني وان الناس كلهم عبيدي
وانك لو قطعت يدي ورجلي لقلت من الرضا أحسنت زيدى

وقيل هما للرشيد وقيل هما للمأمون وقيل هما للمهدي (وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان) كان السلطان أبو عبدالله محمد بن السلطان الغالب بالله أحد ملوك الأندلس جميلاً حسن السياسة متظاهراً بالدين رأيته مـــراراً بغرناطة وأنشدني شعر وأحضرت عنده انشاد الشعراء ومن شعره :

أيا ربة الخدر التي أذهبت نسكي   على كل حال أنت لا بد لي منك
فأما بذل وهو أليق بالهوى   وأما بعز وهو أليق بالملك

(وقال الملك الأمجد) :

من مثلي في عصري   بستاني في قصري
معشوقي مملوكي   غني لي من شعري

(وقال الملك الظاهر) في مملوكه ايبك الجامدار :

أنا مالك مملوك ظبي أغيد   ومن العجائب مالك مملوك
وأنا الفتى وانني من وصله   بين البرية معدم صعلوك
ولكم سفكت دماً بسيفي عنوة   ودمي بسيف لحاظه مسفوك

(وقال الملك الأشرف في مملوكه) وكان خازنداره دوبيت :

أفدي قمراً تحار فيه الصفة   يسخو بدمي وهو أمين ثقة
ماذا عجباً يحفظ مالي ويرى   روحي تلفت به ولا يلتفت

وبقية ماله من المقاطيع ذكرتها في الباب الأول من نقل الكرام في مدح المقام وذكرت فيه ايضا حكاية محبوبه ابن مملوكه وما بان فيها عنه من حسن السيرة وهي من أغرب ما يحكى عن الملوك وقال الملك تميم :

بالله جد لي بوعد صدق   وخل هذا الدلال عنكا
ولا تدعني أظل اشكو   مثل محياك ليس يشكا

(وحكي) عن المأمون انه غضب على جاريته عريب المغنية وكان كلفا بها فأعرض عنها واعرضت عنه ثم أسلمه الغرام وأقلقه الشوق حتى ارسل اليها يطلب مراجعتها فلما اجتمعا لم تلتفت اليه وكلمها فلم ترد عايه فانشأ يقول :

تكلم ليس يوجعك الكلام ... ولا يزرى محاسنك السلام
انا المأمون والملك الهمام ... ولكني بحبك مستهام
يحق عليك ان لا تقتليني ... فيبقى الناس ليس لهم امام

فقالت له : يا أمير المؤمنين والدك امير المؤمنين هرون الرشيد أعشق منك حيث يقول ملك الثلاث الآنسات الأبيات المتقدمة وتمام حكايتها ذكرتها في الباب الثاني من السكردان وهي حكاية مليحة جداً ورأى المأمون ايضاً يوماً غلاماً مليحا لإحمد بن يوسف فقال : ما اسمك ؟ فقال : فتح . فقال المأمون :

يا فتح يا فاتحاً لبلوائي ... ويا عليماً بطول شكوائي
الحمد لله لا شريك له ... مولاك عبدي وانت مولائي

فبلغ ذلك أحمد فوهبه الغلام قلت فكان كما قيل :

كل ما يصلح للمو ... لي على العبد حرام

وقعد والده الرشيد يوماً عند زبيدة وعندها جواريها فنظر الى جارية واقفة على رأسها فأشار اليها ان تقبله فاعتلت بشفتيها فدعا بدواة وقرطاس فوقع فيه قبلته من بعيد * فاعتل من شفتيه . ثم ناولها القرطاس فوقعت فيه :

فما برحت مكاني ... حتى وثبت عليه

فلما قرأ ما كتبت استوهبها من زبيدة فوهبتها له فمضى بها وأقام معها اسبوعا لا يدري مكانها فكتبت اليه زبيدة :

وعاشق صب بمعشوقه ... كأنما قلباهما قلب

روحاهما روح ونفساهما نفس كذا فليكن الحب

(وحدّث) ابو جعفر قال بينما محمد ابن زبيدة يطوف في قصر له إذ مرّ بجارية له سكرى وعليها مطرف خز وهي تسحب أذيالها من التيه فراودها عن نفسها فقالت يا امير المؤمنين انك قد هجرتني مدة ولم يكن عندي علم بموافاتك فانظرني الليلة حتى أتهيأ للقياك وآتيك في غد فلما اصبح انتظرها فلم تجيء فقام ودخل عليها وسألها انجاز الوعد . فقالت : يا امير المؤمنين أما علمت ان كلام الليل يمحوه النهار ، فضحك وخرج من مجلسه فقال : من بالباب من الشعراء فقيل له مصعب والرقاشي وأبونواس فأمر بهم فدخلوا فلما جلسوا بين يديه قال : ليقل كل واحد منكم شعراً يكون آخره كلام الليل يمحوه النهار فأنشأ الرقاشي يقول :

متى تصحو وقلبك مستطار وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركتك صبا مستهاما فتاة لا تزور ولا تُزار
اذا استنجزت منها الوعد : كلام الليل يمحوه النهار

(وقال مصعب) :

أتعذلني وقلبي مستطار كئيب لا يقرّ له قرار
بحبّ مليحة صادت فؤادي بألحاظ يخالطها احورار
ولما مددت يدي اليها لألمسها بدا منها نفار
فقلت لها عديني منك وعداً فقالت : في غدمنك المزار
فلما جئت مقتضياً أجابت كلام الليل يمحوه النهار

(وقال ابو نواس) :

وخود أقبلت في القصر سكرى ولكن زين السكر الوقار
وقد سقط الردى عن منكبيها من التخميش وانحل الأزار
وهز الريح أردافاً ثقالا وغصنا فيه رمان صغار
هممت بها وكان الليل ستراً فقام لها على المعنى اعتذار
وقالت في غد فمضيت حتى أتى الوقت الذي فيه المزار
وقلت الوعد سيدتي فقالت كلام الليل يمحوه النهار

فقال له : ويلك أكنت مطلعاً علينا أو ثالثنا في القصر . فقال : لا والله يا امير المؤمنين ولكن نظرت اليك فعرفت ما في نفسك وعبرت عما في ضميرك فأمر له بأربعة آلاف درهم ولصاحبيه مثلها وذكرت هنا ما قلته في ابن نهار :

أقول لموعدي زورا بليل بدا كالبدر فيه ثم غابا
كلام الليل يا ابن نهار زيد إذا طلعت عليه الشمس ذابا

(وقلت) :

أتبيت ريان الجفون من الكرى وأبيت أسهر فيك مع سماري
وتلوم ان اصبحت في يوم الجفا مجنون ليلى فيك يا ابن نهار

(حكي) انه كان للمتوكل غلام اسمه شفيع وكان من احسن الفتيان فكان المتوكل يجن به جنونا فأحب يوماً ان ينادم حسين بن الضحاك وان يرى ما بقي من شهوته وكان قد أسن فأحضره فسقاه حتى سكر وقال الشفيع :

اسقه فسقاه وحياه بوردة وكانت على شفيع ثياب موردة فمد حسين يده الى ذراع شفيع فقال المتوكل : اتخمش اخمص قدمي بحضرتي فكيف لو خلوت به

ما أحوجك الى الادب وكان المتوكل قد غمز شفيعاً على العبث به فدعا بدواة فكتب :

وكالوردة الحمراء حيّا بزهرة ... من الورد يمشي في قراطق كالورد

تمنيت ان أسقي بعينيه شربة ... تذكرني ما قد نسيت من العهد

سقى الله دهراً لم أبت فيه ليلة ... خلياً ولكن من حبيب على وعد

ثم دفعها الشفيع فأعطاها للمتوكل فاستملحها وقال : أحسنت يا حسين ولو كان شفيع ممن تجوز هبته لوهبته لك ولكن بحياتي يا شفيع إلا كنت ساقية بقية يومنا وأمر له بمال كثير وكان شفيع المذكور يكتب على طراز قبائه الأيمن :

بدر على غصن نضير ... شرق الترائب بالعبير

ويكتب على الطراز الايسر :

خطت صحيفة وجهه ... في صفحة القمر المنير

(ومن غريب) ما يحكى ان يزيد بن عبدالله بن مروان كان صباً بحبابة جاريته فخلا يوماً في لهو معها وقال : لاكذبن قول من قال ان الدهر لا يصفو لأحد يوماً واحضر حاجبه وقال له : لا تأذن لاحد يدخل عليّ ولا تعلمني بخبر ولو كان فيه ذهاب ملكي مدة هذا اليوم وأقام معها في أتم حال فتناولت رماناً فشرقت فماتت لوقتها فعرض له عليها طرف من الوله فحال بينه وبين الصبر ومنع من دفنها حتى سأله جماعة من بني أُمية في دفنها ولاطفوه في ذلك فأمر بدفنها وقال :

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى ... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد

وقيل انه لم يقم بعدها إلا سبعة ايام ومات أسفاً عليها ومثل فعله هذا

في عدم دفنه لمحبوبته ما حكيته في نقل الكرام في مدح المقام في الباب الرابع عن السلطان جلال الدين خوارزم شاه لما مات مملوكه فلج منع من دفنه فكان يحمل معه في محفة وكلما حضر بين يديه طعام . قال : احملوا هذا الى فلج . فقال له بعض الأمراء : أيها الملك قد مات فلج . فضرب عنقه فلا حول ولا قوة إلا بالله . وتمام حكايته ذكرتها في الكتاب المذكور .

الباب الثالث

في ذكر من عشق على السماع ووقع مع الحبيب في النزاع

أقول هذا باب عقدناه لذكر من عشق قبل ان يرى فتم عليه ما تم لما جرى من دمعه ما جرى فأصبح لا يقرّ له قرار بعـد ان كان قرير العين وشهد على عينيه بما لم تريا فكان كمن كلف ان يعقد بين شعيرتين كم ليلـة رقص فيها على السماع وجمعة سهر من لياليها مثنى وثلاث ورباع فهوا على طبقة ممن عشق باللمس أو غيرها من بقية الحواس الخمس والظاهر ان ذلك لمشاكله بينه وبين المحبوب في نفس الأمر او تعارف سابق في عـالم الذر كما قال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس في الاقتباس :

محبة ما عرفت الدهر سلوتهـــا
تسري الى النفس أو تجري مع النفس
وما لها آخر لكن أولها .
تعارف سابق في حضرة القدس .

في عالم الذر ناجاني البشير بها
أهلا بميتها طهرا من الدنس

أشهى إلى القلب من امن على وجل ومن مجال الكرى في الاعـين النعس قولى

لمشاكله بينه وبين المحبوب الى آخره فيه إشارة الى انك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة واتفاق في بعض الصفات لا بد من هذا . ولهذا اغتنم ابقراط حين وصف له رجل من اهل النقص انه يحبه . فقال : ما احبني إلا وقد وافقته في بعض اخلاقه . ويؤيد هذا قول النبي ﷺ وقد سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن امرأة كانت تدخل على نساء قريش فتضحكهن قدمت المدينة فنزلت على امرأة تضحك الناس بها فقال : على من نزلت فلانة . فقالت : على فلانة المضحكة . فقال : الحمد لله الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف وانشد طرفة :

تعارف أرواح الرجال إذا التقوا فمنهم عدوّ يتقي وخليل

وقال ابو الهذيل العلاف : لا يجوز في دور الفلك ولا في تركيب الطبيعة ولا في القياس ولا في الحسّ ولا في الممكن ولا في الواجب ان يكون محب ليس لمحبوبه اليه ميل والظاهر ان هذا للسر الذي ذكرناه من وجود ما بينهما من المشاكلة ، فإن قلت فقد رأينا من أحب من لا يحبه ولا يلتفت اليه . قلت : ذكر عن ذلك اجوبة احسنها ان يقال المحبة على قسمين :

القسم الأول : محبة غرضية ، فهذه لا يجب الاشتراك فيها بل يقابلها مقت المحبوب وبغضه للمحب كثيراً ، إلا إذا كان له معه غرض نظير غرضه فإنه يحبه لغرضه منه كما يكون بين الرجل والمرأة لأن لكل منهما غرضاً مع صاحبه .

القسم الثاني : محبة روحانية ، سببها المشاكلة والاتفاق بين الروحين فهذه لا تكون إلا من الجانبين ولا بد فلو فتش المحب محبة صادقة قلب محبوبه لوجد عنده من محبته نظير ما عنده او فوقه او دونه وذكر بعضهم ان سبب المحبة ثلاثة اشياء اما رؤية صورة او سماع نغمة او سماع صفة فهذه الثلاثة هي اصل ينبوع المحبة اذ لا يخلو حب احد من ان يستند

إلى شيء منها وقد قيل ثلاث محبات فحب علاقة .

وحب تملاق رحب هو القتل وأحوال الناس تختلف في ذلك (فمنهـــم) من يحب بمجرد الوصف دون المعاينة فيفنى بمن وصف له محبة وما رآه ولكن وصفه له واصف كما قيل :

فاتني أن أرى الديار بطرفي فلعلي أرى الديار بسمي

اخذه القاضي الفاضل فقال عللوني عن الشآم بذكرى

ان قلبي عليـــه بالاشواق

مثلته الذكرى لسمعي كأني اتمشى هناك بالاحداق

وقال بعض الحكماء ان الله عز وجل جعل القلب أمير الجسد وملك الاعضاء فجميع الجوارح تنقاد له كل الحواس تطيعه وهو مديرها وبارادته تنبعث ووزيره العقل وعاضده الفهم ورائده العينان وطليعته الأذنان وهما في باب النقل سيان لا يكتمانه شيئاً ولا يطويان عنه سراً يعني العين والأذن وقيل لافلاطون : ايهما أشد ضرراً السمع أم البصر فقال : هما للقلب كالجناحين للطائر لا ينهض إلا بهما ولا يستقل إلا بقوتها وربما قصّ احدهما فتحامل بالآخر على تعب ومشقة قيل فما بال الأعمى يحب وما رأى والاصم يحب وما سمع فقال له : لذلك قلت : ان الطائر قد ينهض باحدى جناحيه ولا يستقل طيراناً فاذا اجتمعا كان ذهـــابه أمضى وطيرانه قوي وكان يقال الحب أوّله السماع ثم النظر كما أن اول الحريق الدخان ثم الشرر .

(حكي) غن ابي تمام انه سمع جارية تغني بالفارسية فشجاه صوتها فقال :

ولم أفهم معانيها ولكن شجت قلبي فلم احمل شجاها

فكنت كأنني أعمى معنى يحب الغانيات ولا يراها

قال ابن طاهر قلت لابي تمام: اخذت هذا المعنى من احد فقـال : نعم من قول بشار :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل الحي احياناً
قالوا لمن لاترى تهوى فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

قلت والظاهر ان بشار اخذ قوله هذا من كلام الحكم المتقدم ذكره وتبعه ابو يعقوب الخزيمي فقال :

قالت وتهزأ بي غداة لقيتها يا للرجـال لصبوة العميان
فأجبتها نفسي فداؤك إنما عيني واذني في الهوى سيان

(وقال بشار ايضاً) الحب إنما يتولد بالقلب والفكر وانشد في ذلك :

يزهد في حب عبدة معشر قلوبهم فيهـا مخالفـة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يعشق ذو اللب
وما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

وقال الحصري وقد صدق فيما نطق إنما أحست الحواس الخمس بواسطة توسطتها النفس (وقد قال الخليل بن احمد) .

إن كنت لست معي فالذكر منك معي يرعاك قلبي وان غيبك عن بصري
العين تبصر من تهوى وتعشقه وناظر القلب لا يخلو من النظر

وقال مظفر بن ابراهيم الاعمى في الاعتذار عن العشق مع العمى :

قالوا عشقت وانك أعمى ظبيا كحيل الطرف ألمي

وحلاه ما عاينتها فتقول قد شغفتك وهما
وخياله بك في المنـــا م فما اطاف ولا ألما
من اين ارسل للفواد وانت لم تنظره سهمـاً
ومتى رأيت جماله حتى كساك هواه سقماً
وبأي جارحة وصلت لوصفه نثراً ونظماً
والعين داعية الهوى وبه تتم إذا استتما
فأجبت اني موسويّ العشق انصاتا وفهما
أهوى بجارحة السما ع ولا أرى ذات المسمى

(وقال المدني) :

ايا من لامني في حب من لم يـره طرفي
لقد أفرطت في وصفك لي في الحب بالضعف
فقل هل تعرف الجنة يوما بسوى الوصف

وما احسن قول المهذب ابن الشحنة من قصيدة مدح بها مولانا السلطان الملك الناصر صلاح الدين ايوب مطلعها :

واني امرؤ احببتكم لمكارم سمعت بها والادن كالعين تعشق
وقالت لي الآمال ان كنت لاحقاً
بأبناء ايوب انـت الموفق

وقلت انا من قصيدة امدح بها مولانا السلطان الملك الناصر حسن وفيه زيادة حسنة مطلعها :

وحياة وجهك وهو بدر مشرق قلبي عليك كما علمت واشفق

يا من اذا لاح آس عذاره امسي ولي بالعيش غصن موروق
ما لاح خدك بالعذار مكاتباً إلا ظننت بأنه معتق

(ومنها)

كم ذا رقصت على السماع بذكره والأذن قبل العين قالوا تعشق وحاصل القضية ان من الناس من يعشق على السماع ويفنى في محبة من لا رآه لكن وصف له ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم ان تنعت المرأه لغير زوجها حتى كأنه ينظر إليها والحديث في الصحيح قال في الواضح المبين ومنهم من يعشق أثراً رآه يحكى ان رجلاً عشق أثر كف امرأة رآه في حائط فلما آيس أهله من صلاحه تركوه حتى مات (ومنهم) من يحب في النوم شكلاً لا يعرفه فيهم به كما قيل .

يا ليت شعري من كانت وكيف سرت
اطلعة الشمس كانت أم هي القمر
اظنها العقل ابداها تدبره
أو صورة الروح أبدتها الفكر
أو صورة مثلت في النفس من املي
فقد تحير في ادراكها البصر
أو لم يكن كل هذا فهي حادثة
اتى بها سبباً في حتفي القدر

(ومنهم) من يعشق باللمس قيل وهو رأس الشهوة (ومنهم) من يعشق بالشم كما قيل :

والعين تعشق ما تهوى وتبصره كذلك يعشق فيك الأنف والاذن

(ومنهم) من أخبرني أنه دخل الى حمام فرأى فيه شعرة طويلة سوداء لبعض النساء ولم يعلم لمن هي فأخذها وأقامت عنده زماناً وأصابه من حب صاحبتها ، ما أشرف به على التلف كما قيل :

تلفت بشعرة وسمعت غيري
يقول سملت من تلفى بشعره

(ومنهم) من يعشق جنية رآها في نومه ووصفت نفسها له وجاءته غير مرة على زعمه كما حكى ابو الفرج الأموي ان جعفر المنصور كان يتعشق من الجن حتى كثر ولعه بذلك فصار يصرع في النوم مرات حتى مات من ذلك فحزن عليه أبو جعفر حزناً شديداً وكان جعفر خليعاً ماجناً ولما نهى المنصور مطيع بن اياس عن صحبة ابنه جعفر قال وأي مستصلح فيه وأي غاية لم يبلغها في الفساد فقال ويلك وبأي شيء هذا قال يزعم انه يعشق امرأة من الجن وهو مجتهد في خطبتها ودأبه جمع أصحاب العزائم عليها وهم يعدونه ويمنونه فوالله ما فيه فضل لغير ذلك جد ولا هزل ولا كفر ولا ايمان ومن شعره فيها :

لابنة الجنى في الحيّ تطل
دارس الآيات عاف كالخلل

قلت هذا الذي يقال في حقه الجنون فنون .

(ومثل هذا ما اخبرني به صاحبنا جمال بن عبدالله قال قال الثعالبي في فقه اللغة زعموا ان التناكح قد وقع بين الأنس والجن لقوله تعالى وشاركهم في الأموال والاولاد لأن الجنيات انما تصرع الرجال من الانس على العشق وطاب الفساد وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم .

فصل في ذكر ما ينخرط في سلك العشق

على السماع والشهاد على الغائب

كقول ديك الجن وقيل عبد المحسن الصوري :

بأبي فم شهد الضمير له قبل المذاق بأنه عذب
كشهادتي لله خالصة قبل العيان بأنه رب

(وما أحسن قول الآخر) :

أهم الى العذب من ريقه كماهيم العاشقين العذيب
شهدت عليه وما ذقته بقيناو لكن من الغيب غيب

(وقال بشار بن برد) :

يا أطيب الناس وقار غير مختبر الا شهادة اطراف المساويك

(وقال المتوكل الليثي) :

كأن مدامة صهباء صرفاً ترقرق بين رواق ودن
تعل به الثنايا من سليمى فراسة مقلتي وصحيح ظني

(وقال امرؤ القيس) :

وثغر لها طيب واضح لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظني به وبالظن يقضي على ما اكتتم

(وقال ابن حمد يس الصقلي) :

وما ذقت فاهاً ولكنني نقلت شهادة عود الادراك

(وقال البهاء زهير) :

فتنت به حلواً مليحاً فحدثوا بأعجب شيء كيف يحلو ويملح
وقد شهد المسواك عندي بطيبه ولم أرَ عدلاً وهو سكران يطفح

(وقال ابن النقيب) :

قالوا فلان يصوغ كذباً يكسوه من لفظه طلاوة
حلو حديث فقلت من لي لو انه صادق الحلاوة

قلت : وبقي هنا حكاية تتعلق بمن عشق على السماع من الحمقى والمغفلين وهي ما حكاه الجاحظ قال : عبرت يوماً على معلم كتاب فوجدته في هيئة حسنة وقماش مليح فقام إلي وأجلسني معه ففاتحته في القراآت فإذا هو فيها ماهر ففاتحته في شيء من النحو فوجدته فيه ماهراً ثم في اشعار العرب واللغة فاذا به كامل في جميع ما يراد منه فقلت : والله قوّى عزمي على تقطيع دفتر المعلمين فكنت كل يوم أجالسه وأزوره قال : فأتيت في بعض الأيام الى زيارته فوجدت الكتاب مغلقاً فسألت عنه جيرانه فقالوا : مات عنده ميت فقلت : أروح أعزّيه فجئت الى بابه فطرقته فخرجت الى جاريته فقالت : ما تريد فقلت : أريد مولاك فقالت : مولاي جالس وحده في العزاء ما يعطي لاحد الطريق اليه فقلت : قولي له صديقك فلان يطلبك فدخلت وخرجت إليّ وقالت : بسم الله فعبرت اليه فإذا هو جالس وحده فقلت أعظم الله اجرك : لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة .

وهذا سبيل لا بد منه فعليك بالصبر ثم قلت له : هذا الذي توفي ابنك قال : لا قلت : فوالدك قال : لا قلت : فأخوك قال : لا قلت: فمن قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذه أول المناحس . ثم قلت : سبحان الله النساء كثر وتجد غيرها وتقع عيناك على احسن منها فقال : وكأني بك قد ظننت اني رأيتها فقلت في نفسي : هذه منحسة ثانية ثم قلت: وكيف عشقت من لا رأيته فقال: أعلم اني كنت في الطارمة وإذا برجل عابر وهو يغني ويقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردى‌ء على فؤادي أينما كانا

فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا مثلها ما قيل فيها هذا الشعر فهويتها فلما كان بعد يومين عبر ذلك الرجل وهو يغني ويقول :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت وقعدت في العزاء ثلاثة ايام بهذا اليوم قال الجاحظ فعادت عزيمتي وقويت همتي على تقطيع الدفتر بحكاية أم عمرى .

الباب الرّابع

في ذكر من نظر أول نظرة فاحترق من خد الحبيب بجمرة

أقول هذا باب عقدناه لذكر من أوقعه النظر في الضرر المؤدي الى السهر إذ هو داعيه الأرق وزناد الحرق كم دعا الى الجماع المحرم بالإجماع فهو سهم مسموم وفعل مذموم وفي مبدئه يمكن استدراكه واسيره يرجى فكاكه فإذا تكرر أدى الى ما صورته كيت وكيت أما ترى الحبل بتكراره البيت كما قيل :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعـــين موقوف على الخطر

يسر مقلته ما ضرّ مهجته لامر حباً بسر ورجاء بالضرر

(قولي) وفي مبدئه يمكن استدراكه الى آخره وذلك ان الرجل تمرّ به المرأة فيكون ظاهر هيئتها وشكلها وصورتها مشاكلاً لطبعه فتتحرك نفسه وتنبعث همته من اول نظرة فإذا تكرّر نظره اليها ازداد حبه لها وان جلس حتى يراها صار الذي به أضعاف ما كان فإن نظرت اليه نظرة افتتن بجمالها ووقع في أسر حبالها ودخل في عداد العاشقين وهذا مما يؤيد قول من ذهب الى ان

العشق اختياري لانه لم يصر عاشقاً إلا بعد وقوع هذه المقدمات وكان يمكنه حسم مادة ذلك بعد النظرة الأولى اللهم إلافيما ندر كما تقدم في ذكر النسوة اللاتي رأين يوسف عليه السلام ففتن من أول نظرة وكان يقال النظر من المحب موت عاجل ومن المحبوب سهم قاتل وكان يقال رب عشق غرس من لحظه وحرب جنى من لفظه وكان يقال من أطلق طرفة كثر أسفه وكان يقال من كثرت لحظاته دامت حسراته (وقال اعرابي) العشق نبت بذره النظر وماؤه المزاورة ونماؤه الوصل وقتله الهجر وحصاده التجني . (وقال الصوري) :

غرست الهوى باللحظ ثم احتقرته　　وأهملته مستأنساً متسامحـاً
ولم تدر حتى اينعت شجراته　　وهبت رياح الوجد فيه لواقحا
فأمسيت تستدني من الصبر عازباً　　عليك وتستدعي من النوم نازحاً

(وقال الأصمعي) كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون : قد جاءت فتحرك الناس فقمت معهم فإذا بجارية قد وردت الماء ما رأيت مثلها قط في حسن وجهها وتمام خلقتها فلما رأت كثرة تشوف الناس اليها أرسلت برقعها فكأنه غمامة غطت شمساً فقلت لم تمنعينا النظر الى وجهك هذا الحسن فأنشأت تقول :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً　　لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله انت قادر　　عليه ولا عن بعضه انت صابر

ثم نظر إليها اعرابي وقال أنا والله ممن قلّ صبره وأنشد :

أوحشية العينين أين لك الأهل　　أبالحزن حلوا أم محلهم السهل
وأية أرض أحرجتك فإنني　　أراك من الفردوس ان فتش الأصل
قفي خبرينا ما طعمت وما الذي　　شربت ومن أين استقل بك الرحل
لأن علامات الجنان مبينة عليك　　وان الشكل يشبهه الشكل

(أقول) هذا والله هو السحر الحلال والعذب الزلال قد اشتمل على مذهب السحر الكلامي والبدر السامي فكأني بها وقد ذكرت له الأهل ووصفت من

حيها وخدها الحزن والسهل هنالك يأتيها سعياً على الرأس لا سعياً على القدم وتكون وجناتها أحب اليه من حمر النعم وينشد :

أريني مكان البدر ان أفل البدر   وقومي مقام الشمس ان بعد الفجر
ففيك من الشمس المنيرة ضوءها   وليس لها منك التبسم والثغر

(حكي) أنه دخل اصبهان مغن كان يتغنى بهذين البيتين :

سماعاً يا عباد الله مني   وكفوا عن ملاحظة الملاح
فإن الحب آخره المنايا   وأوله شبيه بالمزاح

قلت وفي هذا دليل على ان العـــين هي التي تجلب الحين وإذا كان كذلك فلنذكر هنا مناظرة وقعت بين القلب والعين ولوم كل منهما صاحبه والحكم بينهما وهي لما كانت العين رائدة ومحبة القلب زائدة وهذه لها لذة النظر وهذا له لذة الظفر كانا في الهوى شريكي عنان وفرسي رهان فلما وقعا في السهاد والحرق وأضرّ بصاحبهما الأرق قال القلب، يقول الأرجاني لطرفه الجاني :

تمتعـتما يا مقلـــتي بنظرة   وأوردتما قلبي أشر الموارد
أعينيّ كفا عن فؤادي فإنه   من البغي سعى اثنين في قتل واحد

وقال أبو الطيب المتنبي :

وأنا الذي اجتلب المنية طرفه   فمن المطالب والقتيل القاتل

(وقول الآخر) :

عوقب قلبي وجنى ناظري   وربما عوقب من لا جنى

وقول الآخر :

نظر العيون الى العيون هو الذي   جعل الهلاك الى الفؤاد سبيلا
ما زالت اللحظات تغزو قلبه   حتى تشحط بينهن قتيـــلاً

وقول الآخر :

يا من يرى سقمي يزيد وعـلتي أعيت طبيبي
لا تعجـيز فهكذا تجني العيون على القلوب

وقال ابن مدرك :

جرحت بلحظي خدّ الحبيب فما طالب المقلة الفاعله
ولكنه اقتصّ من مهجـــتي كذاك الديات على العاقلة

فلما سمعت العين انشاده وفهمت مراده أشاوت اليه وأخـذت في الانكار عليه فقالت يا للعجب من ظالم يتظلم وأخرس يتكلم أليس من الخبر الذي شاع وذاع انك أنت الملك ونحن الاتباع ترسلني فيما تريد كالبرق وتعقب ذلك بالتهديد أما سمعت قول أبي هريرة رضي الله عنه القلب ملك والاعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده وان خبث الملك خبثت جنوده .

وقال سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسـلام في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله فبين ذنبي وذنبـك إذ ذاك كما بين عماي وعماك .

وقال علام الغيوب فانها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب فلما سمعت النفس ما دار بينهما من الجدال قالت في الحال .

أنا ما بين عدوّين هما قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى القلب والمقصود حتفي

وقال آخر .

يقول قلبي لطرفي إذ بكي جزعاً تبكي وأنت الذي حملتني الوجعا
فقال طرفي له فيما يعاتبه .
بل أنت حملتني الآمال والطمعا حتى إذا ما خلا كل بصاحبه
كلاهما بطويل السقم قد قنعـا نادتهما كبدي لا تعتبـــا فلقد
قطعتماني بما لاقيتما قطعاً

وقال آخر :

عاتبت قلبي لما　　　رأيت جسمي نحيلاً
فألزم القلب طرفي　　　وقال كنت الرسولا
فقال طرفي لقلبي　　　بل أنت كنت الدليلا
فقلت كفا جميعاً　　　تركتماني قتيلاً

قلت فكانا كما يقول العامة قفا بين صفاعين وما أحسن قول الآخر :

فوالله ما أدرى أنفسي ألومها　　　على الحب أم عيني لقريحة أم قلبي
فان لمت قلبي قال لي العين ابصرت　　　وان لمت عيني قالت الذنب للقلب
فعيني وقلبي قد تشاركن في دمي　　　فيارب كن عوناً على العين والقلب

قلت والحاكم بينهما الذي يحكم بين الروح والجسد اذا اختصما كما ورد في الخبر عن سيد البشر لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلائق حتى تختصم الروح والجسد فيقول : الجسد للروح أنت التي حركتني وأمرتني وصرفتني وإلا فأنا لم أكن اتحرّك ولا افعل شيئاً بدونك فتقول الروح له : وانت الذي أكلت وشربت وتمتعت فأنت الذي تستحق العقوبة فيرسل الله سبحانه وتعالى ملكاً يحكم بينهما فيقول مثلكما مثل مقعد بصير وأعمى يمشي دخلا بستاناً فقال المقعد للأعمى : انا أرى ما فيه الثمار ولكن لا استطيع القيام . وقال الأعمى : انا استطيع القيام ولكن لا أبصر شيئاً فقال المقعد : تعال فاحملني فأنت تمشي وأنا أتناول فعلى من تكون العقوبة فيقولان عليهما فيقول : فكذلك انتما .

فصل

في ذكر سحر الجفون ونبل العيون

فمن ذلك قول بشاره وهو أغزل بيت قالته الشعراء فيما حكاه قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان :

أنا والله اشتهي سحر عينيـ ... ـك وأخشى مصارع العشاق

(ونقل) شيخنا الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي في تاريخ الإسلام عن ابن حيوس أنه قال من أغزل ما أعلم قول عبد المحسن الصوري :

بالذي ألهم تعذيبي ... ثنـاياك العذابا
ما الذي قالته عينا ... ك لقلبي فأجابا

قلت وهما من قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حور ... يقتتلنا ثم لا يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهن أضعف خلق الله انساناً

(وانشد) صاحب المرقص والمطرب :

لو لم أمت باللحظ قال العذل ... ما قيمة السيف الذي لا يقتل

(وقال ابن سهل الاشبيلي) في مطلع موشحه :

ألحاظهـا للقتـــل	في كرها أو في نصيب
ترمي وكلي مقتل	وكلها سهم مصيب

(وقال الملك الناصر داود صاحب الكرك) :

بأبي أهيف إذ رمت منه	لثم ثغر يصدني عن مرامي
قدحمى خده بسور عذار	مقلتاه أضحت عليه مرامي

●

فصل

في وصف العيون الضيقة وغيرها

قال ابن النبيه :

يصد بطرفه التركي عني　　　صدقتم ان ضيق العين نخل

(وقال ايضاً) :

من بنى الترك لين العطف قاسي القلب سهل الخداع صعب المراسي ضيق العين وهو من صفة البخل فإن جاد كان ضد القياس :

جذب القوس فاكتست وجنتاه　　　ثوب ورد طرازه من آس
ورمى عن قوسين سهمين هذا　　　في فؤادي وذاك في القرطاس

(وقال ابن قرناص) :

علقته تتريا　　　يشجى القلوب ببينه
لا يرتجى الجود منه　　　بالوصل من ضيق عينه

(وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة) :

بهت العذول وقد رأى ألحاظه　　　تركية تدع الحليم سفيها
فثنى الملام وقال دونك والاسى　　　هذي مضايق لست ادخل فيها

(وقال الشيخ صفي الدين الحلى) :

لي منهم رشا إذا غازلتة　　كادت لواحظه بسحر تنطق
إن شاء يلقاني بخلق واسع　　عند اللقاء نهاه طرف ضيق

(حكى) الخرائطي عن بعض العلويين قال بينا أنا واقف على الحسن ابن هانيء وهو ينشد :

ويلي على نجل العيون　　النهد الضمر البطون
الناطقات على الضمير　　لنا بألسنة الجفون

فوقف عليه أعرابي ومعه ابن له فقال : أعد إليّ فأعاد عليه فقال : يا ابن أخي أويلك أنت وحدك من هذا ويلي انا وأنت وويل ابني هذا وويـل هذه الجماعة وويل جيراننا كلهم .

(وقال سبط التعاويذي) :

بين السيوف وعينيه مشاركة　　من أجلها قيل للاغماد اجفان

(وقال رشيد الدين الفارقي) :

ان في عينك معنى　　حدث النرجس عنه
ليت لي من غضه　　سهماً ففي قلبي منه

(وقال محمد بن العفيف التلمساني) :

لحاظك أسياف ذكور فمالها　　كما زعموا مثل الأرامل

(وله ايضاً) :

يا عاشقين حاذروا　　مبتسماً عن ثغره
فطرفه الساحر مذ　　شككتم في أمره
يريدان ان يخرجكم　　من أرضكم بسحره

(وقال ايضاً) :

قضاة الحسن ما صنعي بطرف　　تمنى مثله الرشـــأ الربيب
رمى فأصاب قلبي اجتهـاد　　صدقتم كل مجتهد مصيب

(وقلت أنا من قصيد) :

حبيب نازل في كل قلب وسيف لحاظه يهوى النزالا
يرى قتل المحب بلا دليل ولا سيما إذا أبدى الدلالا
إذا استقبلت سيف اللحظ منه رأيت الموت من ماضيه حالا

(وقلت ايضاً من قصيد) :

تغار الشمس منها حين تبدو كغصن البان في خضر البرود
بأطراف من الحناء حمر وألحاظ كبيض الهند سود

(وقلت ايضاً من قصيد) :

آلت لواحظه على أهل الهوى ان لا ترى قتلاً بغير مهند
يرنو وصارم لحظه في جفنه ماضي الغرار ولم يمس بأثمد
فاذا تجرد للمحب فلا تسل عن سيف جفن كالحسام مجرد

(وقلت ايضاً من قصيدة) :

غزالي غزاني باللحاظ لانه إذا ما بدا في حومة الحرب ضيغم
تكلمني ألحاظه بسيوفها ولم تر قبلى ميتـــاً يتكلم

(وقلت من قصيدة) :

تسل سيوفاً من لواحظ طرفها ولكن لها من عادة الجفن غامد
تجردها والدمع كالنيل سائح فما تنثني إلا وسيحان جامـــد

(وقلت ايضاً من قصيد) :

يرنو إليَّ بعين نون حاجبها كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان
أمير حسن من الاتراك حاجبه على المحب له في مصر سلطان
غزت لواحظه في أهل مصر كما غزا الأنام بأرض الشام غازان

وأما الجور فقد اختلف الناس فيه فقال أبو عبيدة الحوراء الشديدة بياض العين في شدة سواد سوادها .

وقال يعقوب الحور سعة العين وكبر المقلة وكثرة البياض .

وقال قطرب الحوراء الحسنة المحاجر صغرت العين أم كبرت .

وقال أبو عمرو الظبية الحوراء السوداء العين التي ليس في عينها بيـاض ولا يكون هذا في الإنس إنما يكون في الوحش واشتقاق حور يدل على صحة ما قاله

يعقوب وأبو عبيدة لانهم إنما يوقعونه في الغالب على البياض مثل الدقيق الحواري الدرمك الشديد البياض وقلما يتفق بياض العين إلا مع شدة سوادها لان بياضها مع الزرقة ليس هنالك في النقاء وقد أكثر الشعراء في وصف العين بالحور والسواد وقل في شعرهم وصف العين الزرقاء على انه جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ انه قال : الزرقة في العين يمن (وقال بعض العرب) :

أحبك ان قالوا بعينك زرقة　　　كذلك عتاق الطير زرق عيونها

ومن هنا اخذ العبدي قوله حين قال له معاوية : انك احمر فقال : والذهب أحمر فقال انك الأزرق فقال : والبازي أزرق .

البَابُ الخَامِسُ

في ذكر تغير الألوان عند العيان من صفرة وجل وحمرة خجل وما في معنى ذلك من عقد اللسان وسحر البيان

اقول هذا باب عقدناه لذكر تغير لوني المحبين اذا وقعت العين في العين وهرب الدم الى شبكة الدماغ فقال له الحاجر : إلى أين وقد نصت الأطباء على السبب في ذلك وجلو من اصفرار المحب واحمرار المحبوب سواد كل حالك وأنا أورد هنا ما قالوه بنصه وأصوغه كالخاتم بفصة وأعقبه بذكر ألوان الحسان بأحسن بيان وأوضح تبيان هذا مع ما ينجر في ذيل ذلك من التفصيل بين السمر والبيض ووقوع محب السمان من الشعور والأرداف في الطويل والعريض . واختم ذلك بفصل في ذكر ما يعتري المحب من خفقان قلبه وطيران عقله ولبه فأقول وبالله التوفيق .

قال بعض الأطباء :

سبب اصفرار وجه العاشق الفزع فإن الدم لا يأوي مع الفزع وربما نظر المعشوق الى العاشق فجأة فيضطرب قلبه وتشتعل الحرارة ثم تخمد فإذا خمدت برد التامور فإذا برد التامور جمد الدم واستحال اللون الى السواد والخضرة ثم يستقر فيصفر واما احمرار وجه المعشوق فمن الخجل والخجل عرض من حركة

تامور القلب فتحيل الدم وتلطفه فيظهر في أرق مكان في الوجه وذلك عند معالجة الحرارة العرضية ومجاهدتها الدم لما يندفع فيطلب الخلاص حتى ينتهي إلى تحت الرأس فيمنعه الحاجر من النفوذ فيهبط الى الوجه فيحمر الوجه قالوا والوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم اذا خجل يحمر وإذا فزع يصفر ومنه قولهم ديباج الوجه يريدون تلونه من رقته قال الشاعر :

حمرة خلط صفرة في بياض . مثل ما حاك حائك ديباجاً

وقالوا حمرة لون الانسان يولدها الفرح والصحة والنعمة وصفرة لونه يولدها الفزع والبؤس والغم والسقم وأما احسن الألوان فإنه الاحمر بدليل ان الدم صديق الروح والحمرة لونه وافضل الياقوت وافخره الاحمر واجود الذهب احمره وافضل العسل الذهبي والياقوتي وتمدح الأرض بحمرة التربة واكرم الخليل اشقرها وهي ديباجها واكرم الأبل حمرها وهي التي قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعظم مقدار ذلك لوان لي حمر النعم ولوان لي طلاع الارض ذهباً وأحسن الانوار الورد والشقائق والجلنار وأحسن الحلل المصبوغة المعصفره وأحسنها ما كان صبغة القرمز واحسن الخمر الحمراء ولذلك وصفتها الشعراء بلون النار والعندم والعصفر والياقوت والعبقر وأحسن الالوان المخلوقة النار ومن أجل ذلك اكتنى عبد العزى بن عبد المطلب با لهب وكان يكنى قبل ذلك ابا عتبة لأنه كان من أحسن الناس وجهاً وكانوا يشبهون احمرار وجهه بلهيب النار لأنه كان مشرق الوجه ملتهبة كما كنى النبيّ صلى الله عليه وسلم ابا الملهب ابا صفرة لصفرة كانت في وجهه ويقال في المثل كأن وجهه النار وكأن في وجنته الجمر وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اهلك الرجال الاحمران وأهلك النساء الاحامرة والاحمران الخمر اللحم والاحامره الذهب والزعفران الخمر والخمر واللحم قال الشاعر :

ان الاحامرة الثلاثة ضيعت مالي وكنت بهن قدماً مولعاً
الخمر واللحم السمين وما طلى بالزعفران فلا ازال مروعاً

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه الطائر الأحمر وقال وهب ابن عبدالله

ما رأيت ذالمة سوداء في حلة حمراء أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال المتنبي من الجأذرفي زي الاعاريب .

حمر الحلى والمطايا والجلاليب .

(وأما قول الشاعر) :

هجان عليها حمرة في بياضها تروق به العينين والحسن أحمر

فانه عنى به الحسن في حمرة اللون مع البياض دون غيره من الالوان وقال ابن عبد ربه الحسن أحمر وقد تضرب فيه الصفرة لطول المكث في الكون والضمخ بالطيب .

(قال اعرابي) :

وما تسليت عن صفراء حالية كالعاج صفرها إلا كان والطيب

(وقال آخر) :

كأن لون البيض في الأدحى لونك لولا صفرة الجاوي

يريد أنها تتضمخ بالجاوي وهو الزعفران وصفرة البيضة لا تدرك صفرته وقالوا الجاريه الحسناء تتلو تلوّن الشمس فهي بالضحى بيضاء وبالعشا صفراء .

(قال الشاعر) :

بيضاء صحوتها وصفراء العشية كالنهار

(وقال بشار بن رد) :

فخذي محاسن زينة ومعصفرات هن أفخر

فاذا بلغنا فأدخلي في الحمرات الحسن أحمر

وقال الحريري في درّة الغواص أما قولهم الحسن احمر فمعناه انه لا يكتسب ما فيه الجمال الا بتحميل مشقة يحمار منها الوجه كما قالوا للسنة المجدبة حمراء كنوا عن الأمر المستعصب بالموت الاحمر كما قيل :

وإذا رأت عيناك طرفاً اسودا   فاعلم بأن هناك موتاً أحمرا

وأحسن زينة النساء في أجسادهن الخضاب ولذلك أطنبت فيه الشعـــراء، وشبهوه بالعناب وغير ذلك (قال أبو نواس فيه) :

يا قمراً أبصرت في مأتم   يندب شجواً بين اتراب
يبكي فيذري الدر من نرجس   ويلطم الورد بعناب

(وقال ابن عكاشة) :

من كف جارية كأن بنانها   من فضة قد طوقت عنابا

(وما أحسن قول الواو الدمشقي) :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد (وقال) المرزباني قال لي ابن دريد سهرت ليلة فلما كان آخر الليل أغمضت عيني فرأيت رجلاً طويلاً أصفر الوجه كوسجا دخل عليّ وأخذ بعضادتي الباب وقال أنشدني أحسن ما قلت في الخمر فقلت ما ترك أبو نواس لإحد شيئاً فقال أنا أشعر منه فقلت ومن أنت فقال أنا ابن ناجية من أهل الشام (وأنشدني) :

وحمراء قبل المزج صفراء بعده   بدت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا   عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

فقلت أسأت الترتيب فقال ولم قلت لإنك قلت وحمراء فقدمت الحمراء ثم قلت بين ثوبي نرجس وشقائق فأخرت الحمرة فهلا قدمتها على الأخرى فقال وما هذا الاستقصاء في هذا الوقت يا بغيض ثم انصرف :

(وقال المتنبي) :

قالت وقد رأت اصفراري من به   وتنهدت فأجبتها المتنهد

(أخذه الآخر فقال) :

قالت لترب معها منكرة   لوقفتي هذا الذي نراه من
قالت فتى يشكو الهوى متيم   قالت بمن قالت بمن قالت بمن

(وقال ابن النبيه) :

وفي الكلمة الحمراء بيضاء طفلة بزرق عيون السمر يحمي احورارها

(وقال) عماد الدين ابن دبوقا من أبيات :

أرى العقد في ثغره محكما يرينا الصحاح من الجوهر
وتكملة الحسن ايضاحها رويناه عن وجهك الأزهر
ومنثور دمعي غدا احمرا على آس عارضك الأخضر
وبعت رشادي بغي الهوى لإجلك يا طلعة المشترى

(وقلت أنا من قصيد) :

لعمرك لا زيد يكون ولا عمرو ولا ثغر إلا دون تقبيله ثغر
لا بيض إلا أسود حظي عندها ولا سمر إلا دون اعطافها السمر

(وقال بدر الدين بن المحدث) :

يصفر لوني حين أنظر وجنة منها تعلم حسنه الورد الجنى
يفنى الزمان وليس يفنى حبه وقد انحنيت وما اراه ينحني

(حكي) عن ابي أيوب وزير المنصور انـــه كان اذا دعاه المنصور يصفر ويرعد فإذا خرج من عنده تراجع لونه فقيل له إنا نراك مع كـثرة دخولك على أمير المؤمنين وانسه بك تتغير اذ دخلت إليه فقال مثلي ومثالك في هذا مثـــل بازي وديك تناظر فقال البازي للديك مـــا أعرف أقل وفاء منك لأصحابك فقال وكيف قال تؤخذ بيضة فيحضنك أهلك ويخرج على أيديهم فيطعمونـك بأكفهم حتى اذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد الاطرت من هنا إلى هنا وصحت وان علوت حائط دار كنت فيها سنين طرت منها وتركتها إلى غيرها وأمّا أنا فأوخذ من الجبال وقد كبرت فتخاط عيناي واطعم الشيء اليسير وأساهر فأمنع من النوم وأونس اليوم واليومـين ثم اطلق على الصيد وحدي فأطير إليه وآخذه وأجيء إلى صاحبي فقال له الديك ذهبت عنك الحجة أما

والله لو رأيت بارزين في سفود ما عدت إليهم أبداً وأنا في كل يوم أرى السفافيد مملوءة ديوكاً فلا تكن حليماً عند غضب غيرك وأنتم لو عرفتم من المنصور ما أعرفه لكنتم اسوأ حالاً مني عند طلبه لكم (قلت) والذي هرب منه وقع فيه على الصحيح الأشهر ولم يزل يصفر منه حتى إذاقه الموت الاحمر هذا بعد ان أخذ أمواله وتركه في أسوأ حالة (حكي) انه كان يدهن حاجبه بدهن يسحر فيه المنصور فلا يمكن منه اذا رآه حتى ضرب به المثل فقيل أدهن من أبي أيوب وما افاده ذلك شيئاً لأنه فعل به ما فعل وقابله بما ليس له به قبل.

***

فصل

في التفضيل بين البيض والسود والسمر ذوات النهود

وهذا النوع الاخير مما يميل إليه المصريون في الغالب .

وللناس فيما يعشقون مذاهب .

(فيما قيل في تفضيل السمر)

لا اعشق الأبيض المنفوخ من سمن
لكنني أعشق السمر المهازيلا
اني أمرؤ أركب المهر المضموفي
يوم الرهان فدعني وأركب الفيلا

(وقال علي بن الجهم)

وعائب للسمر من جهـــله   فياظبي مفضل للبيض ذي محك
قولوا له دعنا أما تستحي   من جعلك الكافور كالمسك

(وقال أبو جعفر الشطرنجي) :

أشبهك المسك وأشبهته   قائمة في لونه قاعدة
لا شك إذ لو نكما واحد   أنكما من طينة واحدة

(وقال الشريف الرضي في تفضيل السود) :

أحبك يا لون السواد فأنني
رأيتك في العينين والقلب توأما

وما كان سهم العين لولا سوادها
ليبلغ حبات القلوب إذا رمى
اذا كنت تهوى الظبى ألمي فلا تلم
جنوني على الظبي الذي كله لما

(وقال مسلمة) :

لام العواذل في سوداء فاحمة كأنها في سواد القلب تمثال
وهام بالخال أقوام وما علموا اني أهيم بشخص كله خال

(وقال ابن رشيق)

دعا بك الحسن فأستجيبي يا مسك في صبغة وطيب
تيهي على البيض واستطيلي تيه شباب على مشيب
ولا يرعك أسوداد لون كمقلة الشادن الربيب

(وقال آخر) :

وان سواد العين في العين نورها
وما لبياض العين نور فيعلم

(وقد ذكرت) بقية ما قيل في هذا النوع من المقاطيع الحسان في السكردان عند ذكر الملك الكامل شعبان رحمه الله .

وأما ما قيل في تفضيل البيض على السود فأكثر من أن يذكر له شاهد أو يمتد إليه ساعد المساعد قال الجاحظ والعرب تمدح بالبياض وتهجو بالسواد ولكن ربما مدحوا بالسواد ولكن أصل ما يبنون عليه أمرهم ذمه .

(قال كشاجم) :

يا مشبهاً في فعله لونه لم تعد ما أوجبت القسمة

خلقك من خلقك مستخرج والظلم مشتق من الظلمـــة

وأما القصيرة الغليظة من النساء فإنها نوع مذموم عند صاحب كل منثور ومنظوم .

(قال الشاعر) :

وأنت التي حببت كل قصيرة إلى ولم تشعر بذاك القصائر
عنيت قصيرات الحجال ولم أرد قصار النساء شر النساء البحاتر

والبحاتر هنّ القصار الغلاظ .

(وقال بعض السلف) :

جعل الله البهاء والهوج مع الطوال والدهاء والذمامة مع القصار والخير فيما بين ذلك . وما أظرف قول الشريف الناسخ :

وأحرباه من هوى قصيرة في الأرض منها الف الف قامة
إذا رنا الى الخفاف طرفها قال القفـايا كاتب السلامه

وبعض الناس يفضل السمان ويقول : السمنة نصف الحسن وهو يستر كل عيب في المرأة ويبدى محاسنها قيل ولهذا قيل جميله لأن الجميلة السمينة من الجمل وهو الشحم وقد تقدم ذكره :

فصل

في ذكر ما يعتري المحب من اصفرار لونه عند رؤية محبوبه وخفقان قلبه وطيران عقله ولبه

(قال صاحب روضة المحبين) :

وقد اختلف في سبب هذه الروعة والفزع والاضطراب فقيل سببه أن للمحبوب سلطاناً على قلب محبه أعظم من سلطان الرعية فإذا رآه فجأة راعه ذلك كما يرتاع من يرى من يعظمه فجأة فإن القلب معظم للمحبوب خاضع له والشخص اذا فجأه المعظم عنده راعه ذلك وقيل سببه انفراج القلب له ومبادرنة إلى تلقيه فيهرب الدم منه فيبرد ويرعد ويحدث الاضطراب والرعدة وربما مات وبالجملة فهذا أمر ذوقي وجداني وان لم يعرف سببه ومن أحسن ما قيل في الاعتذار عن خفقان القلب عند رؤية المحبوب قول الوراق الخطيري :

يقول لي حين وافى ... قد نلت ما ترتجيه
فما لقلبك قدجا ... خفقه يعتريه
فقلت وصلك عرس ... والقلب يرقص فيه

(ومثله قول لآخر) :

لا تنكروا خفقان قلبي ... والحبيب لديّ حاضر
ما القلب إلا داره ... دقت له فيها البشائر

(وما أحسن قول ابن سنا الملك) :

أما والله لولا خوف سخطك　　لهان عليّ ما ألقى برهطك
ملكت الخافقين فتهت عجبا　　وليس هما سوى قلبي وقرطك

(وقال معين الدين) :

لم انسه إذ قال أين تحلني　　حذراً على من الخيال الطارق
فأجبت في قلبي فقال تعجباً　　أرأيت عمرك ساكناً في خافق

(وقال آخر) :

وسكنت قلباً خافقاً　　يأساً كنا في غير ساكن

(وقال الطغرائي) :

مرض النسيم وصحو الداء الذي　　اشكوه لا يرجى له فراق
هذا خفوق البرق والداء الذي　　ضمت عليه جوانحي خفاق

(أورد) الابن الابار في تحفة القادم .

قول ابن تقي من أبيات :

حتى إذا مالت به سنة الكرى　　زحزحته شيئاً وكان معانقي
أبعدته عن اضلع تشتاقه　　كي لا ينام على وساد خافق

ثم قال نسب بعض أهل عصرنا ابن تقي إلى الجفاء في قوله ابعدته :

عن أضلع تشتاقه ولو قال
ابعدت عنه أضالعاً تشتاقه

لكان أحسن ثم ذكر بعدها مما فضلوه على قول ابن تقي المذكور قول ابن الحكم جعفر بن عنان .

ان كان لا بد من رقاد　　فأضلعي هاك عن وسادي
ونم على خفقها هدوّاً　　كالطفل في هزة المهاد

(وقال) ابن الاثير في المثل السائر في ابيات ابن تقي المذكور وهذا من

من الحسن والملاحة بالمكان الاقصى ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص رقصاً والبيت الأخير هو الموصوف بالابداع وبه وبأمثاله اقرت الأبصار بفضل الاسماع وقلت انا موافقا لأهل ذلك العصر في الرد على ابن تقي:

أتاني زائر فحكى الهلالا
وأتبعه صدوداً واستطالا

فقلت له فقال لا لا
دوام الوصل يورثك الملالا

•

الباب السادس

في ذكر الغيرة وما فيها من الحيرة وقوع من ديك الجن

أقول هذا باب عقدناه لذكر غيرة المحب على المحبوب حتى من نفسه وأبناء جنسه والمحبون فيها نوعان والمضروبون يسوطها ضربان فالأول يحبه الله ورسوله ويتم به للعاشق سوله والثاني مذموم وصاحبه ملوم فالنوع المحبوب منها أن يغار عند قيام الريبة والنوع المذموم ان يغــار من غير ريبة بل من مجرد سوء الظن وهذه الغيرة تفسد المحبة ولاتترك منها حبة لأنها توقع العداوة بين المحب والمحبوب وربما حملته على الوقوع فيما اتهمه به ويترتب عليها مفاسـد كثيرة مما يؤدي الى فساد الصورة والحكايات في هذا الباب مشهورة (وقد روى) النبي ﷺ في الصحيح أن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يكره الله فالغيرة التي يحبهاالله أن تكون في ريبة والغيرة التي يكرهها الغيرة في غير ريبة .

وقال عبدالله بن شداد الغيرة غيرتان غيرة يصلح بها الرجل أهله وغيرة تدخل النار .

وقال صاحب روضة المحبين الذي يحب الله ورسوله يغـار لله ورسوله على قدر محبته واجلاله وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ورسوله فهو من المحبين فكذب من أدعى محبة محبوب من الناس وهو يرى غيره ينتهك حرمته ويسعى في إذاءه

ومساخطه ويستخف بأمره وهو لا يغار لذالك بل قلبه بارد فكيف يصح لعبد أن يدعى محبة الله وهو لا يغار لمحارمه اذا انتهكت ولا لحقوقه إذا ضيعت وأقل الأحوال ان يغار له من نفسه بترك ارتكاب معاصيه والتفريط في حقه وأما الغيرة على المحبوب فإنما تحمد حيث يحمد الاختصاص به ويذم الاشتراك فيه شرعا وعقلا كغيرة الانسان على زوجته وأمته والشيء الذي هو يختص به وهذه الغيرة تختص بالمخلوقين ولا تتصور في حق الخالق لانه سبحانه وتعالى يجب على جميع المخلوقين أن يحبوه ويذكروه ويعبدوه ويحمدوه خلافاً فالبعض جهلة الصوفية ممن كان اذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغارمنه وربما سكتة انأمكنه ويقول غيرة الحب تحملني على هذا وإنما ذلك حسد وبغي وعدوان ونوع معاداة الله ومراغمة لطريق رسله أخرجوهافي قالب الغيرة وشبهوا محبته بمحبةالصورة وهذه الغيرة إنما تحسن في محبة من لا تحسن المشاركة في محبته كغيرة الانسان على محبوبه من الآدميين كما تقدم ذكره .

قال القشيري قيل لبعضهم أتحب ان تراه قال لا قيل ولم قال أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي .

قال الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية وهذه ايضاً غيرة فاسدة وغاية صاحبها أن يعفى عنه وان بعد ذلك من سطحاته المذمومة وان يعد في مناقبه وفضائله أن يقال له أتحب أن ترى حبيبك فيقول لا فلا ورؤيته أعلى نعيم الجنة وهو سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يسأله النظر اليه وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه "اللهم اني أسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك وقول هذا القائل أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي من خدع الشيطان والنفس وهو شبه ما يحكى عن بعضهم انه قيل ألا تذكره فقال أنزهه أن يجري ذكره على لساني وقد وقع بعضهم في شيء من ذلك فلاموه فأنشد :

يقولون زرنا واقض واجب حقنا وقد أسقطت حالي حقوقهم عني
إذا هم رأوا حالي ولم يأنفوا إليها ولم يأنفوا مني أنفت لهم مني

وبعضهم من ترك الحج غيرة على بيته ان يزوره مثله وقد لمت شخصاً على ترك الصلاة .

فقال لي أني لا أرى نفسي أهلاً أن أدخل بيته فأنظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء وأما الغيرة على المحبوب من الآدميين فلنا فيها ضروب وحسنات غالبها ذنوب فمنهم من يغار على المحبوب من النسيم اذاهب أو سماع انه في الدرب :

اغار اذا آنست في الحى أنة حذار أو خوفاً تكون لحبة

(وقال آخر) :

تغار من ألطيف الملم حماتها ويغضب من النسيم غيورها

(وقال ابن الأثير في المثل السائر) :

سافرت الى الشام سنة سبع وثمانين وخمسمائة فدخلت مدينة دمشق فوجدت جماعة من أربابها يلهجون ببيت من الشعر لإبن الخياط وهو :

أغار إذا آنست في الحيّ البيت المتقدّم

فقلت لهم هذا البيت مأخوذ من قول ابي الطيب المتنبي :

لو قلت للدنف المشوق فديته مما لا به لاغرته بفدائه

والمتنبي أخذه من قول العباس ابن الأحنف :

لم ألقَ ذا شجن يبوح بحبه ألا حسبتك ذلك المحبوبا
حذار عليك وانني بك واثق ان لاينال سواي منك نصيبا

ومنهم من يلحق في الغيرة يومه بأمسه ويغار على المحبوب من كلام نفسه كما قال البحتري :

إني لاحسد ناظري عليكا حتى أغض إذا نظرت اليكا
وأراك تخطر في شمائلك التي هي فتنتي فأغار منك عليكا

ولو استطعت منعت لفظك غيرة | كي لا أراه مقبلا شفتيكا
خلص الهوى لك واصطفتك مودتي | حتى أغار عليك من ملكيكا
ومنهم من يغار عليه | من أزراره ولبس أزاره
أرى الأزرار على ليلى فأحسده | ان الأزرار على ماضم محسود

قلت ولهذا البيت حكاية لطيفة وهي ما حكي عن الحسن بن زيد أمير المدينة انه قال يوماً لأبي السائب وكان قد جمله وكساه فكان يركب معه في موكبه ويسلم على النساء إذا مر بهن فنهاه الأمير عن ذلك فسار معه يوماً وعليه قلنسوة ففعل كعادته فأنشده الأمير :

أرى الأزرار على ليلى البيت . فقال له أبو السائب بأبي أنت وأمي . من الذي قال هذا البيت . فقال : قيس فتخلف أبو السائب عن مسايرته ثم لحق ولا قلنسوة عليه . فقال له الأمير : أين القلنسوة . قال : تصدقت بها على الشيطان الذي ألقى هذا البيت على لسان قيس . ومنهم من يغار عليه من ارتشاف السلاف كما قال كشاجم :

وعذبني قضيب في كثيب | تشارك فيه لين واندماج
أغارا اذ أدنت من فيه كاس | على در يقبله زجاج
وأشفق ان دنا المصباح منه | على بدر يقابله سراج
أخذه المتنبي فقال في ممدوحه | اغار من الزجاجة حين تجري

على شفة الامير ابي حسين وقد عيب عليه ذلك لكونه خاطب ممدوحه بما تخاطب به المليحة ومنهم من ينزل نفسه منزلة الاجنبي فيغار على المحبوب من نفسه كما قال أبو تمام :

بنفسي من أغار عليه مني | وأحسد مقلة نظرت إليه
ولو أني قدرت طمست عنه | عيون الناس من حذري عليه
حبيب بث في جسمي هواه | وأمسك مهجتي رهنا لديه
فروحي عنده والجسم خال | بلا روح وقلبي في يديه

(وقال أيضاً)

أغار عليك من قلبي وأن أعطيتني أملي
وأشفق ان ارى خديك نصب مواقع القبل

(وقال الآخر) :

يا من اذ أذكر اسمه في مجلس لذا الحديث به وطاب المجلس
أني لمن نظري اغار وأنني بك عن سواي من الأنام لأنفس

ومنهم من يغار عليه من وصاله له مخافة أن يكون مفتاحاً لغيره كما قال على بن عبدالله الجعبري :

ربما سرنى صدوك عمداً وطلابيك وامتناعك عنى
حذرا أن اكون مفتاح غيري فإذا ما خلوت كنت التمني

(وقال آخر) :

ولما رمت باللحظ غيري حسبتها كما أثرت بالعين تؤثر بالقلب
وأنى لأرجو ان تدوم ببعدهـا ولكن سوء الظن من شدة الحب

(وقد بالغ ابن مطروح حيث يقول) :

فلو اضحى على تلفي مصرا لقلت معذبي بالله زدني
ولا تسمح بوصلك لي فأني أغار عليك منك فكيف مني

ومنهم من يمتنع من ذكر محبوبه مخافة تعريضة لحب غيرة.له كما قال علي بن الرافعي :

ولست بواصف يوماً حبيبا اعرضه لأهواء الرجال
وما بالي اشوق قلب غيري ودون وصاله ستر الحجال

وكثيراً من الجهال وصف امرأته ومحاسنها لغيره فكان ذلك سبب فراقها واتصالها بالموصوف له وذلك من قلة عقله وحمقه وقد رأيت جماعة بهذه الصفة ومنهم من بالغ في الغيرة حتى قتل محبوبه مخافة ان يموت هو فيمتنع بمحبوبه

بعده غيره كما ذكر ذلك عن جماعة من جملتهم ديـك الجن الحمصي وقد أفردت لحكايته رسالةمستقلة وسميتها قرع سن ديك الجن و كتبت بها إلى مولانا السلطان الناصر حسن في سنة ستين وسبعمائة وهو في سرياقوت فأصبحت وكان قد تقدم ما يوجب ذلك فلذلك افسحت الرسالة المذكورة بقولي يقبل الأرض وينهي ان ديك الجن المذكور من جملة جنونه انة كان يهوى جارية وغلاماً له فمن شدة حبه لهما وغيرته عليهما خشي أن يموت وأن غيره يتمتع بهما بعــده فعمد اليهما فذبحهما بسيفه وأحرق جسديهما وصنع من رماد الجارية برنية للخمر ومن رماد الغلام برنية أخرى كذلك وكان يضعهما في مجلس أنسه عن يمينه وشماله فكان إذا اشتاق الى الجارية قبل البرنية المجعولة من رمادها وملأ منهـا قدحه وأنشد

يا طلعة طلع الحمـام عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها التراب وطالما ... روّى الهوى شفتي من شفتيها
واجلت سيفي في مجال خناقها ... ومدامعي تجري على خديهـا
فوحق نعيلها وما وطيء الثرى ... شيء أعز عليّ من نعيلها
ما كان قتلهـا لأني لم اكن ... ابكي اذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت على سواي بحسنها ... وانفت من نظر العيون إليها

وإذا اشتاق الى الغلام قبل البرنية المجعولة من رماده وملأ منها قدحه وبكى وأنشد قوله فيه :

أشفقت بأن يرد الزمان بغدره ... أو ابتلي بعد الوصال بهجره
قمر أنا استخرجته من دجنه ... لبليتي وأثرتــه من خدره
فقتلته وله عليَّ كرامــة ... فلي الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتـاً كأحسن نائم ... والطرف يسفح دمعتي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده ... بالحي منه بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه ... ويكاد يخرج قلبه من صدره

(أقول) هذا الذي يقال له الجنون فنون فإنا لله وإنا اليه راجعون من فعل

هدا المجنون على انه من أرق الناس شعراً وأكثرهم للمحبوب ذكراً فمن شعره ونظمه الرائق قوله في الدعاء على المحبوب :

كيف الدعاء على من خان أو ظلما وما لكي ظالم في كل ما حكما
لا واخذ الله من أهوى بجفوته عني ولا اقتص لي منه ولا انتقما

(أقول) صار الطالب مطلوب وهذا الفقه المقلوب ما كفله انه فعل بالأحباب ما لا تفعله الكلاب حتى لا يقول لا واخذ الله من أهوى بجفوته ويمزج رقة شعره بقسوته فهو في الخفة والطيش وقتل المحبوب لا في أيش ولا علي ايش فمن غلب عليه هواه كما تراه ففعل بمحبوبه ما فعل وأقام ضربه بالسيف مقام القبل :

أحبابه لم تفعلون بقلبه ما ليس تفعله به اعداؤه

وقد أثبتت هذه الرسالة بكمالها في الباب الأول من كتابي مرآة العقول .

ومما ينخرط في سلك هذه الحكاية ما حكاه الشيخ أثير الدين أبو حيان في تفسيره عند قوله تعالى يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك ونقل عن العزيز أنه كان قليل الغيرة وتربة اقليم مصر اقتضت هذا يعني قلة الغيرة ثم قال وان هذا مما جرى لبعض ملوك بلادنا وهو أنه كان مع ندمائه المختصين به في مجلس أنسه وجاريته تغني من وراء الستارة فاستعاد بعض جلسائه بيتين من الجارية وكانت قد غنت بهما فما لبث حتى أتى برأس الجارية مقطوعاً في طشت وقال له الملك استعد من هذا الرأس فسقط ذلك الرجل المستعيد ومرض مدة حياة ذلك الملك .

(قلت) لو مات كان معذوراً فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ومثل هذا ايضاً ما فعله جعفر بن سليمان وذلك انه لما اشترى جاريته الزرقاء وكانت جارية نفيسة غالية الثمن وهي بثمانين الف درهم وكانت من الفتيات الحسان ذوات الألحان فقال لها يوماً هل ظفر منك أحد ممن كان يهواك بخلوة أو بقبلة فخشيت أن يبلغه شيء كانت فعلته بحضرة جماعة أو يكون قد بلغه

فقالت : لا والله الا يزيد بن عون العبادي قبلني وقذف في لؤلؤة بعثها بثلاثين الف درهم فلم يزل جعفر يطلبه ويحتال له حتى وقـع في يده فضربه بالسياط حتى مات :

(قلت) :

قد استراح والله من هذا الصداع كله

وانشد عبـد المحسن الصوري

حيث قال في عدم الغيره على محبوبه :

تعلقته سكران من خمره الصبا | به غفـلة عن لوعتي ونحيبي
وشاركني في حبه كل ماجـد | يشاركني في مهجتي بنصيب
فلا تلزموني غيرة ما ألفتهـا | فإن حبيبي من احب حبيبي

وقد بالغ الآخر فقال يتبجج بالقيادة :

أقود بحمد الله لا عن كراهة | وغيري قواد على رغم أنفه

وما أحسن قول أبي الحسين الجزار :

قلت لما سكب الساقي | على الأرض الشرابا
غيرة مني عليه | ليتني كنت ترابا

وقال نورالدين الأشعري واحسن ما شاء :

تميل الريح بالأغصان لطفا | كما مالت بشاربها العقار
وتجمع بينهم من بعد بعد | وأوراق الغصون لها ازار
وتخفق غيرة عند التلاقي | فهل أبصرت قواداً يغار

الباب السابع

في افشاء السرّ والكتمان عند عدم الامكان

أقول هذا باب عقدناه لذكر إفشاء السر وضده وهزل كل منهما وجده إذ للمحبين فيهما مذهبان فمنهم من أباح إباحته ورأى في افشائه راحته ومنهم من رأى كتمانه من الديانة فحلّ من مراتب الحب في أعز مكانة حيث قال :

باح مجنون عامر بهواه ... وكتمت الهوى فمت بوجدي
فإذا كان في القيامة نودي ... من قتيل الهوى تقدمت وحدي

نعم من الناس من كتمه فأراه كتمانه عدمه ومنهم من أفشاه فوقع فيما يخشاه ولكل من المذهبين شاهد وبحر دمع زائد لا ينجو غريقه ولا تسلك طريقه فالعاشق منهما بين داءين كلاهما الأخطر وسيفين لا بد من قتله باحدهما على الصحيح الأشهر كما قال شهاب الدين السهروردي :

وارحمتا للعاشقين تحملوا ... سر المحبة والهوى فضاح
بالسرّ ان باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماء العاشقين تباح
واذا هم كتموا تحدث عنهم ... عند الوشاة المدمع السفاح

والذي أراه في ذلك كله وتمييز وأبله من طله ان المحب اذا علم من محبوبه

الوفاء وعدم الجفاء فالواجب عليه إفشاء السر الى الحبيب وابداء العلة الى الطبيب كما قيل :

وبح بالسرائر في أهلها   وإياك في غيرهم ان تبوحا

وقد ظرف أبو جعفر الشطرنجي حيث قال :

قل لمن شئت انني بك مغرم   ثم دعه يروضه إبليس

وقد قال بعض من مارس الحب وجلب أشطره إفشاء المحب سره الى المحبوب وشكوى ما يقاسيه طرف من السحر .

(قلت) :

بل هو السحر كلة ومعظمة وجله وقد عرف ذلك من جربه وأدّبه الحب وهذبه .

وعلى هذا حكاية احمد بن واصل قال لما كلفت عباسة بنت المهدي بجعفر بعد أن زوجه بها الرشيد وشرط عليه أن لا يقربها وأشتد وجدها به وعشقها له ولم يطاوعها على ما أحبت وخاف على نفسه من الرشيد أن يظهر أمرها فكتبت له .

عزمت على قلبي بأن يكتم الهوى   فصاح ونادى انني غير فاء
فان لم تصلني بحت بالسر عنوة   وان عنقتني في هواك عواذلي
وإن كان موت لا أموت بغصتي   وأقررت قبل الموت انك قاتلي

فنالت منه ما أرادت وهل حصل لها ذلك إلا بإفشاء سرها وشكوى ضرها .

وقال ابن شاذان الكاتب : قالت لي عريب جارية المأمون كنت مع الواثق وهو يطوف على حجر جواريه عند خروجه الى الأنبار متنزهاً فدخل على فريدة جاريته وكان يحبها جداً وكان ايضاً يهوي وصيفة لها ولم يكن يعلم ذلك غيري فلما رأته عند مولاتها دخلت خزانتها وقامت على رأسها وعليها عصابة مكتوب

عليها بالذهب هذان البيتان :

عيني تبكي حذر البين ما أسخن الفرقة للعين
لم أر في الحب ولوعاته أوجع من فرقة الفين

فقال لي الواثق فهمت يا عريب فقلت : نعم يا سيدي فكتب على الأرض بقضيب في يده :

ظهر الهوى وتهتكت استاره والحب خير سبيله اظهاره
فاعص العواذل في هواك مجاهرا فألذ عيش المستهام جهاره

فحفظت الأبيات وتضاحكا ففطنت فريدة فقالت : يا سيدي علمت ما أنتما فيه فأمنن على أمتك بقبولها فقال الواثق قد فعلت خديها اليك يا عريب فأخذت بيدها فما ملك نفسه حتى انصرف من خلفي مسرعاً فخلا بها وأمرني بألف دينار .

ومنهم من لايجري ذكر العشق على لسانه البتة ويسكت حتى كان به السكتة ولم أر في ذلك مما يتنافس فيه المتنافس أحسن من قول ابن قلاقس :

كتمت الهوى عند العواذل ضنة عليهم بمن أصبو اليه وأهواه
ولو قلت اني عاشق فطفوا به لعلمهم ان ليس يعشق إلا هو
ومنهم من يبوء باثمه ويرى التصريح باسمه
فبح باسم من تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

(وقال) ابراهيم بن عبدالله :

رأيت على خد جارية مكتوباً بالغالية
كل يوم أذوب من ألم الشوق وقلبي من الصدود قريح
لم أجد خلوة اليك فأشكو ما بقلبي لعله يستريح
ويح قلبي كأنه لحدّ قبر ضم أعضاء ميت فيه روح

وفي البيت الثاني من هذه الأبيات تنبيه على إفشاء السر الى الحبيب لا يكون إلا خلوة فينبغي ان لا يعلم به خلاً ولا صديقاً ما وجد الى ذلك طريقاً كما قيل:

يا موقد النار إلهاباً على كبدي　　　إليك أشكو الذي بي لا إلى احد
إليك أشكو الذي بي من هواك فقد　　　طلبت غيرك للشكوى فلم أجد

وقال الأحوص :

لعمرك ما استودعت سري وسرها　　　سوانا حذاراً أن تضيع السرائر

(ومن ظريف) ما مرّ بي في هذا الباب ان بعض العشاق أنشد يوماً محبوبته قول الشاعر :

سري وسرك لم يشعر به أحد　　　إلا الإله ولا أنت ثم أنا

فقالت له لا تنس القوّادة فإنها لا بد أن تدري بسرنا وتطلع على أمرنا .

ومن أحسن ما سمعته في ذم مفشي السر قول الحسين بن بشر .

لحي الله امرأ اوعاك سراً　　　لتكتمه وفض الله فاه
فإنك بالذي استوعبت منه　　　أنم من الزجاج بما حواه

قلت وما يبعد أن يكون المتصف بهذه الصفة من ذرية القائل :

وما اكتم الأسرار لكن أنمها　　　ولا أترك الأسرار تغلي على قلبي
فإن قليل العقل من بات ليله　　　تقلبه الأسرار جنباً على جنب

وأين هذا من قول القائل :

وقائلة ما بال جسمك لا يرى　　　سقيماً وأجسام المحبين تسقم
فقلت لها قلبي بحبك لم يبح　　　لجسمي فجسمي بالهوى ليس يعلم

ويحكى أن سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم مرّت في جواريها بعروة بن أذينة وهو يغني فقالت لجواريها : مَن الشيخ . فقلن : عروة. فمالت نحوه . فقالت : يا أبا تمام انك تزعم لم انك تعشق قط كيف وانت تقول :

قالت : وابثثتها سري فبحت به .

قد كنت عندي تحب الستر فاستتر الستر تبصر من حولي فقلت لها : غطى هواك وما ألقى على بصري وقالت :

كل ما ترى حولي من الجوار احراران كان ٨٧ هذا الكلام خراج عن قلب سليم قط (حكي) عن احمد بن ابي عثمان الكاتب انه صديقاً لأبي الفضل عبد الغفار الانصاري فعشق احمد جارية لأم جعفر اسمها نعمي وهام بها فأطلعة على سرّه ووصفها له فعشقها عبد الغفار الانصارى فأعتل علة طويلة فأتصل خبره بام جعفر وظنت ان به علة فوجهت إليه طبيباً فأنشد :

ارسلت أم جعفر لي طبيباً	لشكائي فضل علم الطبيب
ودوائي واصل دائي لديها	في يدي شادن غرير ربيب
خبروها بان نعمي دوائي	كي تداوي مريضها عن قريب

فسمعت أم جعفر الآبيات وسألت عن قصته فلما وقفت عليها وهبته الجارية وهجر احمد عبد الغفار وقال جعلتك موضعاً لسري فأفسدت عليّ والمفاسد المترتبة على افشاء السر الى الغيرة كثيره ولهذا قال ابو العلاء المعري :

فظن بسائر الاخوان شراً	ولا تأمن على فؤاداً

وقال الصاحب محي الدين الجزري من رسالة فواعجباً كيف لا يتفطن من لا اسمية ولا ينشق لكثرة ما احوم حول القول فيه ولا اوفيه ان شرحت فاضت نفوس فضلاً عن عيون وترامت إلى مهاوي الاثم الظنون ولو ابديت بعضه أخاف ان يفطن الناس وأن افضت فيه أخشى ان لا يسعه قرطاس .

(ومن أحسن ما سمعه في كتمان السر قول النابغة) .

وكان الامام علي رضي الله عنه يتمثل به وهو :

لا تفش سرك لا إليك	فان لكل نصيح نصيحاً
فأني رأيت وشاه الرجال	لا يتركون اديماً صحيحاً

وكتب بها عبد الملك بن مروان الى الحجاج وكان قد استكتمه أمراً في كتاب كتبه إليه فظهر وقال عمرو بن العاص ما استودعت أحداً سراً فأفشاه فلمته لأني كنت اضيق منه صدرا به حين استودعته أخذه الشاعر فقال:

اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذي يستودع السر اضيق

(وقال آخر) :

اذا أنت لم تحفظ لنفسك سرها فسرك عند النـاس افشي واضيع

(وقال ابو جعفر الشطرنجي) :

فلا تخبر بسرّك بل امته وصير من حشاك له حجـابـاً
فما اودعت مثل النفس سراً ولا اغلقت مثل الصدر بابـاً

(وحكى) الماوردي ان عبدالله بن طاهر تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال :

ومستودعي سراً تضمنت ستره فأودعته من مستقر الحشى قبرا

فقال ابنه عبدالله وهو صبي وأحسن ما شاء .

وما السر في قلبي كثا وبحفرة لاني أرى المدفون ينتظر الحشرا
ولكنني أخفيه حتى كأنني من الدهر يوماً ما احطت به خبرا

(وقال آخر) :

يا ذا الذي أودعني سره لا ترج ان تسمعه مني
لم أجره بعدك في خاطري كأنه ما مرّ في أذني

(وقال بشار) :

لاخرجن من الدنيا وحبكم بين الجوانح لم يعلم به احد

(وقال طلحة بن ابي بكر) :

لا تظهرن محبة لحبيب فترى بعينيك منه كل عجيب
أظهرت يوماً للحبيب مودتي فأخذت من هجرانه بنصيب

قيل أسر رجل الى رجل حديثاً فلما فرغ قال : أحفظته . قال : بل نسيته وقال ابن المعتز كلما كثرت خزان الأسرار زاد ضياعاً ومن كلام الحكماء احفظ ذهبك كما تكتم مذهبك ومنها مقتل الرجل بين فكيه . ومن كلام القاضي الفاضل وأمت الأسرار في قلبك والحد موتاها في جنبك فقبيح بك ان يرى لك سر إلا ربك . (ووصف اعرابي قوماً) فقال : سيوفهم آفات الأعمار وصدورهم قبور الاسرار وما أحسن قول ابن مماتي من ابيات :

وضاق عليّ السجن حتى كأنني　　حللت به للضيق في صدر محنق
فياليتني كالدمع في جفن عاشق　　فاخرج أو كالسر في صدر أحمق

(وقال العباس بن الأحنف) .

باح دمعي فليس يكتم سراً　　ووجدت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي　　فاستدلوا عليـه بالعنوان

الباب الثامن

في مغالطة الحبيب واستعطافه وتلافي غيظه وانحرافه

أقول هذا باب عقدناه لذكر مغالطة الحبيب في نفســه والحاق يومه بأمسه وهو من أعظم الأبواب حشوه واكثرها رشوه وأحسنها اختراعاً واكثرهاخداعاً وأبلغها حطابة وأكثرها إصابة وسنورد من ذلك ما يعذب ايراده ويحسن عند أهل الانشاء انشاده ليعلموا ان الأديب على الحبيب يحتال ويجارى برقة الفاظه الجريال فمن ذلك وهو من احسن ما سمعته في مغالطة الحبيب :

قم بنا يا نور عيني ⁂ نجعل الشك يقينا
فإلى كم يا حبيبي ⁂ يأثم القاتل فينـــا

(ومثله قول الآخر) :

ما أنس لا أنس قولها بمنى ⁂ ويحك ان الوشاة قد عملوا
ونمّ واش بنا فقلت لها : ⁂ هل لكِ يا هند في الذي زعموا
قالت لماذا ترى فقلت لها : ⁂ كي لا تضيع الظنون والتهم

(وقال العباس بن الأحنف) :

كان لم يكن بيني وبينكم هوى ⁂ ولم يك موصولا بحبلكم حبلي
واني لاستحي لكم من محدث ⁂ يحدث عنكم بالملالـــة والمطل

(وقال آخر) :

نسبت الى ذنب ولم آك مذنباً | وحملتني في الحب ما لا أطيقه
وما طلبي للوصل حرصاً على البقا | ولكنه أجر إليك أسوقـــه

(قلت) :

ما يرضى يروح سواء بسواء | حتى يسوق اليه الأجر ايضاً

(ومما قلته أنا في هذا المعنى) :

لم أطلب الوصل من أجلي فديتك يا | من زاد حظي سواداً منه شامات
لكن خشيت بأن تبلى بعشق رشا | يقتص لي منك والدنيا مكافات

(وقال آخر) :

قد أكثر الناس أنواع الحديث بنا | وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فكاذب قد رمى بالظن غيركم | وصادق ليس يدري انه صدقا

(وقال آخر) :

يا سيدي عندك لي مظلمه | فاستفت فيها ابن ابي خيثمه
فانــه يرويه عــن جــده | وجده يرويه عن عكرمه
عن ابن عباس عن المصطفى | نبينا المبعوث بالمرحمــه
ان انقطاع الخل عن خله | فوق ثلاث ربنــا حرمــه
وأنت مذ شهر لنا هاجر | أما تخاف الله فينا فمه

(وقال جميل) :

وماذا عسى الواشون ان يتحدثوا | سوى ان يقولوا انني لك عاشق
نعم صدق الواشون أنت حبيبه | إليّ وان لم تصف منك الخلائق

(قلت) هكذا رأيته في غالب ما وقفت عليه من نسخ الحماسة وسمعت من أفواه أهل الأدب أعني ان قافية البيت الأول عاشق والصحيح انها وامق لان المعنى على ذلك بيانه ان الوامق المحب لغير ريبة والعاشق المحب لريبة وإذا كان ذلك

كذلك لم تصح المغالطه الا بقولـه وماذا عسي يقول الواشون سوى اني لك وامق أي محب لغير ريبة :

(وقال ابن رواحة الحموي) :

ان كان يحلو لديـك قتلي فزد من الهجر في عذابي
عسى يطيل الوقوف بيني وبينـــك الله في الحساب

(حكى) ان بعضهم أنشد شاباً كان يحبه :

ماذا تقول اذأ اجتمعنا في غد وأقول للرحمن هذا قاتلي

واقول للرحمن هذا قاتلي فقـال له الشاب أقول هـذا أراد ان . . . فما مكنته .

(وقال ابن سينا الملك) :

من رسالة وأنا والله في أمرك مغلوب والسبب أني أنا المحب وأنت المحبوب ولا أتجالد عليك . أغرك وأخون حبك ولا أتصنع عليك فأغشك . وأغم قلبك اعمل ما شئت فأنا الصابر وأقتل كيف شئت فأنا الشاكر وقـــل لي فلي سمع يعشق قولك والتفت تر آمالي ترفرف حولك فأفعل فأنت المعذور واستطل فما أنا المضرور بل المسرور وارجع الى الود الذي بيننا فكل ذنب لك مغفور :

(وقال ايضاً) :

وأنا أستعيذ بالله من ذنب يوجب عتبك ويلمـــح عذبك ويصرف قلبك ويجعلك ثاني عطفك ويغيرك على الفك :

لست على هجرك جلد القوي ولا على عتبك شاكي السلاح

(وقال ابن السوادي) الشاعر المشهور :

أشكو إليك ومن صدودك أشتكي وأظن من شغفي بأنك منصفي
وأصد عنك مخافة من أن يرى منك الصدود فيشتفي من يشتفي

(وحكى القاضي) :

ابو عمر محمد بن يوسف الازدي قال كنت أساير أبا بكر محمد بن داود الاصفهاني ببغداد واذا بجارية تغنى من شعر :

أشكو إليك فؤاد أنت متلفة — شكوى عليل ان الف يعلله
سقم يزيد على الايام كثرته — وأنت في عظم ما ألقى تقلله
الله حرم قتلى في الهوى سفها — وأنت يا قاتلي ظلما تحلله

فقال محمد بن داود كيف السبيل الى استرجاع هذا فقلت له هيهات سارت به الركبان :

(وقال أبو عبدالله) :

قلبي عليك أرق من خديكا — وقواي أوهى من قوى جفنيكا
لم لا ترق لمن تعذب قلبه — ظلماً ويعطفه هواه عليكا

(وقال ناصر الدين بن النقيب) :

لقد وجبت عليك زكاة حسن — وفيه كمثل ما في المال حق
فلا تعدل به عني فاني — لمصرفه الفقير المستحق

(وقال القاضي) شمس الدين بن خلكان رحمه الله من قصيدة :

لو لم أكن في رتبة أرعى لها — العهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت ستري في هواك ولذلى — خلع العذار ولج فيك مؤنبي

لكن خشيت بأن تقول عواذلي قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي :

(وقال آخر) :

حججي عليك اذا خلوت كثيرة — واذا حضرت فانني مخصوم
لا استطيع اقول أنت ظلمتني — الله يعلم انني مظلوم

(وقال المكرم) :

الناس قد أثموا فينا بظنهم — وصدقوا بالذي أدرى وتدرينا
ماذا يضرك في تصديق ظنهم — بأن نحقق ما فينا يقولونا
حملى وحملك ذنباً واحدا ثقة — بالعفو أجمل من اثم الورى فينا

(وقال المتنبي) :

زوّدينا من حسن وجهك ما دا م فحسن الوجوه حال يحول
وصلينا بوصلك الآن في الدنيا فإن المقام فيها قليل

(أقول) :

هذا البيت الأخير حسن في بابه فيما يتعلق بمغالطة الحبيب واستعطافه وأما الاول ففيه تنفير فليته أراح واستراح وترك التهكم بالوجوه الملاح على ان التلعفري اقتدى به في التهكم بأحبابه :

(فقال ذو بيت) :

يا تارك ربع الصبر مني مهدوم ما ان يرى لغائب الوصل قدوم
صف ربك في العشاق وارفق بهم ولا تحسب ان دولة الحسن تدوم

الباب التاسع

في الرسل والرسائل والتلطف في الوسائل

أقول هذا باب عقدنا لذكر مراسله الأحباب وشكوى الجوى في الجواب وهو باب مطروق نافق السوق طالما عرض فيه المحب على الرسول سلعة النحول لاسيما من عيل صبره وأشتهر أمره فأصبح وهو في البيت طريح واستعمل في مراسلة الحبيب حتى الريح كما قيل :

فيا نسيم الصبا أنت الرسول له والله يعلم اني منك غيران
بلغ سلامي الى من لا أكلمه اني على ذلك الغضبان غضبان
لا يا رسول لا تذكر له غضبي فذاك مني تمويه وبهتان
وكيف أغضب لا والله لاغضب اني لما رام من قتلي تفرحان
أكل يوم لنا رسل مرددة وكل يوم لنا في العتب ألوان
أستخدم الريح في حمل السلام لكم كأنما أنا في عصري سليمان

فهو من الهوى على شطر ومن اقامة الهجر على سفر لا يقر له قرار ولا يصلي لوجنة محبوبه بنار لا جرم انه يتعلل بالنسيم العليل ويقول لاستنشاق اليسير منه قليلك لا يقال له قليل .

(ومن أحسن ما سمعته في هذا الباب) قول الواوا الدمشقي :

بالله ربكما عوجا على سكنى وعاتباه لعل العتب يعطفه
وحدثاه وقولاً في حديثكما ما بال عبدك بالهجران تتلفه

فأن تبسم قولاً في ملاطفة ... ما ضر لو بوصال منك تسعفه
وأن بدا لكمافي وجهه غضب ... فغالطاه وقولا ليس نعرفه

(أخذه) :

من قول عمر بن ابي ربيعة من أبيات يصف بها قوادة :

فأتتها طبة عالمة ... تمزج الجد مرارا باللعب
تغلظ القول اذا لانت لها ... وترخى عند سورات الغضب

قيل ان ابن عتيق قال لعمر لما سمع قوله هذا ما احوج المسلمين إلى خليفة يدبر أمرهم مثل قوادتك هذه .

(ومثل قول الواو قول الآخر) :

ألا يا نسيم الريح بلغ رسالتي ... سليمي وعوّض بي كأنك مازح
وأن أعرضت عني فموه مغالطا ... بغيري وقل ناحت عليه النوائح

(وقول الآخر دوبيت) :

باللطف اذا لقيت من أهواه ... عاتبه وقل له الذي ألقاه
أن أغضبه الوصال غالطه به ... أورق فقل عبدك لا تنساه

(وقال ابو فراس) :

هبت لنا ريح شمالية ... متت الى القلب بأسباب
أدّت رسالات الهوى بيننا ... عرفتها من بين أصحابي

(وكان) الصاحب بن عباد رحمه الله اذا سمع هذين البيتين ترمخ لهما وقد عقدت للنسيم بابا مستقلاً في كتابي سلوك السنن في وصف السكن وذكرت فيه أشياء تليق بهذا الباب منها قول امين الدين ابن عطايا :

أنا أهوى غصن النقا وهؤلاء ... وفؤادي بحبه في التيه
يا نسيم الصبا ترفق عليه ... وتلطف به ولا تؤذيه
وتحمل رسالة ليس الا ... ك امينا في حملها ارتضيه

وإذا لم يكن رسولي نسيماً نحو غصن النقا فمن يثنيه

(وقال ابن الخياط الدمشقي) :

يا نسيم الصبا الولوع بوجدي حبذا أنت لو مررت بهند

ولقد رابني شداك فبالله متى عهده باطلال نجد .

(وقال مهيار الديلمي) :

حملوا ريح الصبا نشركم قبل ان تحمل شيحاً وخزامى
وابعثوا لي في الدجى طيفكم ان اذنتم لجفوني ان تناما

(حكي) ان نور الدين علي بن سعيد المغربي صاحب المرقص والمطرب مر مع جماعة من الادباء المصريين وفيهم ابو الحسين الجزار فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة وقد هب الهوى فكشف ثيابه عنه فقال ابو الحسين الجزار قفوا لينظم كل منا في هذا شيئاً قال فما لبث ان قال نور الدين المذكور :

الريح اقود ما يكون لانها تبدي خفايا الردف والاعكان
وتميل بالاغصان عند هبوبها حتى تقبل اوجه الغدران
ولذلك العشاق يتخذونها رسلا الى الاحباب والاوطان

وقال ابو الحسين الجزار ما بقى احد منا يأتي بمثل هذا فسيروا بنا .

(وقال علي الصفار) :

اذا هب النسيم بطيب نشر طربت وقلت ايه يا رسول
سوى أني أغار لان فيه شذاك وانه مثلي عليـــل

(وكان القاضي محي الدين بن) عبد الظاهر يحب شاباً مغنياً اسمه نسيم وله فيه عدة مقاطيع منها قوله :

ان كانت العشاق من أشواقهم جعلوا النسيم إلى الحبيب رسولا
فأنا الذي أتلوهم ياليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا .

(فقلت) :

أنا كأني حاضر اخاطبه مضمناً .

ان كنت في عشق النسيم متيماً وزعمت ان هواء ليس بمتلف
فأنا أقول لمن تحرش بالهوى عرضت نفسك للبلا فاستهدف

وقال القاضي محي الدين ايضاً في محبوبه النسيم :

يا من غدا لي من عـــوا صف هجرة الريـــح العقيم
أترى يطبب لي الهـوى ويقـــال قدرق النسيم

(وقلت أنا كأني حاضراً خاطبة) :

بالله ان رق النسيم وأخمدت نارتؤججها يد التبريح
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ودع العدول وقوله في الريح

(وقال القاضي محي الدين ايضاً) :

شكر النسمة أرضكم كم بلغت عني تحية
ولكم أطالت بل أطا بت في رسائلها الذكية
لا غروان حفظت أحا ديث الهوى فهي الذكية

(أخذه) صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي من أهل العصر فقال :

يا طيب نشر هب لي من أرضكم فأثار كامن لوعتي وتهتكي
اهدي تحيتكم وأشبه لطفكم وروى شذاكم ان ذا ريح ذكي

فقلت أنا لمـــا وقفت على قوله هـــذا وقول القاضي محيي الدين المتقدّم عليه :

ان ابن ايبك لم تزل سرقاته تأتي بكل قبيحة وقبيح
نسب المعاني في النسيم لنفسه جهلاً فراح كلامه في الريح

وقد ذكرت في النسيم أشياء مليحة في كتابي سلوك السنن المذكور واقتصرت منها على هذا القدر هنا خوف الاطالة ويجب أن يكون الرسول من اهل الصيانة وممن يرجع إلى ديانة لئلا يطمع فيصير خليلاً بعد ان كان رسولاً كما اتفق لرسول ابن سناء الملك الذي قال فيه :

راح رسولا وجاءني عاشق وعاقه عن رسالتي عائق

وعادلاً بالجواب بل بجوى أخرسه والهوى به ناطق

(وقال آخر) :

رجع الرسول اليّ وبمو متيم ولهذا قال ابن الأثير ليس على الحسن أمانة وفي مثله تعذر الخيانة .

(وقال المتنبي) :

ما لنا كلنــا جو يا رسول أنا أهوى وقلبك المتبول
وكلما عاد من بعثت إليها غارمني وخان فيما يقول
أفسدت بيننا الأمانات عينا هاوخانت قلوبهن العقول

يستريح أي عيناها بسحرها أفسدت أمانة الرسول في الرسالة وخانت قلوبها أي فارقت العقول القلوب بسببها قال الارجاني :

قسماً لقد رجع النسيم عليلا لما سرى مني اليــك رسولاً
ودرى بحبك أنه قد خانني فغـدا يجرّ من الحياة ذيولا

ومن أحسن ما سمعته في الرسائل والتلطف في الوسائل ما حكى عن الملك عبد العزيز بن السلطان صلاح الدين انه كان في أيام أبيه أحب قينة وشغف بها فبلغ صلاح الدين فمنعه من صحبتها ومنعها منه فحزن ولم يمكنــه أن يجتمع بها ومضى على ذلك مدة أيام فسيرت إليه مع خـادم كرة عنبر فكسرها فوجد فيها زر ذهب فلم يفهم مرادها بذلك وجاءه القاضي الفاضل فعرفه الصورة فقال في الحال :

أهدت لك العنبر في وسطه زر من التبر رقيق اللحام
فالزر من العنبر تفسيره زر هكذا مستتراً في الظلام

وقال علاء الدين المغربي من رسالة النير ين وهي من المحب الكئيب الى حبيب الحبيب افتتحها بقوله يقبل الأرض وينهي بين يــدي المالك الرحيم سلطان الملاح وليث الكفاح منها :

ذهب النيل وعادا   وغرامي يتمادى
كلما قلت غدا ينـ   ـقص بعض الوجد زادا
كل قلب غير قلبي   نال في الحب المرادا
وأنا المسكين وحدي   نلت في الصحب العنادا

(قال الراوي) ثم ان علاء الدين قال وانا المسكين وحدي بلت في صحن القطائف وعملت الخل ناطف وصلبت إبليس بدقته وتركته ينخفض ويصفق ويغني تللاله :

يا عوينات الغزاله رحم الله من قتلني   وأي فخر في قتل مثلي

وهل انا الاشويعر مخارف مسخرة قد جعل رسائله وسائله وقصائده مصايده يستحلب ضرع الضراعة ويميط قناع القناعة ان جاع أكل من تقطيع الأعاريض وان عطش شرب من بحور القريض في زمان لا فرق فيه عند أهله بين القادح والمادح والصائح والنائح :

قد ذقت منه ما ليس يقلعه   ابو الحسين القلاع من ضرسي

بل أي شيء احسن من خشفين مترفين اليفين يتراضعان ثدى الصحبة ويتراشفان كأس المحبة ويقتطفان ثمر الوصال ويتسالمان انواع الدلال ويتواصفان لواعج الغرام ويتباسطان مباسطة الحمام ولا يحضرهما غير مزاح ومراح ولا يلثمها غير كأس راح :

اثنان كالفرد من طول اعتناقهما

باتا بليل حميد غير مذموم يسفران عن نيرين ويبتسمان عن درين ويتسارقان النظر بلواحظ جؤذرين كأنهما اقتسما فنون الحسن والاحسان بفكتي الميزان ان تناقلا بعتاب او تراسلا بكتاب قدر منثور وسحر غير محظور وان تسابقا في ميدان الهوى او تراشقا بسهام الجوى فالواترموتور والساحر محسور وهي رسالة

لطيفة ظريفة كلها من هذا النوع اقتصرت منها على هذا القدر الاطالة وقد ذكرتها بكمالها في الجزء الثاني من حاطب ليل وقلت انا مما كتبته الى بعض الأصحاب .

كتبت اليكم والسطور حروفها ... بها اعين ترنوا لكم وترمق
ولي قلم امسى لرطب لسانه ... سلام مشوق قد براه التشوق

الباب العاشر

في الاحتيال على طيف الخيال وغير ذلك مما قيل فيه على اختلاف معانيه

اقول هذا باب عقدناه لذكر طيف الخيال الزائر وما قيل في سيره من الممثل السائر الحلوب إذ للشعراء في اقتناصة تحيل وحسن تحيل طالما أكثروا منذكره واستخرجوه منوكره فقربوا عليه بعد المسافة ولم يعافوا الحاق زجره بالعيافة. ومن المشهورين فيه بالاجادة أبو عباده وغيره كأبن النقيب المنحيل على اصطياد خيال الحبيب :

حيث قال وأحسن في المقال نصبت جفوني للخيال حبائلا
لعل خيالاً في الكرى منه يسنح وكيف اذا اغمضتهن اصيده

ومن عادة الاشراك للصيد تفتح وما احسن قول الشيح جمال الدين ابن نباتة في التورية .

ومولع بفخاخ يمدّها وشباك
قالت لي العين ماذا يصيد قلت كراك

(وقلت ايضاً) :

واقسم لو جاد الخيال بزورة لصادف باب الجفن بالتفح مقفلا
(وقال ابو محمد) عبدالله السروجي وأحسن ما شاء :

انعم بوصلك فهذا وقته يكفي من الهجران ما قد ذقته
انفقت عمري في هواك وليتني اعطي وصولاً بالذي أنفقه
يا من شغلت بحبه من غيره وسلوت كل الناس حين عشقته
أنت الذي جمع المحاسن وجهه لكن عليه تصبري فرقته
كم جال في ميدان حبك فارس بالصبر مني في هواك سبقته
قال الوشاة قد ادعى بك نسبة فسررت لما قلت قد صدقته
بالله ان سألوك عني قل لهم عبدي وملك يدي وما اعتقته
أو قيل مشتاق إليك فقل لهم أدرى بذا وأنا الذي شوقته
ياحسن طيف من خيالك زارني من فرحتي بلقاه ما حققته
فمضى وفي قلبي عليه حسرة لو كان يمكنني الرقاد لحقته

(وقال ابو تمام) :

زار الخيال لها لا بل أزار له فكرا اذا نام فكر الناس لم ينم
ظبي تقنصته لما نصبت له من آخر الليل اشراكاً من الحلم

(وقال أيضاً) :

يا لها لذة تنزّهت الارواح فيها سراً من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب غيرانا في دعوة الأحلام

(وقال البحتري) :

وهو من المكثرين في وصف الخيال المجيدين فيه ، لكثرة ولوعه به واشتهاره ضرب به المثل .

فقيل خيال البحتري (ومن ذلك قوله) :

اذا ما الكرى أهدى الى خيالها شفى قربه التبريح اونقع الصدى
اذا انتزعته من يدىّ انتباهة ظننت حبيباً راح مني أو عدا
فلم أر مثلينا ولا مثل شأننا نعذب ايقاظاً وننعم هجداً

(وقوله) :

ولم أنس اسعاف الكرى بدنوها وزورتها بعد الهدوّ وما تدري
إذا الليل أعطانا من الوصل يلفة ثنتنا تباشير الصباح الى الهجر

(وقوله ايضاً) :

بعثت طيفها الى ودوني سير شهرين للمهاري العتاق
زارو هنا من الشام فحيا مستهاماً صبا بأرض العراق
فقضى ما قضى وعاد اليها والدجى في برودِه الاخلاق

(وقوله) :

وليلة هومنا على العيش ارسلت بطيف خيال يشبه الحق باطله
فلولا بياض الصبح طال تشبثي بعطفي غزال بت وهنا أغازله
فكم من يد لليل عندي حميدة وللصبح من خطب تذم غوائله

(وقال عبد الصمد بن المعدل) :

واصل النوم بيننا بعد هجر فاجتمعنا ونحن مفترقان
غير ان الأرواح خافت رقيباً فطوت سرّها عن الأبدان
منظر كان لذة القلب إلا انه منظر بغير عيان

قال المرتضى هذه الأبيات تروي للحميدوني وهي كثيرة من مثله ودخل ابن القطان الشاعر البغدادي يوماً على .

الوزير الزيني وعنده الحيص بيص فقال قد عملت بيتين لا يمكن ان يعمل لهما ثالث لانني قد استوفيت المعنى فيهما :

فقال الوزير وما هما فأنشد :

زار الخيال بخيلا مثل مرسله فما شفاني منه الضيم والقبل
ما زارني قط الا كي يوافقني على الرقاد فينفيه ويرتحل

فقال الوزير للحيص بيض ما تقول في دعواه فقال ان اعادهما سمع لهما ثالثاً فأعادهما فقال الحيص بيص :

وما درى ان نومي حيلة نصبت لطيفة حين اعيا اليقظة الحيل

(وقال آخر) :

ألارب طيف منك بات معانقي الى أن دعا داعي الصباح محيعلا

وأول من وصف الطيف عمرو بن قمئة فيما حكاه المرتضى في كتاب الطيف والخيال فقال :

نأتك امامة إلا سؤالا والا خيالا يوافي خيالا
خيال يخيل لي نيلها ولو قدرت لم تخيل نوالا

وأول من طرد الطيف طرفة بن العبد حيث قال :

فقل لخيال الحنظلية ينقلب إليها فاني واصل سبل من وصل

(وتبعه جرير فقال) :

طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذاوقت الزيارة فأرجعي بسلام وأعجب من جرير في طرد الخيال الراعي حيث هجاه فقال :

طاف الخيال بأصحابي فقلت لهم أتلك ليلى أتت ليلا أم الغول

وقد رد على جرير مولانا قاضي القضاة تاج الدين بن السبكي وأحسن ما شاء حيث قال :

يا ليت شعري هل احب جرير اذ أبدى اعتذاره
ان كان يصدق حبه فالقلب منه كالحجارة
لا بل اشد قساوة فانظر له ابدى عراره
إذ قال قولاً لم يقله عاشق أود وجساره
طرقتك صائدة الفؤاد وليس ذاوقت الزيارة

(وقال في الرد عليه أيضاً) :

هذا مقالك يا جرير لدى اشنع ما يقال
هل ثم وقت ليس يصلح للزيارة والوصال
أم قيل قبلك فارجعي ولذاك ذنب لا يقال
أم كان حبك كاذبـاً فمنامه ينفي الخيـال
أم كان قلبك من حد يد ليس تؤذيه النبال

(وقلت أنا) :

واخجلتا لك يا جر ير في المحافل والمشاهد
طرقتك صائدة الفؤاد فكنت صبا غير صائد
فرددت طيف خيالها هذا خيال منك فاسد
ألطيف أعشق منك إذ وافى اليك وانت راقد
لا عاد مثلك ما بقى في الناس للعشاق عائد

(وقلت ايضاً من قصيدة) :

يطالبني قلبي به فكأنني غريم وقلبي في تقاضيه مغرم
ولي منه في ليل الكرى ونهاره خيال ملم أو حبيب مسلم

(وقال شمس الدين محمد بن العفيف التلمساني) :

يا حبذا طيفك من قادم يا أحسن العالم في العـالم
طيف تجلى نوره ساطعاً حتى رأته مقـلة النائم
يا غائباً يحكم في مهجتي عليّ طالت غيبة الحاكم
عار على حسنك أن يشتـ ـكي حظي منه انه ظالمي

وقد أحسن التهامي في تفضيل الخيال على الحقيقة حيث قال :

وصل الخيال ووصل الخودان بخلت سيان ما أشبه الوجدان بالعدم
ألطيف أحسن وصلا ان لذته تخلو من الاثم والتنغيص والنـدم

وقد بلغ النهاية في اللطف كشاجم حيث اعتذر على لسان الحبيب عن تأخر الخيال فقال :

لقد بخلت حتى بطيف مسلم ... عليّ وقالت رحمة لحبيبي
أخاف على طيفي إذا جاء طارقا ... وسادك ان يلقاه طيف رقيبي

وما أحسن ايضاً اعتذار المغربي وقد ضمنه ابن عنين و كتب به من اليمن الى أخيه بدمشق :

سامحت كتبك في القطيعة عالماً ... أن الصحيفه اعوزت من حامل
وعذرت طيفك في الجفاء لانه ... يسرى فيصبح دوننا بمراحل

(وقال آخر) :

وزارني طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت اوقظ من حولي به فرحا ... وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تخيبني ... نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

(وقال ابن المعتز) :

أبصرته في المنام معتذراً ... الى مما جناه يقظانا
ولان حتى إذا هممت به ... وجدته عند الصبح لا كانا

(قيل) من نكد الدنيا ان الانسان يرى في منامه انه شم طيباً أو واصل حبيباً أو نال عزاً أو وجد كنزاً فاذا انتبه لم يرَ من ذلك شيئاً وربما رأى انه قد احدث فاذا انتبه رأى ذلك يقيناً في ثيابه كما قيل فيه :

أرى في منامي كل شيء يسرني ... ورؤياي بعد النوم أدهى واقبح
فإن كان خيراً فهو اضغاث حالم ... وان كان شراً جاءني قبل اصبح

(وقال المعري) :

الى الله اشكو انني كل ليله ... إذا نمت لم اعدم خواطر أوهام
فان كان شراً فهو لاشك واقع ... وان خيراً فهو أضغاث احلام

(وما احسن قول ابن التلميذ) :

عاتبت اذ لم يزر خيالك في النوم   فشوقي اليك مسلوب
فزارني منعماً وعاتبني   كما يقال المنام مقلوب

(وقال ابن الأحنف) :

واحلم في المنام بكل خير   فأصبح لا أراه ولا يراني
ولو أبصرت شراً في منامي   لقيت الشر من قبل الآذان

(وما اظرف قول ابن المعتز) :

ألم الخيال بلا حمده   وابدلني الوصل من صده
وكم نومة لي قوّاده   أتت بالحبيب على بعده

(ومثله قول الآخر) :

تركت هجا ابليس ثم مدحته   وذاك الأمر عز عندي سلوكه
يقرب من أهواه حينا فان أبى   حكاه خيالاً في الكرى فأ ...

(وقال بعض مشايخ العصر) :

لو ان طيفك في المنام جليسي   ما بت اشكو لوعتي ورسيسي
قمر أدار عليّ خمرة ريقه   ولحاظه وحديثه المانوس
ما عمدتي في قربه وحضوره   ووفائه الا على ابليس

وما أحسن قول القاضي الفاضل رحمه الله هذا على أن الطيف لا أعتدّ له بمنة وان ركب المجاهل وقطع المراحل وتخطى اليّ اغصان القنا وخاض جداول الظبا ووطىء شوك النصال وعثر بحبال الخيال ودنا واعين الشهب حولي روان وأطراف القسى دوان وكيف أعتدله بمنة والفكر مدنية وانا يقظان ويمثل مالم يكن من قربه كما مثلت العيون منه ما كان (حكي) عن بعض المغفلين انه تعب في تحصيل امرأة كان يهواها مدة طويلة فلما حصلت عنده في البيت وضع رأسه ونام فقالت له لأي شيء فعلت هذا . فقال : من عشقي فيك أنام لعلي أرى خيالك في النوم . (وحكي) عن بعض البخلاء انه قال لمحبوبته وضعت خدّي على الأرض لكي ترضي . فقالت : اعطني ديناراً حتى اخليك تضع

خدك على خدي ولقد بلغ نهاية اللطف قول القائل :

قالت لطيف خيال زارني ومضى ... بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلفته ولو مات من ظمأ ... وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت الوفا في الحب عادته ... يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

(وقول الآخر) :

فهلا منعتم اذ منعتم كلامها ... خيالا يوافينا على البعد هادياً
سقى الله أطلالا بافنية الحمى ... وان كن قد أبدين للناس حالياً

قوله فيشكل التعيين المناسب فالاضافة للتعيين وقوله وسمياً كا معطوف الخ المناسب عطفه على مزارك كا نقله عن القوت ويؤيده رواية شعباً كما ولغة الزام المثنى الألف فصيحة ا هـ .

منازل لو مرت بهن جنازتي ... لقال الصدى يا صاحبي انزلا بيا

وقال (توبة بن الحميري) :

فان تمنعوا ليلى وطيب حديثها ... فلن تمنعوا مني البكاوا لقوافيا
فهلا منعتم اذ منعتم حديثها ... خيالا يوافينا على البعد هاديا

الباب الحادي عشر

في قصر الليل وطوله وخضاب شفقه ونصوله وما في معنى ذلك

أقول هذا باب عقدناه لذكر من طال سهاد جفنه القصير فأمسى وما له إلى اسفار الصباح سفير فهو ينشد من شدة الحرق وكثرة الأرق :

يا ليل طل ولا تطل　　لا بد لي ان اسهرك
لو بات عندي قمري　　ما بت أرعى قمرك

ولم تزل العشاق تشكو من الليـــل وطوله ويصفونه بسواد الوجه عند حلوله وعذرهم في ذلك ظاهر وكيف لا وقد قال فيه الشاعر :

مات الظلام بليـــل　　أحييته حين عسعس
لو كان لليـــل صبح　　يعيش كان تنفس

(وقال شرف الدين أحمد بن منقد) :

لما رأيت النجم ساه طرفـــة　　والقطب قد ألقى عليه سبانا
وبنات نعش في الحداد سوافرا　　أيقنت أن صباحهم اقدماتا

(وقال أيضاً) :

ولرب ليل فيه تاه نجمه　　قطعته سهر افطال وعسعسا

وسألته عن صبحه فأجابني لو كان في قيد الحياة تنفسا

قلت وقبل الشروع في ايراد مقاطيع هذا الباب تذكر هنا حكاية لطيفة تتعلق بطول الليل وقصره وهى ما حكاه أبو محمد اسماعيل بن منصور الجواليفي قال وقف على والدي وهو جالس في حلقة يقرأ فيها عليه الطلبـة شاب فقال يا سيدي قد سمعت بيتين من الشعر ولم افهم معناهما .

فقال له قل فأنشد :

وصل الحبيب جنان الخلد أسكنها وهجرة النار يصلينا به النار
فالشمس بالقوس أمست وهي نازلة ان لم يزرني وبالجوزاء ان زارا

قال فلما سمعهما والدي قال له ياولدي هذا شيء من معرفة النجوم وتسييرها لا من صنعة أهل الأدب فأنصرف الشاب من غير حصول فائدة فاستحيا والدي لكونه سأل عن شيء ليس عنده منه علم وآلى على نفسه ان لا يجلس في حلقة حتى ينظر في علم النجوم ويعرف تسيير الشمس والقمر فنظر في ذلك وحصل معرفته ثم جلس وقال معنى البيت المسؤول عنه ان الشمس اذا كانت في آخر القوس كان الليل في غاية الطول لأنه يكون آخر فصل الخريف واذا كانت في آخر فصل الخريف واذا كانت في آخر الجوراء كان الليل في غاية القصر لأنه في آخر فصل الربيع فكأنه يقول اذا لم يزرني فالليل عندي في غابة الطول وان زارني كان الليل عندي في غابة القصر وقد أنصف القائل :

لا اظلم الليل ولا أدعى ان نجوم الليل ليست تسير
ليلي كما شاءت فان لم تزر طال وانزارت فليلي قصير

(وما أحسن قول الارجاني) :

وما ليلنا الاسواء وانما تفاوته انا سهرنا ونمتم

(ومن أحسن ما قيل في قصر الليل) :

قول أبي اسحق الصولي وليلة من الليالي الزهر

قابلت فيها بدرها ببدري لم تك غير شفق وفجر
حتى تولت وهي بكر الدهر

(وقال الرضي) :

يا ليله كاد من تقاصرها يعثر فيها العشـاء بالسحر

(وقال آخر) :

سألت الليل لم ولى هزيمـاً وقد بات الحبيب على اقتراحي
فقال كواكبي غارت وسارت مخامرة عليَّ الى الصبـاح

(ومن أحسن ما قيل في طول الليل قول العباس بن الأحنف) :

أيها الراقدون حولي أعينو ني على الليل واتركوا الاعتذارا
حدثوني عن النهار حديثـاً أوصفوه فقد نسيت النهارا

(وقال آخر) :

عهدي بنا وراء الليل مشتمل والليل أطول كاللمح بالبصر
والآن ليلي مذ بانوا فديتهـم ليل الضرير فصبحي غير منتظر

(وقال ابن العتارية) :

لقد ساهرتني عيون الدجى وقد نام عني عيون المـلاح
اذا ما شكا الليل هجر الصباح شكوت الى الله هجر الصباح

(وقال ابن الزقاق) :

لي مسكن شطت به غربة جادت لها عيناي بالمزن
ما أحسن الفجر ولا راقني بياضه مذ بان في الظعن
كأنما الصبح لنا بعـده عين قد ابيضت من الحزن

(وما أحسن قول القاضي الفاضل) :

بتنا على حال يسر الهوى وربما لا يمكن الشرح

وسألته عن صبحه فأجابني   لو كان في قيد الحياة تنفسا

قلت وقبل الشروع في ايراد مقاطيع هذا الباب تذكر هنا حكاية لطيفة تتعلق بطول الليل وقصره وهى ما حكاه أبو محمد اسماعيل بن منصور الجواليفي قال وقف على والدي وهو جالس في حلقة يقرأ فيها عليه الطلبـة شاب فقال يا سيدي قد سمعت بيتين من الشعر ولم افهم معناهما .

فقال له قل فأنشد :

وصل الحبيب جنان الخلد أسكنها   وهجرة النار يصلينا به النار
فالشمس بالقوس أمست وهي نازلة   ان لم يزرني وبالجوزاء ان زارا

قال فلما سمعهما والدي قال له ياولدي هذا شيء من معرفة النجوم وتسييرها لا من صنعة أهل الأدب فأنصرف الشاب من غير حصول فائدة فاستحيا والدي لكونه سأل عن شيء ليس عنده منه علم وآلى على نفسه ان لا يجلس في حلقة حتى ينظر في علم النجوم ويعرف تسيير الشمس والقمر فنظر في ذلك وحصل معرفته ثم جلس وقال معنى البيت المسؤول عنه ان الشمس اذا كانت في آخر القوس كان الليل في غاية الطول لأنه يكون آخر فصل الخريف واذا كانت في آخر فصل الخريف واذا كانت في آخر الجوراء كان الليل في غاية القصر لأنه في آخر فصل الربيع فكأنه يقول اذا لم يزرني فالليل عندي في غابة الطول وان زارني كان الليل عندي في غابة القصر وقد أنصف القائل :

لا اظلم الليل ولا أدعى   ان نجوم الليل ليست تسير
ليلي كما شاءت فان لم تزر   طال وانزارت فليلي قصير

(وما أحسن قول الارجاني) :

وما ليلنا الاسواء وانما   تفاوته انا سهرنا ونمتم

(ومن أحسن ما قيل في قصر الليل) :

قول أبي اسحق الصولي   وليلة من الليالي الزهر

قابلت فيها بدرها ببدري لم تك غير شفق وفجر
حتى تولت وهي بكر الدهر

(وقال الرضي) :

يا ليله كاد من تقاصرها يعثر فيها العشاء بالسحر

(وقال آخر) :

سألت الليل لم ولى هزيماً وقد بات الحبيب على اقتراحي
فقال كواكبي غارت وسارت مخامرة عليّ الى الصباح

(ومن أحسن ما قيل في طول الليل قول العباس بن الأحنف) :

أيها الراقدون حولي أعينو ني على الليل واتركوا الاعتذارا
حدثوني عن النهار حديثاً أوصفوه فقد نسيت النهارا

(وقال آخر) :

عهدي بنا وراء الليل مشتمل والليل أطول كاللمح بالبصر
والآن ليلي مذ بانوا فديتهم ليل الضرير فصبحي غير منتظر

(وقال ابن العتارية) :

لقد ساهرتني عيون الدجى وقد نام عني عيون الملاح
اذا ما شكا الليل هجر الصباح شكوت الى الله هجر الصباح

(وقال ابن الزقاق) :

لي مسكن شطت به غربة جادت لها عيناي بالمزن
ما أحسن الفجر ولا راقني بياضه مذ بان في الظعن
كأنما الصبح لنا بعده عين قد ابيضت من الحزن

(وما أحسن قول القاضي الفاضل) :

بتنا على حال يسر الهوى وربما لا يمكن الشرح

بوابنا الليـــل وقلنا له ان غبت عناهجم الصبـح

(وقال ياقوت) :

كان الثريا راحة تشبر الدجا لتعلم طال الليل أم قد تعرضا
فليل تراه بين شرق ومغرب يقاس بشبر كيف يرجى له انقضا

أخذه الشيخ صدر الدين بن الوكيل فقال :

بكف الثريا وهي جذماً يقاس لي شقاق الدجا مدت من الشرق والغرب
ولو ذرعوها بالذراع لما انقضت فما تنقضي بالليل أو ينقضي نحبي

وقد أحسن الأرجاني في الاعتذار عن طول الليل فقال :

لا أدعي جور الزمان ولا أرى ليلي يزيد على الليالي طولا
لكن مرآة الصباح تنفست للهم أصدأ وجهها المصقولا

(وقال مضر بن الفقعسي) :

وليل تقول النـاس من ظلماته سواء صحيحات العيون وعورها
كان لنا منه بيوتاً حصينة مسوح أعاليها وساج كسورها

(وقال آخر) :

ولي سنة لم أدر ما سنة الكرى كان جفوني مسمعي والكرى عذل

وقلت أنا :

مذ غبت عني شمس الدين ما اكتحلت عيني بغبر ذرور السهـد والسهر
كم بت أرعى نجوم الليل من أرقي يا أشبه الناس من كل الناس بالقمر

وقال الشريشي فأما أكثر الشعراء فهم من الليل افزع والى النهار أنزع لأن الليل أجمع لاشتات الهموم والفكر وأجلب لشوارد الأحزان والذكر .

(وقال امرؤ القيس) :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بانواع الهموم ليبتـلي

(وقال قيس بن ذريح) :

اقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم بالليل جامع
نهاري نهارالناس حتى اذا بدى ... لي الليل هزتني اليك المضاجع

(وقال ابن المعتز) :

لا تلق إلا بليل من تواصله ... فالشمس نمامة والليل قواد
كم عاشق وظلام الليل يستره ... لاقى الأحبة والواشون رقاد

(وقال المتنبي) :

كم زورة لك في الاعراب خافية ... أزهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وانثنى وبياض الصبح يغري بي

هذا البيت أمير شعر المتنبي على كثرة الجيد فيه وفيه مقابلة خمسة بخمسة وقد أخذه بعضهم فقال :

أقلى النهار اذا أضاء صباحه ... وأظل انتظر الظلام الدامسا
فالصبح يشمت بي فيقبل ضاحكا ... والليل يرثى لي فيدبر عابسا

وقد أحسن في أخذه فإن فيه أيضاً مقابلة خمسة بخمسة .

قال ابن يحيى في قول المتنبى المذكور انه مأخوذ من قول ابن المعتز :

(فالشمس نمامة والليل قواد)

قال الشيخ فتح الدين بن سيد النـاس : قال لي شيخنا تقي الدين بن دقيق العيد : قل لهؤلاء علماء المعاني والبيان والبديع أتحسنون ان تقولوا مثل قول المتنبي :

أزورهم وسواد الليل البيت فاذا قالوا لا قل فأي فائدة فيما تصنعونه

يريد بذلك ان العمل غير العلم والمباشرة دون الوصف .

(ومثل قوله هذا) ما حكاه بعضهم عن بعض الوعاظ انه كان على منبره

يتكلم في المحبة وأمور العشق وأحواله ومد يد أطناب الأطناب في ذلك فقام اليه بعض الجماعة فقال :

بعيشك هل ضممت اليك ليلى   قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل زفت عليك فروع ليلى   زفاف الاقحوانة في نداهـــا

فقال الواعظ لا والله فقال له فابشر .

(وقال المتنبي) :

وكم لظلام الليل عندك من يد   تخبر ان المانويـــة تكذب
وقاك ردى الأعداء تسري اليهم   وزارك فيه ذو الدلال المحجب

المانوية قوم يعتقدون ان الخير كله من النور والشر كله من الظلام فكذبهم بأنه وجد الخير في الظلام حيث ستره عن أعدائه ووقاه شرهم وكان عوناً له على زيارة من يحبه .

(وقال ابن رشيق) :

أيها الليل طر بغير جنـــاح   ليس في العين راحة في الصباح
كيف لا أبغض الصباح وفيه   بان عني اولو الوجوه الصباح

(حكى الأصمعي) قال حضرت مجلس الرشيد وعنده مسلم بن الوليد إذ دخل أبو نواس فقال ما أحدثت بعدنا يا أبا نواس . فقال : يا أميرالمؤمنين ولو في الخمر فقال : قاتلك الله ولو في الخمر فأنشده :

يا شقيق الروح من حكم   نمت عن ليـــلى ولم أنم

الأبيات حتى أتى على آخرها فقال : أحسنت والله يا غلام أعطه عشرة آلاف درهم وعشر خلع فأخذها وخرج .

(وحكى) عن المطرز الشاعر انه مرّ وفي رجليـــه نعل له بالية وهي تثير الغبار فرآه الشريف المرتضى فأمر باحضارة وقال له : انشدني أبياتك التي تقول فيها :

فإن لم تبلغني اليكم ركائبي فلا وردت ماء ولارعت العشبا

فأنشده إياها فلما انتهى الى هذا البيت أشار الشريف الى نعله الباليــة وقال اهذه كانت من ركائبك فاطرق المطرز ساعة ثم قال لما عـادت هبات سيدنا الشريف أيده الله تعالى الى مثل قوله :

أيده الله تعالى الى مثـــل قوله وخـــذ النوم من جفوني فاني

قد خلعت الكرى على العشاق عادت ركائبى الى مثل ما ترى لأنــك خلعت مالا تملكه على من لا يقبل فاستحيا الشريف منه وكان الشيخ صــدر الدين بن الوكيل رحمه الله تعالى يقول والله قول المطرز عندي أحسن منقول الشريف وقال أبو البشر المظفر الاعمى دخلت على الملك الكامل فقــال لي أجز هذا النصف قد بلغ العشق منتهاه .

فقلت وما درى العاشقون ما هو .

فقال وإنما غرهم دخولي .

فقلت فيه فهاموا به وتاهو

فقال ولى حبيب يرى هواني

فقلت وما تغيرت عن هواه

فقال رياضة النفس في احتمالى

فقلت وروضة الحسن في حلاه

فقال اسمر لدن القوام ألمى

فقلت يعشقه كل من يراه

فقال ريقته كلها مدام

فقلت ختامها المسك من لماه

فقال ليلته كلها رقاد

فقلت وليلتي كلها انتباه

ثم ان مظفر الدين اكملها مدحاً في السلطان الملك الكامل تغمــده الله برحمته ومنه وكرمه .

الباب الثاني عشر في قلة عقل العذول

وما عنده من كثرة الفضول

أقول هذا باب عقدناه لذكر من أكثر القيل والقال من العـذال واستحق بامساك لحيته عند عذلـه نتف السبـال وكيف لا وهو لكثرة فضوله وقلة محصوله يدخل بين الروح والجسد والوالد والولد طالما أصبح بين المحبين قفـا بين صفاعين لا يفتح له باب ولا يرد عليه جواب .

وأتعب من نـاداك من لا تجيبه   واغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه خلقي في الهوى غير انني   بغيض اليّ الجاهل المتعاقـــل

فليته استراح وأراح وصان عرضه المباح فقد أكثرت الشعراء في الردعليه واعتذرت المحبون إليه كما قيل :

يا عاذلي في هواه   إذا بـدا كيف أسلو
يمر بي كل وقت   وكلمـا مر يحـلو

وكان يقال ليس من العدل سرعة العذل وكان يقال رب ملوم لا ذنب له وكان يقـال لعل لها عذراً وأنت تلوم فكم عاذل زاد المحب بعذله لجاجة وجنوناً أكثر من الحاجة لأبدلن هوى بلوم انه كالريح يغري الناس بالأحراق

(وقال آخر) :

وما عذولي ناهياً عنكم   لكنه بالصبر أمار
قال اسلهم ان لم تطق هجرهم   قلت له النار ولا العار

(وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة) :

يا من اذا باعت الأبصار أسودها بحبة فوق خديه فقد ربحت
يزيدني العذل تبريحاً ألذ به فليت عذال قلبي فيك لا برحت

(وما أحسن قول بلدينا محمد بن العفيف التلمساني) :

اسرفت في اللوم ولم تقتصر وزدت في لومك يا ذا العذول
قد رضيت نفسي بمحبوبها وإنما المولى كثير الفضول

(وقال والده واحسن ما شاء) :

ولي على عاذلي حقوق هوى شكري عليه ببعضها يجيب
لام فلما رآه هام به فكنت في عشقه انا السبب

(وقال آخر) :

قد اجتهد اللاحى وجاء يلومني وزخرف لي زور الكلام بمينه
وقال أسل عن هذا وعد عن غرامه فقلت له هذا الفضول بعينه

(وحكى) ابن وكيع انه كان يهوى غلاماً نصرانياً بتنيس فلامه بعض أصحابه عليه ولم يكن رآة فاتفق أن الغلام مر بهما فلما رآه صاحب ابن وكيع ستحسنه وقال لو عشقت هذا ما لمتك ولم يعلم انه محبوبه الذي لامه عليه فقال ابن وكيع في الحال :

ابصره عاذلي عليه ولم يكن قلبها رآه
فقال لو عشقت هذا ما لامك الناس في هواه
قل لي الى من عدلت عنه فليس أهل الهوى سواه
فظل من حيث ليس يدري يأمر بالحب من نهاه

(وقال شيخ الشيوخ بحماة) :

زعموا انني هويت سواكم كذبوا ما عرفت إلا هواكم
قد علمتم بصدق مرسل دمعي فسلوه ان كان قلبي سلاكم
قال لي عذلي متى تبصر الرشد وتسلو فقلت يوم عماكم

(وقال أيضاً) :

أن قوماً يلحون في حب سعدى لا يكادون يفقهون حديثا
سمعوا وصفها فلاموا عليها أخذوا طيباً وأعطوا خبيثا

(وقال أيضاً) :

من منصفي من عاذل جاهل يخون باللوم لمن لا يخون
ان قلت ما نصحك إلا أذى قال وما عشقك إلا جنون

(وقال محمد بن شرف القيرواني) :

قل للعذول لو اطلعت على الذي عاينته لعناك ما يعنيني
أتصدّني أم للغرام تردّني وتلومني في الحب أم تغريني
دعني فلست معاقباً بجنايتي إذ ليس دينك في المحبة ديني

(وما أحسن قول الآخر) :

يقول لي العاذل في لومه وقوله زور وبهتان
ما وجه من أحببته قبلة قلت ولا قولك قرآن

(وقال آخر)

لقد راعني بدر الدجى بصدوده ووكل أجفاني برعى كواكبه
فيا عاذلي دعني عساه يعود لي ويا مهجتي صبراً على ماكواك به

(وقال عرقلة) :

قال العواذل ما الذي استحسنته منه وما يسبيك قلت جميعه

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله:

يا خيبة العاذل الذي قد أطال في العذل واستطالا
عذبني ثم قال تسلو عن حب ماما فقلت لالا

(وقال ايضاً) :

أيها العاذل الغبي تأمل من غدا في صفاته القلب ذائب
وتعجب لطرة وجبين ان في الليل والنهار عجائب

وقال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر :

كم على عاذلي وكم لحبيبي ذاك تكبيرة وذا تهليله
يا ثقاتي وأين مني ثقاتي أين من ينبغي اليّ الوسيلة
أنا ميت فقبلوني إليه فحياتي وحقه وتقبيله

(وقال النور الأسعردي)

أقول لعاذلي لما نهاني وقد وجد المقالة إذ جفاني
علمت بأنه مرّ التجني وفاتك انه حلو اللسان

(وقال أبو الفتح قادوس في الاكتفاء)

من عاذري في عاذل يلوم في حب رشا
إذا طلبت وصله قال كفى بالدمع شا

ومثله قول شيخ الشيوخ بحماة :

أغضب العشاق منه انني لم أبع في حبه رشدي بغي
قلت قد أضنيت جسمي قال قد قلت كي تذهب روحي قال كي

(وقال ايضاً)

راموا فطامى عن هوى غذيته طفلاً وكهلا
فوضعت في جيبي يدي وقلت خلوني والا

ومثله قول الوداعي :

يا لائمي في هواها أفرطت في اللوم جهلاً
ما يعلم الشوق إلا ولا الصبابة إلا

وما أحسن قول ابن سنا الملك في هذا المعنى :

أهوى الغزالة والغزال وربما نهنهت نفسي عفة وتدينـــاً
ولقد كففت عنان عيني جاهداً حتى اذا أعييت أطلقت العنا

وقوله ايضاً :

دنوت وقد أبدى الكري منه ما أبـدى فقبلته في الخد تسعـــين أو إحدى (وقوله ايضاً) :

وظبي حكى ريم الفلا في نفاره فما باله لم يحكـــه في التلفت
يدافعني عن وصله بتهجـم فياليته لو كان يدفـع بالتي

(وقال شيخ الشيوخ بحماة) :

اليكم هجرتي وقصـدي وفيكم الموت والحيـاة
امنت أن توحشوا فؤادي فآنسوا مقـلتي ولاتو

(وقال ابن المعتز) :

زاحم كمي كمه فالتويا وافق قلبي قلبـه فـاستويا
طالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قرة العين ويا همي ويا

(وقال ابن مطروح) :

والله لا خطر السلو بمهجتي ما دمت في قيد الحياة ولا اذا
(رجع الكلام في العذل) .

(وقال الآخر دوبيت)

لما نظر العذال وجدى بهتوا في الحال وقالوا لوم هذا عنت
ما نحسب إلا اننـا نعـذله يسمع من يعقـل من يلتفت

(وقال الآخر) :

قالوا اسله واطرح هواه فقد بدا كذبه وافكه
فقلت بالله لا تطيـــلوا والله والله مـا أفكه

(وما أحسن) قول شهاب الدين ابن الخيمي رحمه الله :

وعذول رابني في نصحه — كلما زدت ابا زاد لجاجا
ما عذولي قط إلا عاشق — ستر الغيرة بالعذل وداجى

(وقال آخر) :

لو رأى وجه حبيبي عاذلي — لتفارقنا على وجه جميل

(أنشدني) الشيخ برهان الدين بن القيراطي :

ذهب العمر بلوم — وصدود من غزال
في سبيل الحب عمر — ضاع في قيل وقال

(وقال الشيخ ابراهيم بن المعمار) :

لو رأى حسن وجهه — عـــاذلي في التبسم
ذهبت روحـــه كما — قيل في دور درهم

(وقال أيضاً) :

لح العذول ولامني — فيمن أحب وعنفا
فهممت ألطم رأسه — مما ملئت تأسفا
لكنما زلقت يدي — وقعت على أصل القفا

وما اظرف قول النور الأسعردي :

وقالوا دع المعشوق واهجره دائماً — ألم تره بعد الملاحة ينتف
أينتف من أجلي ويتعب دائماً — وأهجره تالله ما أنا منصف

(وقال آخر) :

قل للعذول أطلت اللوم في قمر — يزيد في كل يوم حسنه نورا
ان كنت تزعم ما في حسنه عجب — قم فانظر الورد في خديه منثورا

(وقال محيى الدين البغدادى)

إن لامني من لا رآه فقد جار على الغائب بالحكم
وان لحاني من رآه فقد أضله الله على علم

(وقال البهازهير) :

انت الحبيب الأول ولك الهوى المستقبل
عندي لك الود الذي هو ما عهدت وأكمل
القلب فيك مقيد والدمع فيك مسلسل
يا من يهدد بالصدو د نعم تقول وتفعل
قد صح عذرك في الهوى لكنني أتعلل
قل للعذول لقد أطلت لمن تقول وتعذل
عاتبت من لا يرعوي وعذلت من لا يقبل
غضب العذول أخف من غضب الحبيب واسهل

(وقال أبو العتاهية) لقيت أبا نواس في المسجد الجامع فعذلته وقلت له ما آن لك ان ترعوي وتزدجر فرفع رأسه إليّ وقال :

أتراني يا عتاهي تاركاً تلك الملاهي
أتراني مفسد بالنسك عند القوم جاهي

فلما ألححت عليه في العذل انشأ يقول :

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر

فوددت اني قلت هذا البيت بكل شيء قلته وقال جويان القواس .

أصغي الى قول العذول بجملتي مستفهماً عنه بغير ملال
لتلقطي زهرات ورد حديثكم من بين شوك ملامة العذال

قلت هذا هو العاشق والمحب الوامق ألا تراه كيف صغى الى عذوله الفاعل الصانع وجنى من عذله جنى النحل ممزوجاً بماء الوقائع فهو في هذا المقام من الاثبات كما قال أبو الشيص من أبيات .

أجد الملامة في هواك لذيذة حباً لذكرك فلتلمني اللوم

(وقال ابن رشيق) وقد زاد على أبي الشيص في قوله هذا ابن جابر الخزاعي حيث يقول :

هددت السلطان فيك وإنما أخشى صدودك لا من السلطان
أهوى الملامه فيك حتى لو درى أخذ الرشا مني الذي يلحاني
حسبي لقول الناس بعد منيتي هذا قتيل في وداد فلان
فلا نفقن عليك عمري كله ولا عشقن عليك كل هوان

قلت والذي أقوله أنا في هذا المقام ان صاحب هذا الكلام غريم الغرام ونديم كؤس المدام ألا تراه كيف بالغ حتى جعل للعذول جماله فأصبحت حالته كما قيل ضغث على أباله فهو كما قال بعض السادات من أهل الولايات لو لم تعلم العوام ما في قلوبنا من حلاوة العفو لتقربوا إلينا بالجنايات ومثل قوله هددت بالسلطان قول الآخر :

وان نذرت فيك العشية قتلتي فللموت عندي في هواك سلام
ومن أعجب الأشياء خوفي في الهوى ولي كل يوم في حماك حمام

(وقلت أنا) :

عاذل بالغ في عذله وقال لما هاج بلبالي
بعارض المحبوب ما تنتهي قلت ولا بالشيب والوالي

(وقلت أيضاً) :

عذلوا على من رام قتلي في الهوى فكلامهم ضرب من الهذيان
جهلوا وما علموا بان الطعن في المحـ ـبوب غير الطعن في الميدان

(وقلت أيضاً) :

كم خالف العذال قولي في الذي في كل يوم حسنه يزداد
ان قلت أمسي في الملاحة مفرداً قالوا تثنى عطفه المياد

وقلت أيضاً :

يا عـاذلي لا تلمني في حب هـذا القبطي
واقطـع بوصل بيننـا بالله رأس القـط

وقلت أيضاً :

مليح الترك لا سيما الخطابي عليه . الشيخ يعذر للتصابي
فدعني من ملامك يا عذولي فحبي للخطا عين الصواب

(وقلت فيمن اسمها حكم الهوى) :

حكم الهوى صدّت فبت لأجل ذا ولهان من فرط الصبابة والجوى
يا عاذلي لا تلمني في حبها نفذ القضاء وهكذا حكم الهوى

وقلت :

أقول لظبي قلبه يشتكي الاسى هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل
نصحتك علماً بالهوى والذي أرى مخالفتي فاختر لنفسك ما يحلو

وقلت من قصيدة :

وازنت ميلي للعذول وقده فرأيت ميلي للقوام رجيحا
يا عاذلي لا صافحتك يد النوى حتى توسد في التراب صفيحا
ولقد نصحت بني الصبابة في الهوى لكنهم لا يقبلون نصيحا

وقلت : من قصيدة مدحت بها مولانا السلطان الملك الناصر .

فيا من جاء يعدل مستهاما على حلو الشمائل ما أمرّك

وقلت : أيضاً من قصيدة أمدحه بها خلد الله ملكه مطلعها .

لك من حبيبك ما تحب وتشتهي فاجعل مدامك من مقبله الشهي
وإذا بدا لك ثغره متبسما فاضحك على ذقن العذول وقهقه

وقلت : أيضاً من قصيدة أرسلتها الى مولانا قاضي القضاة تاج الدين السبكي بدمشق الشام .

يا ساكني السفح لي في حكيم سكن وأنتم في سويدا القلب سكان
دمعي يزيد كباناس لعبدكم والعاذلون على ثوراء ثيران

ومنها

قد كان ما كان من هجرانه زمناً وقد وفى الآن فالعذال لا كانوا
أنا الذي لا أبالي في الغرام بما يروي فلان ولا ما قال فلتان

ومنها

برهنت حسن الذي أهوى وقلت له ما للعذول على ما قال برهان
ما لامني مذ رآني في الهوي رجبا بمزح شعبان فما رمت شعبان

(تنبيه) كانت اسماء الشهور عند العرب غير هذه الاسماء المستعملة الآن لأنهم كانوا يسمون رجب الاصم ويسمون شعبان العاذل وبهذا يظهر معنى قولي في البيت الأخير على أن الشعراء استعملوا هذا المعنى قديماً وحديثاً (ومن أحسن ما سمعت فيه).

وشادن مبتسم عن حبب مورّد الخد مليح الشنب
يلومني العاذل في حبه وما دري شعبان اني رجب

وقلت أنا أيضاً :

يسطو عليّ من الدلال كأنه غازان إذ يسطو على حرمانه
ان ردّني عنه قضيب قوامه فأنا القتيل بلحظه وبيانه
اني وحقك في هواه متيم صب غداً رجباً على شعبانه

وقولهم سبق السيف العذل هو مثل من أمثال العرب يضرب في الأمر الذي لا يقدر على رده وأصله أن سعداً وسعيداً ابني ضبة ابن أدّ خرجا في طلب أبل لهما فرجع سد ولم يرجع سعيد فكان أبوه ضبة إذا رأي رجلاً مقبلاً قال أسعد أم سعيد ثم أنه في بعض مسيره اتى الى مكان ومعه الحرث بن كعب في الشهر الحرام فقال له الحرث قتلت ههنا فتى هيئته كذا وكذا وأخذت منه هذا السيف فتناوله ضبه فعرفه فقال أن الحديث شجون ثم ضربه فعذله فقال

سبق السيف العذل فتداولت الشعراء ذلك ونظموه .

(ومن أحسن ما سمعته فيه قول السراج الورّاق) :

قلت إذ جرّد لحظا حـده يدني الأجل
يا عذولي كف عني سبق السيف العذل

وعلى ذكر العذل والملام ذكرت قول أبي نواس في المدام :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

قال المفضل الضبي دخلت على الرشيد يوماً فقال دلني على بيت أوله أكثم بن صيفي في إصابة الرأي وجودة الموعظة وآخره ابقراط في معرفة الدواء فقلت يا أمير المؤمنين لقد هوّلت علي فقال هو قول أبي نواس :

دع عنك لومي البيت قلت وبقى

لهذا البيت حكاية لطيفة حكاهـا الحريري في درة الغواص عن حامد بن العباس انه سأل على بن عيسى في ديوان الوزارة عن دواء الخمار وقد علق به فأعرض عن كلامه فقال ما أنا وهذه المسألة فجعل حامد منه ثم التفت الى قاضي القضاة أبي عمر فسأله عن ذلك فتنحنح القاضي لاصلاح صوتـه ثم قال الله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .

وقال رسول الله ﷺ استعينوا على كل صنعة بصالحي أهلها والأعشى هو المشهور بهذه الصناعة في الجاهلية وقد قال :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

ثم تلاه أبو نواس فقال :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

فأسفر حينئذ وجه حامد وقال لعلي بن عيسى ما ضرك يا بارد أن تجيب ببعض ما أجاب به قاضي القضاة وقد استظهر في جواب المسألة بقول الله تعالى أولاً ثم بقول الرسول ﷺ ثانياً وبين الفتيا وأدى المعنى وتبرأ من العهدة فكان خجل على ابن عيسى من حامد بهذا الكلام أكثر من خجل حامد منه لما ابتدأه بالمسألة . وقال الشيخ صدر الدين ابن الوكيل .

ان الذي جعل الهموم عقاربا جعل المدام حقيقة درياقها

لم يصلب الراووق إلا عندما قطع الطريق على المدام وعاقها
ومعنفي في الخمر لو قد ذاقها ما لامني لكنه ما ذاقهـــا
قال أطرح صفراء يطفى خمرها لهب القلوب إذا اشتكت احراقها
فأجبته ذقها وخذ من بعد ذا في طرق لومك إن اردت فراقها

وقد أنصف شيخ الشيوخ بحماة حيث قال :

أعاذلي ليس مثلي من تفنده وليس مثلك مأموناً على عذلي
ما دمت خلواً فما تنفك متهماً أعشق وقولك مقبول علي ولي

(وقال الآخر) :

لو تعلم الورق حنيني نحوكم لمزقت من طرب أطواقها
ولو يذوق عاذلي صبابتي صبا معي لكنه ما ذاقها

(حكي) أن السلطان صلاح الدين قال يوماً للقاضي الفاضل لنا مدة لم نر فيها العماد الكاتب فلعله ضعيف أمض اليه وتفقد أحواله فلما دخل القاضي الى دار العماد الكاتب وجد أشياء أنكرها في نفسه مثل آثار مجالس أنس وطيب ورائحة خمر وآلات طرب فأنشده :

ما ناصحتك خبايا الود من رجل ما لم ينلك بمكروه ومن العذل
محبتي فيك تأبى أن تسامحني بأن أراك على شيء من الزلل

الباب الثالث

عشر في ذكر الاشارة الى الوصل والزيارة

أقول هذا باب عقدناه لذكر الزائر والمزور وما قيل فيهما من منظـــوم ومنثور وغير ذلك من عيادة الحبيب وما يستدل به عليه من روائح الطيب كما قيل :

ولو أن ركبا يمموك لقادهم　　　نسيمك حتى يستدل بك الركب

نعم طالما أهدى الحبيب بزيارته سروراً وامسى له الفضل زائراً ومزوراً كما قيل :

فلفضله فالفضل في الحالين له فالزيارة من الحبيب لاتمـل ولو ألحق فيهـا الوابل بالطل ومن أحسن ما قيل في زيارة الحبيب وعوده من قريب قول العكوك :

بأبي من زارني مكتتما　　　خائفاً من كل شيء جزعا
زائراً نم عليه حسنه　　　كيف يخفى الليل بدرا طلعا
رصد الغفلة حتى امكنت　　　ورعى السامر حتى هجعا
ركب الأهوال في زورته　　　ثم ما سلم حتى ودعـــا

(وما أحسن قول المعتز) :

زارني والدجى أحم الحواشي　　　والثريا في الغرب كالعنقـــود
وكأن الهلال طوق عروس　　　بات يجلى على غلائـــل سود

ليلة الوصل ساعدينا بطول　　طوّل الله فيك غيظ الحسود

(وقال الآخر) :

زارت عله غفلة الرقيب　　كظبية روّعت بذيب
وكان وقت الوصال منها　　اقصر من جلسة الخطيب

قال الشيخ العلامة علاء الدين مغلطاوي في كتابه الواضح المبين أنشدنا عبد العزيز بن سرايا الحلى لنفسه زاعماً انها أصدق كلمة قالها الأواخر .

يقولون لي بالله ما أنت فاعل　　اذا زارك المحبوب قلت أ ...

وقال يعقوب الشيباني .

قلت اذ زار من أحب وجنح الليل　　روض أبدي النجوم نهاراً
ملك الحب زاره ملك الحسن　　فزادا على الوجود اقتدارا
فافرشوا الورد اطلسا حين يمشي　　واجعلوا عسجد الكؤس نثارا
واصرفوا حاجب الهلال فقد نم　　يسرّي الى العيون مرارا
واحجبوا أبيض الصباح وقولوا　　لنجاشي الظلام كن برد دارا

وعلى ذكر البرد دارا ما أحسن قول الآخر دوبيت :

يا ليل بك الثناء والمدح يليق　　اذ أنت لاهل العشق خلّ وصديق
إذ انت جعلت برد دار الهم　　لا تعط عليهم قط للصبح طريق

وقال ابن النبيه :

قلت لليل إذ حباني حبيباً　　وغناء يسبي النهي وعقارا
أنت ياليل حاجبي فامنع الصبح　　وكن أنت يا دجى برد دارا

(وما أحسن قول شمس الدين محمد ابن العفيف) .

ومليح كالبدر زار بليل　　فجلا حسنه الدجى إذ تجلى
ما درى منزلي ولكن قلبي　　بلهيب الجوى هداه ودلا
وعجيب منه فقيه ذكيّ　　بمحل النزاع كيف استدلا

(وقال الآخر):

يا حبيبي وانت ما　　زلت بالوصل منعما
زرتني بعض ليلة　　بتّ فيها مهوّما

حين وليت غائبا　أفل البدر في السما
ليت شعري من الذي　من أخيه تعلما

(وقال بشار بن برد) .

يا أطيب الناس ريقا غير مختبر　إلا شهادة أطراف المساويك
قد زرتنا مرة في الدهر واحدة　ثنّ ولا تجعلها بيضة الديك

قيل ان الديك يبيض فى السنة بيضة ولهـذا قال بشار ذلك وقال ابن الساعاتي في تاريخه في سنة ست وتسعين وستمائة باض ديك ببغداد وسألت جماعة عن ذلك فأخبروني به . (قلت) واخبرني الآن بعض الصوفية المقيمين عندي بالصهريج أنه باض عندهم ديك بيضة صغيرة وجعل يصيح مثل الدجاجة ثم أقام بعد ذلك سبعة أيام ومات (رجع الكلام وقلت أنا) .

لي حبيب له حبيب مواف　كل يوم يـأتي اليه مرارا
قلت زرني فقال حبي عندي　شغل الحلى أهله أن يعارا

(وقلت ايضاً من قصيدة) .

زار الحبيب ووجه الورد خجلان　فاصفر حين تثنى قده البانّ
قد كان ما كان من هجانه زمناً　وقد وفى الآن فالعذل لا كانوا
ما ضرني ضيق عيشي حين واصلني　سم الخياط مع الأحباب ميدان

فصل في نم الطيب على الحبيب

ما احلى قول ابن سكرة .

أهلا وسهلاً بمن زارت بلا عدة تحت الظلام ولم تحذر من العسس
تسترت بالدجى عمداً فما استترت وناب اشراقها ليلاً عن القبس
ولو طواها الدجى عنا لا ظهرها برق اللثـام وعطر النحر والنفس

(أخذه المعتمد بن عبادة فقال) :

ثلاثـــة منعتها عن زيارتنـــا خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق
ضوء الجبين ووسواس الحليّ وما تحوى معاطفهـــا من عنبر عبق
هب الجبين بفضل الكم تستره والحلى تنزعـــه ما حيلة العرق

وقال :

يوم يقول الرسول قـــد أدنت فأت على غير رقبـــة ولج
أقبلت أهـــوى الى رحالهم أهـــدي اليها بريحهـــا الأرج

قيل ويستدل بالطيب على السلوك في المواطن التي يكون النـاس فيها غير معروفين مثل الحمام ومعركة الحرب وموسم الحـج وما زالت الشعراء تصف مواطن الحبيب بالطيب كما قال فيه ابن النبيه .

ان جاء من يبغي لهم مـــنزلا فقـــل له يمشي ويستنشق

وقال محمد بن عبد الله النميري في زينب أخت الحجاج من قصيدة :

تضوّع مسكا بطن نعمان إذ مشت بـــه زينب في نسوة خفرات
له أرج من مجمر الهند ساطـــع تطلـــع رياه من الكفرات

يخمرن أطراف البنان من التقى ويطلعن نصف الليل معتجرات

ومنها

ولما رأت ركب النميري أعرضت بكره لأن يلقينه حذرات

ولهذا البيت حكاية لطيفة اتفقت لقائله مع الحجاج وهي مشهورة بين أهل الأدب أضربت عن اثباتها هنا خوف الاطالة وقال الطغرائي :

فسر بنا في ظلام الليل معتسفاً فنفحة الطيب تهدينا الى الحلل

وقال آخر :

وليس نسيم المسك ما تجدونه ولكنه ذاك الثناء المخلف

وقال آخر :

لو كان يوجد ريح مسك فائح لوجدته منهم على أميال

وقال ابن الرومي :

اعقبته من طيب ذكرك نفحة كادت تكون ثناءك المسموعا

وقال المتنبي :

وتفوح من طيب الثناء روائح لهم بكل مكانة تستنشق

فصل

ومن أحسن ما سمعته في العيادة قول الطغرائي

خبروهـــا اني مرضت فقالت   اضنى طار فاشكا أم تليــدا
وأشاروا بــأن تعود وسادي   فأبت وهي تشتهي أن تعودا
واتتني في خفيـة وهي تشكو   ألم الشوق والمزار البعيــدا
ورأتني كذا فلم تتمالــك   أن أمالت عليّ عطفاً وجيـدا

أنشدني من لفظه لنفسه الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وملولة في الحب لما أن رأت   أثر السقـام بعظمي المنهـاض
قالت تغيرنا فقلت لهـا نعم   أنا بالسقـام وأنت بالأمراض

وما أحسن قول ابن السليماني :

وأنا الذي أضنيته وهجرتـه   فهل صلة أو عائـد منك للـذي

وقال آخر :

لا تهجروا من لا تعوّد هجركم   وهو الذي بلبان وصلـكم غـذى
ورفعـتم مقـداره بالابتـدا   حاشاكمو ان تقطعوا أصله الذي

ومن عظيم ما يحكى عن الملك المعظم عيسى بن الملك العـادل أن شرف الدين بن عنين كتب إليه وهو ضعيف :

انظر اليّ بعـين مولى لم يزل   يولى الندى وتلاف قبل تـلافي
أنا كالذي احتاج ما يحتاجـه   فاغنم ثوابي والثنـاء الـوافي

فحضر إليه الملك المعظم بنفسه ومعه صرّة فيها ثلثمائة دينار وقال أنت الذي وهذه صلتك وأنا العائد قلت وقد استخدم ابن عنين الصلة والموصول وأجاد وعامله الملك المعظم في السبق الى فهم مقصوده معاملة الجواد ولو وقع هذا من مثل سيبويه لكان أدل دليل على فضله وسداد نبله فما الشأن بوقوعه من هذا الملك المعظم شأنه العظيم سلطانه فكم أقر لأبن عنين عينا ووفى عنه ديناً فغال به السول وطرب من الصلة والعائد بيده الموصول لاجرم انه ملأ بمدائحه ديوانه وقال فيه من قصائده الطنانة :

كريم الثنا عار من العار باسل جميل المحيا كامل الحسن والحسني
لعمرك ما آيات عيسى خفية هي الشمس للاقصى سناها وللادني

ولي أنا من قصيدة في هذا الوزن أمدح بها مولانا السلطان الملك الناصر مخلصها .

تطاول غصن البان يحكي قوامه فقلت له والله قد جئت في المعنى
ولكنّ بدراً التم والبحر قصرا عن الناصر السلطان في الحسن والحسنى

ومن ظريف ما اتفق لابن عنين هذا مع الملك المعظم انه حضر في وقت بين يديه مع جماعة من الشعراء فقال لهم السلطان لا بدّ أن تهجوني في وجهي فقبلوا الارض واستعفوا من ذلك فقال لا بد من ذلك والح عليهم فقال ابن عنين .

نحن قوم ما ذكرنا لامرىء قط إلا واشتهى ان لا يرانا

فقال له السلطان صدقت فقال :

شعرنا مثل ال ... ...

فقال السلطان لا والله قبحك الله .

فقال صقع الله به أصل لحانا .

رجع الكلام الى العيادة ما أحسن قول السراج الوراق :

قال صديقي ولم يعدني وعارض السقم فيّ أثر
لقد تغيرت يا صديقي ويعلم الله من تغير

وقوله ايضاً :

مرضت لله قوما ما فيهم من جفاني
عادوا وعادوا وعادوا على اختلاف المعاني

ولهذا البيت أشباه ونظائر ذكرتها في كتابي الطارىء على السكردان منها ما حكي عن القاضي ابو بكر ابن العرب وقد وقف على حلقته وهو مشتغل بالعلم شاب مليح وبيده رمح فقال له بعض الفقهاء : اذهب بهذا الرمح فهز الرمح وقال : الساعة أضربك به فأنشد القاضي أبو بكر في الحال لنفسه :

يهددني بالرمح ظبي مهفهف لعوب بالباب البرية عابث
فلو كان رمحاً واحدا لاتقيته ولكنه رمح وثان وثالث

وقد سألت جماعة من أهل العلم والأدب عن استخراج الثالث من هذا البيت فلم يجب أحد منهم بطائل .

وقال ابن النقيب :

سمعت بما تشكو وما أنت واجد فظلت دموع العين في الخدتسفح
وأرسلت خطى في العيادة نائبا وما كل خط للعيادة يصلح

(وقال المعتمد بن عبادة) :

مرضت فأمسكت الزيارة عامداً وما عن قلى أمسكتها إلا ولاهجر
ولكنني أشفقت من أن أزوركم فأبصر آثار الكسوف على البدر

(وقال الشهاب محمود) في القول بالموجب :

رأتني وقد نال مني النحول وفاضت دموعي على الخد فيضا

فقالت بعيني هذا السقـــام فقلت صدقت وبالخصر أيضا

وأورد في كتابه حسن التوسل قول الأرجاني :

غالطتني إذ كست جسمي الضنى كسوة أعرت من اللحم العظاما
ثم قالت أنت عندي في الهوى مثل عيني صدقت لكن سقاما

(وقلت) أنا حين وقفت على قول الأرجاني هذا بديها :

شكوت الى الحبيبة سوء حظي وما قاسيت من ألم البعـــاد
فقالت ان حظك مثل عيني فقلت نعم ولكن في السواد

(وما أحسن قول محاسن الشواء)

ولما أتاني العاذلون عدمتهم وما فيهم إلا للحمي فارض
وقد بهتوا لما رأوني شاحباً وقالوا به عين فقلت وعارض

(وقال ابن النقيب) :

وما بي سوى عين نظرت لحسنها وذاك لجهلي بالعيون وغرتي
وقالوا به في الحب عين ونظرة لقد صدقوا عين الحبيب ونظرتي

(والأصل في هذا كله) :

وجاؤا اليه بالتعاويذ والرقي وصبوا عليه الماء من ألم النكس
وقالوا به من أعين الجن نظرة ولو صدقوا قالوا به أعين الأنس

وما أحسن قول بلدينا محمد بن عفيف التلمساني في مليح يعمل الكوافي.

اسم حبيبي وما يعاني قد شغلا خاطري ولبي
قالوا علي فقلت قدراً قالوا كوافي فقلت قلبي

وقول الشيخ صدر الدين بن الوكيل) :

وبي من قسا قلباً ولان معاطفا		اذا قلت ادناني يضاعف تبعيدي
أقر برقي اذ أقــول أنا له		وكم قالها ايضاً ولكن لتهديدي

(وقال السراج الوراق) :

قالوا وقدضاعت جميع مصالحي		لهموم نفس ليت لا حملتها
قـد كان عندك يا فلان صريمة		فأجبتهم بعت الحمار وبعتها

#

الباب الرابع عشر في الرقيب النمام
والواشي الكثير الكلام

أقول هذا باب عقدناه لذكر كل رقيب غائر العين كثير المين يرى المحب بعين المقت في كل وقت ويرميه في الحضرة والمغيب بكل سهم مصيب فكم ترك المحب مضني وافقره فيمن أحب وما استغنى فهو كالصبح قاطع اللذات تعيس الحركات قبيح المنظر سيء المخبر كثير اللجاج حجر في دكان زجاج فهو والنمام في الأذى فرسار هان رضيعاً لبان ومن أبلغ ما سمعته في الرقيب .

انا والحب مـــا خلونا ولا طر فة عـــين إلا علينـــا رقيب
ما خلونا بحيث ان يمكن الدهر باني اقـــول أنت الحبيب
بل خلونا بقـــدر ما قلت أنت الح فراقي فقلت كـيم الطبيب

وقول ابن المعتز :

وابلائي في محضر ومغيب من حبيب مني بعيـد قريب
لم تر دماء وجهه العـين إلا شرقت قبل شربها برقيب

وقال أيضاً :

قد دنت الشمس لـلمغيب وحان سوقي الى الحبيب
طوبى لمن عـاش عشر يوم له حبيب بـــلا رقيب

قيل لبعض العرب ما امتع لذات الدنيافقال ممازجة الحبيب وغيبةالرقيب
قال الصاحب ابن عباد :

قال لي أن رقيبي سيء الخلق فـداره   قلت دعه وجهك الجنة حفت لمكاره

وقال آخر :

سهم الحب جرح في فـؤادي   وذاك الجرح من عـين الرقيب
يوكل ناظريه بنـا ويحكي   مكان الكـاتبين من الذنوب
فلو سقـط الرقيب من الثريا   لصب على محـب أو حبيب

وقال آخر :

يسقيك من كفه مدامـا   ألذ من غفـلة الرقيب
كأنهـا إذ صفت ورقت   شكوى محـبّ الى حبيب

وقال ابو نواس :

لاحظتـه فتبسما   وخلا المكان فسلمـا
وبدا الرقيب فقلت لا   سلم الـرقيب من العمى

وقال الصفي الحلى :

ومليـح لـه رقيب قبيح   يتعنى وغـيره يتهنى
ليس فيه معنى يقـال ولكن   هو عنـد النجاه جاء لمعنى

وقال آخر

قالت صفا الوقت ولكن الرقيب كالقذى   قلت إذا غاب الرقيب ارضني قالت إذا

وقال آخر

أحب العـذول لتكراره   حديث الحبيب على مسمعي
وأهوى الرقيب لأنّ الرقيب   يكـون إذا كان حبي معي

وقال ابو جعفر احمد بن الابار .

زارني خفية الرقيب مريبا   يتشكى القضيب منـه الكثيبا
قـال لي ما ترى الرقيب مطـلا   قلت زره أتى الجناب الرحيبـا

عاطه كؤس المدام دراكا وادرها عليه كوبا فكوبا
واسقنيها بخمر عينيك صرفا واجعل الكأس منك ثغراً شنيبا
ثم لما ان نام من نتقيه وتلقى الكرى سميعاً مجيبا
قال لا بدّ أن تدب عليه قلت ابغي رشا وآخذ ذيبا
قال فابدأ بنا واثن عليه قلت كلا لقد رأيت عجيبا
فوثبنا على الغزال ركوبا ودببنا على الرقيب دبيبا
هل رأيتم أو هل سمعتم بصب ناك محبوبه وناك الرقيبا

(قال ابن بسام) لقد تظرف ابن الابار وأبرّ وأحسن ما شاء وقدّروأظنه لو قدر على ابليس الذي تولى هذا المذهب لدب عليه ولم يخلص من يديه وابن المعتز كنى ولم يصرح حيث قال .

فكأن ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

(وقال ابو نواس) .

إذا هجع النيام فخلّ عني وعمن كان يصلح للدبيب
الذ النيك ما كان اغتصابا بمنع الحب أو خوف الرقيب

(وقال ابو الوليد محمد بن حسان) الحنفي :

نشر النسيم بعرفكم يتعرّف وأخو الغرام بحبكم يتشرف
شرف المتيم في هواكم انه طوراً ينوح وتارة يتلهف
صب إذا كتم الغرام ولم يبح نمت عليه به الدموع الذرّف
لطفت معانيه فهب مع الصبا ورقيبه يهبو به لا يعرف
لم يدر زورته الرقيب لأنه أخفى عليه من النسيم وألطف
وكأنما يفد النسيم دياركم وله على تلك الديار توقف

قال عروة بن عبدالله :

كان عروة ابن أذينة الليثي نازلاً في دار ابي العقيق فسمعته ينشد لنفسه :

ان التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

فاذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير الى الفؤاد فسلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها واجلها
لما عرضت مسلماً لي حاجة أخشى صعوبتها وأرجو حلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا وقال لنا لعلها معذورة في بعض رقبتها فقلت لعلها

فأتاني أبو السائب المخزومي فقلت له بعد الترحيب والبشر ألك حاجة قال نعم أبيات لعروة بلغني انك سمعته ينشدها فأنشدته الابيات فلما بلغت الى قوله فدنا وقال لعلها معذورة طرب وصاح وقال هذا والله الدائم الصبابة الصادق لا كالذي يقول :

ان كان أهلك يمنعونك رغبة عني فأهلي بي أضنّ وأرغب

لقد عد الأعرابي طوره واني لأرجو أن يغفر الله لصاحب هذه الأبيات لحسن ظنه بها وطلب العذر لها قال فعرضت عليه الطعام فقال لا والله ماكنت لاخلط بهذه الأبيات طعاماً حتى الليل وانصرف .

(وقال ابن رشيق) :

تأذى بلحظي من أحب وقال لي أخاف من الجلاس أن يفطنوا بنا
وقال إذا كررت لحظك دونهم عليّ فما يخفى دليل مريبنا
فقلت بلينا بالرقيب فقال ما بلينا ولكن الرقيب بلي بنا

وقال آخر :

ورقيب عدمته من رقيب أسود الوجه والقفا والصفات
هو كالليل في الظلام وعندي هو كالصبح قاطع اللذات

(وسألت) في وقت صاحبنا الشيخ برهان الدين القيراطي هل تحفظ شيأ مليحاً في هجو الرقيب فسكت لحظة وانشدني لنفسه :

قال لي صاحب يروم قريضا في هجاء الرقيب فهو قبيح
عندكم في الرقيب شيء مليح قلت ما في الرقيب شيء مليح

(وقلت) أنا من قصيدة :

فديتك قد غاب الرقيب فغن لي وقــل في ثقيل نحسه متغيب
رقيب نفى عن أرض ليلى عشية وأخرج منها خائفــاً يترقب

وقلت أيضاً :

عــاذلي في الحبيب دعني فــاني برحت بي في حبــه الــبرحاء
راقب الله في محــب حبيب من نجــوم السهالة رقبــاء

(وقلت) أيضاً من قصيدة :

فبت ولي شغل عن العذل شاغل يذود الكري عني من السهد ذائد

(وقلت) أيضاً من رسالة :

وأما الرقيب فــأمره عجيب

وغلق الباب في وجهه نصر من الله وفتح قريب فهو بالنهـــار من الذين يراؤون وبالليل ابن فاعلة لا ينام ولا يخلي الناس ينــامون فأذاه إذا ورد من بعيد أقرب من حبل الوريد والعاشق بينه وبين العذول ما يلفـــظ من قول إلا لديه رقيب عتيد فهو ان قعد قامت القيامة وان راح لا كتب الله عليــه سلامة .

فصل في النمام والواشي وما أظرف ما سمعت في ذلك

قال لي عوّدي غداة رأوني ما الذي تشتهيه واجتهدوا بي
قلت مقلي به لسان وشاة قطعوه فيه بصنع عجيب
وأضافوا اليه كبد حسود فقئت فوقها عيون رقيب

وهذا مأخوذ من كلام بعض العشاق وقد قيل له ما الذي تشتهيه . فقال أعين الرقباء وألسن الوشاة وأكباد الحساد .

وقال آخر:

لي عندهم يوم التواصل دعوة يا معشر الجلساء والندماء
أشوي بها قلوب الحاسدين بها وألسنة الوشاة وأعين الرقباء

وقال ﷺ أبغضكم إليّ المشأون بالنميمة المفرقون بين الأحبة . وقال ﷺ أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى منهم : رجل يأكل لحوم الناس ويمشي بالنميمة .

(وقال وضاح اليمني) :

فاعص الوشاة فإنما قول الوشاة هو الفتن
ان الوشاة اذا أتو ك تنصحوا ونهوك عن

(حكي) أنه غنى معن بحضرة السلطان عماد الدين زنكي صاحب الشام بقول الشاعر :

ويلي من المعرض الغضبان إذ نقل الواشي اليه حديثاً كله زور
سلمت فأزورّ يثني قوس حاجبه كأنني قوس خمر وهو مخمور

فاستحسنها السلطان وقال : لمن هما . فقيل : لابن منير فأمر بإحضاره ليتخذه نديماً ويحله من حضرته مقاماً عظيماً .

(وقال السري) :

وألقاك بالبشر الجميل مداهناً فلي منك خلّ ما علمت مداهن
أنمّ بما استودعته من زجاجة يرى الشيء فيها ظاهراً وهو باطن

وقال شهاب الدين الأثير :

اني بحبك مستهـــام مغرم وسوى هواك على القلوب محرم
لا تسمعي قول الوشاة فإنهم زادوا الكلام ونقصوه وتمموا
فمناي أن ترضي ولو بمنيتي أي والطلاق ثلاثة لي يـــلزم

وقال آخر:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستبح دم الحجاج في الحرم
خصاله لست أحصيها لكثرتها لكنها جمعت في نون والقلم

يشير الى قوله تعالى هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم وجـــاء في التفسير ان الهماز الذي يهمز الناس أي يذكرهم بالمكروه ويأكل لحومهم بالطعن والغيبة .

وعن الحسن هو الذي يلوي شدقيه في أقفية الناس وقيل الهمزة المؤاخذ بالمواجهة واللمزة بظهر الغيب وقيل بالعكس وقيل الهمزة جهراً واللمزة سراً بالحاجب والعين والنمام ناقل الكلام السيء وقد اكثرث الشعراء من ذمـــه وخالفهم ابن رشيق فقال :

لم كره النمام اخواننـــا أساء اخـــواني وما أحسنوا
ان كان نماماً فمعكوسه من غير تكذيب لهم مأمن

وقال آخر :

اسمع نصيحة عارف جمع النصيحة والفقه

إياك واحذر ان تكو ن من الثقاة على ثقة

وقال آخر :

ومجلس راق من واش يكدره ومن رقيب له باللوم ايـلام
مافيه ساع سوى الساقي وليس به بين الندامى سوى الريحان نمام

وقال آخر:

لافتضاحي في عوارضه سبب والناس لوام
كيف يخفي ما أكابده والذي أهواه نمـام

وقال الشيخ صدر الدين بن الوكيل :

أخفيت حبك عن جميع جوارحي فوشت عيوني والوشاة عيون
ووددت ان جوانحي وجوارحي مقل تراك وما لهن عيـون
يا ليت قيساً فى زمان صبابتي حتى أريـه العشق كيف يكون

*

الباب الخامس عشر

في العتاب عند اجتماع الاحباب وما في معني ذلك من الرضي والعفو عن ما مضى

أقول هذا باب عقدناه لذكر معاتبة الذ من الأماني وبث هوى أرق من النسيم المتواني نعم في العتاب فوائد جمة وإزالة كرب فلا يكن امركم عليكم غمه وهو على أقسام عتاب هو في تأكيد المودة يحصل الحاصل وعتاب لتكذيب الناقل وعتاب التمييز الحق من الباطل ومن العلوم ان للعتاب بين الاحباب اصلاً وفضلاً وقطعاً ووصلاً لا بد منه ولا غناء عنه اللهم إلا عند من لا يراه البتة ولا يعاتب الحبيب إلا فلتة كالبحتري حيث يقول :

أعاتب الحب فيما جاء واحدة ثم السلام عليه لا أعاتبه

وفي أمثال العرب أسوأ الآداب كثرة العتاب :

وقال الأحنف :

العتاب مفتاح التقالى والعتاب خير من الحقد .

(وقد قال بشار في تقليل العتاب) :

اذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
اذا كنت لم تشرب مراراً على القذي ظمئت وأي الناس راقت مشاربه

(وقال سعيد بن حميد الكاتب) :

أقلل عتابك فالبقاء قليل والدهر يعدل مــرة ويميل
ولعل أيام الحيـاة قصيرة فعـلام يكثر عتبنـا ويطول

وقال آخر:

وبعض العتاب اذا ما رفعت يباعد هجر أو يدلي وصالا
فعاتب أخـاك ولا تجفه فان لكل مقام مقـالا

(ومن أظرف ما سمعته في من جفى من الأحبـاب ثم بادر بالعتـاب قول بعضهم) :

عتبت عليّ ولا ذنب لي بما الذنب فيه ولا شك لك
حاذرت لومي فبادرتني الىاللوم من قبل ان أبدرك
فكنا كما قيل فيا مضى خذاللص من قبل ان يأخذك

(ومنهم) من يكره العتـاب جملة ويقول وهو مفتـاح الهجر ووسيـلة الصدود .

والقطيعة كما قيل :

لا تقـر عن سمـاع من تهوى بتعداد الذنوب
ما ناقش الأحباب إلا من يعيش بلا حبيب

ومنهم من يراه ولا يأباه كما قيل :

تصالح عاشقان على عتاب فما افترقا الى يوم الحساب
فلا عيش كوصل بعد هجر ولا شيء ألذ من العتاب
فلا هذا يمل حديث هذا ولا هذا يمل من الجواب

وقال آخر.

وأحسن أيام الهوى يومك الذي تروّع بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا فأين حلاوت الرسائل والكتب

كتب الحسن الى غلام كتاباً يستعطفه فوقع الغلام في كتابه يزاد هجراً الى يوم القيامة فقال الحسن :

كتبت الى الحبيب ببيت شعر اعاتبه فاغضبه جوابي
اجبني يا ملول على كتابي فأن النفس تسكن بالجواب
فوقع في الكتاب يزاد هجراً وابعاداً الى يوم الحساب

(وذكرت هنا قول ابن رشيق)

وقلبي من بني الكتاب يسبي قلوب العاشقين بمقلتيه
رفعت إليه استقضي رضاه واسأله خلاصاً من يديه
فوقع قد رددت فؤاد هذا مسامحة فلا يعدى عليه

(وقال الشيخ العلامة أبو الثناء شهاب الدين محمود مضمناً) .

وبتنا على حكم الصبابة مطمعي زفيرى وأحشائي وشربى المدامع
وحبي يعاطيني كؤس ملامة وينشدني والهم للقلب صادع
اتطمع من ليلى بوصل وإنما تقطع اعناق الرجال المطامع
فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقع

قلت هذا التضمين فيه نظر وعبرة لمن اعتبر وكيف لا وقد مزج قائله السم بالرضاب والحق الحبيب بالحباب فاصبح وقد ضاقت عليه الحيلة وشبه ثغر محبوبه بانياب ضئيلة فقابل صفو عتابه بالكدر فيا قلبه القاسي أحديد أنت أم حجر وما أظنه ملا كؤس هذا الملام إلا من ماء ملام أبي تمام حيث تجاوز الحد في الاستعارة وخرج وعلى كتفه من الملام كاره فقال .

لا تسقني ماء الملام فأنني صب قد استعذبت ماء بكائي

فهلا تنزه عن الانخراط في هذا السلك واقتدى بقول ابن سنا الملك .

وأملى عتاباً يستطاب فليتني أطلت ذنوبي كي يطول عتابه
وفي غزلي ذكر العذيب وبارق وما هو إلا ثغره ورضا به

أو تخلق بأخلاق الناس وتأسى .

بقول أبي فراس .

أساء فزادته الإساءة حظوة حبيب على ما كان منه حبيب

يعد على الواشيات ذنوبه ومن أين للوجه المليح ذنوب

على أنه رحمه الله يجوز أن يكون قصدمعنى جليل القدر فحينئذ يكون كلامي حديث خرافة يا أم عمرو .

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم .

(وقال آخر) .

وإذا الحبيب اتى بذنب واحد جاءت محاسنه بالف شفيع

(وأحسن منه) قول عتيق بن محمد الوراق .

كلما اذنب أبدى وجهه حجة فهو مليّ بالحجج
كيف لا يفرط في اجرامه من إذا شاء من الذنب خرج

(وقال الحكم بن قنبر المازني) .

كإنما الشمس من اعطافه لمعت حسناً والبدر من أزراره طلعا
مستقبل بالذي يهوى وان كثرث منه الاساءة معذور بما صنعا
في وجهه شافع يمحو اساءته من القلوب وجيه حيثما شفعا

وهذا مأخوذ من قول ابي نواس فى سياقه .

وجهي إذا أقبلت يشفع لي وبلاء طرفك حسن ما خلفي

وفيه زيادة بذكر ما خلفها ولكن بيت الحكم بناء وأعذب ثناء .

(وقال ابو فراس) .

قل لأحبابنا الجناة علينا درجونا على احتمال الملال
أحسنوا في فعالكم أو اسيؤا لا عدمناكم على كل حال

(وقال أيضاً) .

الا أيها الجاني ونسأله الرضا ويا أيها المخطي ونحن نتوب
لحا اللهمن يرعاك في القرب وحده ومن لا يرد الغيب حين تغيب

وقال الآخر :

إذا مرضنا أتينـاكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم فنعتـذر

(وقال الآخر) .

وإذا ما غضبت يوماً عليه لذنوب يطـول فيها المقـال
عطفتني عواطـف الحب حتى أترضـاه كي يزول المـلال

(وقال الآخر) .

حججي عليك إذا خلوت كثيراً وإذا حضرت فـأنني مخصوم
لا استطيع أقـول أنت ظلمتني والله يعـلم انني مظـلوم

(وقال القراء) .

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى فؤادي ولكن للعتاب مواضع .

(وقال ابن المعتز) .

اقبل معاذير من يأتيك معتذراً ان بر عندك فيما قـال أو فجراً
فقد اطاعك من يرضيك ظاهره وقد اجلك من يعصيك مستترا

(وقلت انا من رسالتي قرع الباب وبأنتظار الجواب) فنعوذ باللهمن زلة العاقل وتبرأ اليه من التمادي في الباطل .

وهذا الحق ليس به خفاء فدعني من بنيات الطريـق
فقد حصحص الحق وقرع العتاب حلقة الباب فقال طق .

(وقال الآخر) .

وهبه أرعوىبعدالعتاب ألم تكن مودته طبعاً فصارت تـكلفا

وكأنني بمولانا وقد وقف على عتبة العتاب وقال من دق الباب سمع الجواب فأجابهم .

فان كنتم تلقون في ذاك كلفة دعوني امت وجداً ولا تتكلفوا

فصل قي العفو والرضا
والصفح عما مضى

جاء عن علي رضى الله عنه في قوله تعالى فاصفح الصفح الجميل انه الرضا بغير عتاب وقال تعالى وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم وقال ﷺ من لم يقبل من معتذر صادق وكاذب لم يرد على الحوض .

(وقال الشاعر) :

ذنبي اليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك اولاً فاصفح بفضلك عنه
ان لم أكن في فعالي من الكرام فكنه

(وقال آخر) :

ما أحسن العفو من القادر لا سيما عن غير ذي ناصر
يا غاية القصد وأقصى المني وخير مرعى مقلة الناظر
ان كان لي ذنب ولا ذنب لي فما له غيرك من غافر
أعوذ بالود الذي بيننا أن تفسد الأول بالآخر

(كان) أبو محمد اليزيدي ينادم المأمون فغلب عليه الشراب ذات ليلة فعربد فأمر المأمون بحمله الى منزله برفق فلما أفاق استحيا وانقطع عن الركوب أياماً فلما طال عليه ذلك كتب الى المأمون ابياتاً منها .

انا المذنب الخطاء والعفو واسع ولو لم يكن ذنب لما عرف العفو
سكرت فأبدت مني الكأس بعض ما كرهت وما ان يستوى السكر والصحو

ولا سيما أن كنت عند خليفة وفي مجلس ما ان يجوز به اللغو

فلما قرأها المأمون وقع في الرقعة سر الينا فقدعفونا عنك فلا عتب عليك وبساط النبيذ يطوي معه أخذه الشاعر فقال :

إنمـــا مجلس الشراب بساط فإذا مـــا انقضى طوينا بساطـه

(وقال ابن سنا الملك) :

وأما ذلك الحبيب فأنه حضر متفضلاً وجاء متذللاً لامتدللا واستجـــار بحرم الحرمه وخفض جناح الذل من الرحمة واعتذر بأن الادلال دلاه بغرور واوقعه في أمور واخرجه من الظلمات الى النور فقبل عـــذره وقبل ثغره وامتثل أمره وثنى عنان القلب اليه حسن تثنيه وأذهبت حلاوة جني ريقـه مرارة تجنيه .

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محـــاسنه بألف شفيع

وقال الآخر :

وزعمت أني ظـــالم فهجرتني ورميت في قلبي بسهم نافـــذ
فنعم ظلمتك فاعذري وتجاوزي هـــذا مقام المستجير العائـد

وقال ابن زيدون :

يا قمر مطلعـه المغرب قد ضاق بي في حبك المذهب
ألزمتني الذنب الذي جئتـه صدقت فاصفح انني المذنب
فان من أغرب مـــا مرّ بي أنّ عذابي فيك مستعذب

وقال آخر:

وما قابلت عفوك باعتـذار ولكنني أقول كما تقول
سأطرق باب عفوك باعتذار ويحكم بيننا الخلق الجميل.

الباب السادس عشر

في اغاثة العاشق المسكين اذا وصلت العظم السكين

أقول هذا باب عقدناه لذكر أكثر النـــاس فتوّة واغزرهم مروّة وأرقهم قلباً وأحسنهم مربى ممن أصبح بين المحبين قديم هجر وهجرة وامسى له بكؤس المحبة ألف سكرة لا جرم انه اعان ذوي المحبة ووازن بنفسه من في قلبه من الغرام مثقال حبة فسعى في اصلاح حاله وساواه بنفسه وماله والله القائل في هذا المعنى .

قف مشوقاً أو مسعداً أو حزيناً أو معيناً أو عاذراً أوعذولاً فان كنت خالياً من ذلك كله .

أعني باطماع كذوب على النوى إذا لم تقاتل يا جبان فشجع قلت أو لا أقلّ من ذلك يا ابنة مالك والله القائل في ذلك :

لو تعلم الناس من شوقي ومن كافي ما بت اعلمه استسقوا بميعاد
واستشفعوا لي الى ألفي بأجمعهم وجاء عائدهم في ذى قوّاد

(ومن اعجب) ما سمعته فياغاثة العاشقوالأخذ بثأره وما حكاه الجاحظ قال بلغني ان عاشقاً مات بالهند عشقاً فبعث ملك الهند الى المعشوق فقتله * وقال الخرائطي كان رجل نحاس عنده جارية لم يكن له سلوة غيرها وكان يعرضها في المواسم فتغالي الناس فيها حتى بلغت مبلغاً كثيراً من المال وهو يطلب الزيادة فعلقها رجل فقير فكاد عقله أن يذهب فلما بلغه ذلك وهبها له فعوتب في ذلك فقال أني سمعت الله يقول ومن أحياها فكأنما أحيا الناس

جميعاً أفلا أحيي الناس جميعاً .

(وحكى) الخرائطى أنه كان لبعض الخلفاء غلام وجارية من غلمانه وجواريه متحابين فكتب الغلام اليها يوماً .

ولقد رأيتك في المنام كأنما عاطيتني من ريق فيك البارد
وكأن كفك في يدي وكأننا بتنا جميعاً في فراش واحد
فطفقت نومي كله متراقدا لأراك في نومي ولست براقدا

فأجابته الجارية :

خيراً رأيت وكل ما ابصرته ستناله مني برغم الحاسد
اني لأرجو أن تكون معانقي فتبيت مني فوق ثدي ناهد
وأراك بين خلاخلي ودمالجي وأراك فوق ترائبي ومجاسدي

فبلغ الخليفة خبرهما فانكحها وأحسن اليهما على شدة غيرته .

(وقال) أبو الفرج بن الجوزي سمع المهلب فتى يتغنى في جارية له فقال المهلب .

لعمري اني للمحبين راحم واني ببر العاشقين حقيق
سأجمع منكم شمل ودّ مبدّد واني بما قد ترجوان خليق

ثم وهبها له ومعها خمسة آلاف دينار (وروى) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه انه جاءته جارية تستعدي على رجل من الأنصار فقال لها عثمان ما قصتك فقالت يا أمير المؤمنين أحب أبن أخيه فما أنفك اراعيه فقال له عثمان أما أن تهبها لأبن أخيك أو اعطيك ثمنها من مالي فقال أشهدك يا امير المؤمنين أنها لأبن أخي * وأتى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بغلام من العرب وجد في دار قوم بالليل فقال له لست بسارق ولكني أصدقك .

تعلقت في دار الرياحي خودة يذل لها من حسنها الشمس والبدر
لها في بنات الروم حسن ومنصب إذا افتخرت بالحسن صدقها الفخر

فلما طرقت الدار من حر مهجة أبيت وفيها من توقـدها جمر
تبادر اهل الدار بي ثم صيحوا هو اللص محتوماً له القتل والأسر

فلما سمع عليّ شعره رق له وقال للمهلب اسمح له بها ونعوضك عنها فقال يا امير المؤمنين اسأله لنعرف نسبه فقال النهاش بن عتبة العجلي فقال خذها فهي لك .

(وحكى) التميمي في كتابه امتزاج النفوس انّ معاوية بن ابي سفيان اشترى جارية من البحرين فاعجب بها اعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها .

وفارقته كالغصن يهتز في الثرى طريراً وسيما بعدما طرشار به فسألها فقالت له هو ابن عمّ لي فردّها اليه وفي قلبه منها شرر النيران وذكر الخوائطي أن المهدي خرج الى الحج حتى إذا كان بزبالة وجلس يتغدى إذا بشاب بدوي دخل عليه وبكى وقال يا أمير المؤمنين اني عاشق ورفع صوته فقال للحاجب ويحك ماهذا قال انسان يصيح اني عاشق قال أدخلوه فأدخلوه فقال من عشيقتك قال ابنة عمي قال ألها أب قال نعم قال فماله لايزوجك بها قال ههنا شيء يا امير المؤمنين قال ما هو قال اني هجين والهجين الذي أمة ليست بعربية قال له المهدي فما يكون قال انه عندنا عيب فأرسل في طلب أبيها فأتى به فقال هذا ابن أخيك قال نعم قال فلم لا تزوّجه كريمتك فقال له مثل مقاله ابن اخيه وكان من أولاد العباس عنده جماعة فقال هؤلاء كلهم بنو العباس وهم هجن فما الذي يضرهم من ذلك قال هو عندنا عيب فقال له المهدي زوّجه إياها على عشرين ألف درهم عشرة آلاف للعيب وعشرة آلاف مهرها قال نعم فحمد الله واثنى عليه وزوجه اياها واتى ببدرتين فدفعها إليه فأنشأ الشاب يقول :

ابتعت ظبية بالغلاء وإنما يعطي الغلاء لمثلها أمثالي
وتركت اسواق القباح لأهلها ان القباح وان رخصن غوالي

وعرض خالد بن عبد الله القسري سجنه يوماً فكان فيه يزيد بن فلان العجلي فقال له خالد في أي شيء حبست يا يزيد قال تهمة اصلح الله الامير قال إفتعود ان اطلقتك قال نعم ايها الأمير وكره ان يعرض بقصته لئلا يفتضح معشوقه، فقال خالد حضروا رجال الحيّ حتى نقطع يده بحضرتهم وكان ليزيد أخ فكتب شعراً ووجه به الى خالد .

اخالد هذا مستهام متيم رمته لحاظ انه غير سارق
اقر بما لم يأته المرء انه رأى القطع خيراً من فضيحة عاتق
ولو الذي قد خفت من قطع كفه لا لفيت في أمر له غير ناطق
إذ ابدت الرايات للسبق في العلا فأنت ابن عبدالله اول سابق

فلما قرأ خالدالأبيات علم صدق قوله فأحضر أولياء الجارية فقال زوّجوا يزيد فتاتكم فقالوا اما وقدظهر عليه ما ظهر فلا فقال ان لم تزوّجوه طائعين لتزوّجونه كارهين فزوّجوه ونقد خالد المهر من عنده (وذكر) احمد بن الفضل الكاتب ان غلاماً وجارية كانا في كتاب فهواها الغلام فلم يزل يتلطف بمعلمه حتى صيره قريباً منها فلما كان في بعض أيامه في غفلة من الغلمان كتب في لوح الجارية .

ماذا تقولين فيمن شفه سقم من طول حبك حتى صار حيرانا

فلما قرأته الجارية اغرورقت عيناها بالدموع رحمة له وكتبت تحته :

إذا رأينا محباً قد اضرّ به طول الصبابة أو ليناه احسانا

فجاء المعلم فسمع ذلك منهما فأخذ اللوح وكتب هذين البيتين .

صلي العريف ولا تخشين من أحد امسى العريف صغير السن ولهانا
أما الفقيه فلا يسطو عليه أذى فأنه قد بلي بالعشق الوانا

وذكر الخرائطي عن أبي عساف قال مر أبو بكر رضى الله عنة بجارية وهي تقول :

وهويته من قبـــل قطع تمائمي   متماشياً مثــل القضيب الناعم

فسألها أحرة أنت أم مملوكة فقالت مملوكة فقال من هواك فتلكـأت فاقسم عليها فانشدت .

وانا التي لعب الغرام بقلبهـــا   قتلت بحب محمــد بن القاسم

فاشتراها من مولاهاوبعث بها الى محمدبن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال هؤلاء فتن الرجـــال فكم والله قد مات بهنّ كريم وعطب بهن سليم ودخلت عزة على ام البنين أخت عمر بنْ عبد العزيز وكانت من العابــدات فقالت لها ما معنى قول كثير :

قضى كل ذي دين فوفى غريمـــه   وعزة ممطـول معنى غريمها

ما كان هذا الدين قالتوعدته قبلة ومطلته ثم خرجت منها فقالت انجزيها وعليّ اثمها (حدث) محمد بن عبد الله بن ابي مليكة عن أبيه عن جــده قال دخل عبد الرحمن ابن ابي عمار وهو يومئذ فقيه الحجاز على نخاس يعرض جواري فعشق منهن واحدة واشتهر بذلك حتى مشى إليه عطـاء وطاوس ومجاهد يدلونه فكان جوابه .

يلومني فيـك أقوام أجـالسهم   فما ابالي اطار اللوم أم وقعـا

فانتهى خبره الى عبد الله بن جعفر فلم يكن همه غيره فبعث الى سيـد الجاريه فاشتراها منه بأربعين ألف درهم وأمر قيمة جواريه أنتطيبها ففعلت ودخل الناس عليه فقال مالي لا أرى ابن أبي عمار فاخبر انــه منقطع في منزله لفرط ما به فأتاه ابن جعفر فلما رآه أراد أن ينهض فاستجلسه وقال له ما فعل حبّ فلانه قال هو في اللحم والدم والعصب والعظام قال اتعرفها ان رأيتها قال أو اعرف غيرها قال فأنا قد ضممنا إليها واحدة والله مانظرت اليها وامر بها فخرجت فيالحـــال اليها فقالهي هذه قال نعم بأبى أنت وأمى قال فخذ بيدها فقد جعلتها لك أرضيت قال أي والله وفوق الرضا فقال له ابن جعفر لكن والله لا أرضى ان اعطيكها هكذا احمل اليه يا غلام مائـة ألف درهم .

الباب السابع عشر في ذكر دواء علة الجوى

أقول هذا باب عقدناه لذكر دواء الحب الذي أعجز أهل الطب فهم فيه حيارى سكارى وما هم بسكارى على أن الذي اجمعوا عليه وأشاروا إليه أنه لا شفاء من هذا الداء العضال إلا بطيب الوصال مثل غمز النهدين وقرع الشفتين والتصاق البدنين .

رأيت الحبّ ليس لـه دواء سوي وضع الصدور على الصدور

ولا سيما ممن بدت نهوده وتوردت خدوده وعذب مذاقه وطاب عناقه .

اعانقه والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد العناق تـداني
والثم فـاه كي تزول حرارتي فيشتد مـا القى من الهـيمان
كـأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى ان ترى الروحان يمتزجان

وقال الآخر :

شفـاء الحب تقبيل وشمّ ووضـع للبطون على البطون
ورهز تذرف العينان منـه وأخـذ بالمنـاكب والقرون

وقال آخر :

اسقم قلبي ثم لم يـبره عاقـد زنار على خصره
لا تلتقي روحي مع جسمه حتى أرى صدري على بطنه

وقال أبو جعفر العدوي :

فسكر الهوى أدوى لعظمى ومفصلي إذا سكر الندمان من لذة الخمر

وأحسن من قرع المثاني ونقرها تراجع صوت الثغر يقرع للثغر

(وقال أبو دهقان) :

حدثنا عن بعض أشياخه أبو هلال شيخنا عن شريك
لا يشتفي العاشق مما به بالشم والتقبيل حتى ....

وقال في الأغاني قال أبو العيناء أنشدت أبا العير قول المأمون :

ما الحب إلا قبل وغمز كف أو عض
ومن لم يكن ذا حبه فإنما يبغي الولد
ما الحب إلا هكذا ان نكح الحبّ فسد

فقال كذب المأمون وأ كل من ... رطلين وربعاً بالميزان وأخطأ وأساء الأدب هلا قال كما قلت انا .

وباض الحب في قلبي فوا ويلا إذا فرّخ
وما ينفعني الحب إذا لم أكسر البربخ
وان لم يطرح الاصلع فزجيه عن المطبخ

ثم قال لي كيف رأيت قلت عجباً من العجب قال كنت ظننت انك تقول غير هذا قابل يدي فارفعها قلت قول المأسون ان نكح الحب فسد هذا على قول من يرى ذلك كما ذكر المرزباني ان أعرابياً قال علقت أمرأة كنت آتيها فأخذتها وما جرت بيننا ريبة قط إلا أني رأيت بياض كفها في ليلة ظلماء فوضعت يدي على يديها فقالت مه لا تفسد ما صلح فانه ما نكح الحب الا فسد * وحكى عن بعض الأدباء انه كان يعشق جارية فقالت أنت صحيح الحب كامل الوفاء فقال نعم قالت فامض بنا حيث شئت فلما حصل في منزله لم يكن همه إلا أن رفع ساقيها وجعل يجامعها بجميع جوارحه فقالت له وهي في القالب .

اصرفت في نيـ... والـ... مصلحة فارفق بفضلك أن الرفق محمود
فأجابها وهو في عمله لا يفتر :

ولم أ... ذ... من تبقى مودتـه لكن ذ... هذا ذ... مجهود

فنفرت من تحته وقالت يا فاسق أراك على خلاف ما قلت كأنك تجعل جماعي سبباً لذهاب حبك والله لا جمعني وإياك سقف بعد هذا أبداً وعلى هذا القول جماعة أعني أن الحب إذا نكح فسدومنهم من قال لا يستحكم الحب الا بعد ايقاع الوطء وانه إذا وقع الوطء ازدادت المحبة ويسمونه مسمار المحبة كما قيل:

لم يصف حب لمعشوقين لم يذقـا وصلا يحل على كل اللذاذات

(وقال هدبة بن الخشرم) :

والله ما يشفى الفؤاد الهائما نفث الرقي وعقدك التمائما
ولا الحديث دون ان تلازما وتعلق القوائم القوائما

وقال آخر :

قولا لعاتكة التي في نظرة قضت الوطر
اني أريدك للنكاح ولا أريدك للنظر
لو كنت مقتنعاً بذ لك كان هذا للقمر

كان زهير بن مسكين يهوى جارية واستهام بها فلما أمكنته من نفسها لم تر عنده ما يرضيها فذهبت ولم ترجع اليه بعد فقال فيها أشعاراً كثيرة منها:

تقول وقد قبلتها ألف قبلة كفاك أما شيء لديك سوى القبل
فقلت لها حب على القلب حفظه وطول سهاد تستفيض له المقل
فقالت وأيم الله ما لذة الفتى من الحب في قلب يخالفه العمل

وأما نكاح الطيف فاختلفوا فيه فذهب أبو تمام الطائي الى انه لا يفسد الحب بخلاف نكاح الحقيقة وخالفه في ذلك جماعة ومنهم من اذا افضى الى معشوقه اقتصر على الرشف والشم والعناق دون تعرض لنكاح والمانع له من ذلك أمران احدهما التورع وعفة النفس وخوف الوقوع في الكبيرة اذا كان محبوبه ممن لا يجوز له نكاحه كما قيل :

ولرب لذة ليلة قد نلتها وحرامها بحلالها مدفوع

وقال آخر :

اتأذنون لصب في زيارتكم فعندكم شهوات القلب والبصر
لا يضمر السوء ان طال الوقوف به عف الضمير ولكن فاسق النظر

وقال آخر:

خود حرائر ما همن بريبة كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الحديث زوانيا ويصدّهن عن الخنا الإسلام

وسيأتي ما ورد في هذا المعنى في باب العفاف والثاني ما قاله العلماء في أسباب الباه وهو أن شهوة القلب ممتزجة بلذة العين وحب النفس معقود باختيار الطبائع الا أن يكون الحب تكلفا لاستفراغ ماء الشهوة فيصير الحرص على الجماع على قدر الهوى والهوى على قدر المؤانسة فمن وافقت عينه قلبه ونفسه طباعه ممن يحب تمكن حبه وارتفعت عنه شهوة الجماع فوقع فيما تكره المرأة من الرجل كما قيل :

رأت حبي سعاد بلا جماع فقالت حبلنا حبل انقطاع
اذا المحبوب لم يك ذا ممر رأى المعشوق كالشيء المضاع

وزعم بعضهم أن من جملة ما يتداوى به من لم يفز بالظفر السفر كما قال بعضهم :

اذا ما شئت أن تسلو حبيباً فأكثر دونه عدد الليالي

وقال آخر :

وقد زعموا أن المحب إذا دنا يمل وأن النأى يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على ان قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع اذا كان من تهواه ليس بذى ود

وقال الآخر :

وقالوا دواء الحب حب يزيله   لآخر أو طول التمادي على الهجر

وقال آخر :

تداويت من ليلى بليلى من الهوى   كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وذكر الحافظ أبو عبدالله البخاري في تاريخه باسناده ان محمد بن داود صنع خاتماً ونقش عليه سطرين الأول وما وجدنا لأكثرهم من عهد الثاني فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وكان اذا رأى رجلاً يلح بالنظر الى الاحداث قال له اقرأ ما على الخاتم فلعله ينتهي عن ذلك والله أعلم * وقال شمس الدين ابن الاكفاني في كتابه غنية اللبيب عند غيبة الطبيب ما نصه اذا شرب العاشق طبيخ الحرمل سلا العشق وكذلك النيلج الهندي اذا شرب منه أربع شعيرات بالماء قبل أن يتمكن منه العشق سلا وكذلك الحجر الموجود بعض الأوقات في أجواف الدجاج اذا رمي في ماء وشربه العاشق سلا وكذلك أن علق عليه أيضاً وكذلك حجر السلوان ومحكه باللبن ومن علق عليه حجر اللقق وهو عاشق سلا وان كان حزيناً زال حزنه ومن كان عاشقاً لذكر وتمرغ في مناخ بغلة زال عشقه انتهى .

* تنبيه *

التداوي بالجماع لا يبيحه الشرع بوجه ما اذا كان المحبوب ممن لا يجوز نكاحه وأما التداوي بالضم والقبلة فان تحقق الشفاء به كان نظير التداوي بالخمر عند من يبيحه بل هذا اسهل من ذاك فان شربه من الكبائر وهذا الفعل من الصغائر .

(شربة)

فيستعمل البوس والعناق والشفاه الرقاق في قاعة وايوان وبركة وشاذروان وطعام سبعة الوان وبنفسج ونرجس واس ومنثور وورد وريحان ودنان خندريس وألف دينار في كيس وجارية من بني الاتراك بساق سمين وطرفاً كحيل تستعمل هذه الحوائج على نطع أحمر ذى نقش اخضر وبعد هذا يدخل

الحمام فانه مجرب والسلام .

(شربة أخرى)

يؤخذ ثلاث مثاقيل من صافي وصال الحبيب ومثقال من عيدان الجفاء وخوف الرقيب وثلاث مثاقيل من نوي الاجتماع منقاة من غلث الهجر والانقطاع وواقية من خالص الود والكتمان منزوعة من عيدان الصد والهجران ويؤخذ عطر البخور ولثم الثغور وضم الخصور من كل واحد مثقالان ويؤخذ مائة بوسة رمانية محكوكة مرضوضة منها خمسون صفاراً سكريه وثلاثون زق الحمام وعشرون عصافيريه ويؤخذ غنج حلبي وشخير عراقي من كل واحد مثقالان ويؤخذ أوقيتان من مص اللسان ولثم الفم مع الشفتين ويدق الجميع ويخلط ويذر على وزن ثلاثة دراهم غلمة مصرية ويضاف اليها حسن الاعكان المطويه ويغلى الجميع بماء المحبة على شراب الأنس وحطب الطرب في مرجل العجلة ويصفى الجميع على معقد دمشقي سلطاني ويحل فيه أوقيتان من شراب الرضاب ويشرب على الريق ثلاثة ايام ويكون الغذاء مزورة من يقطين الأشتياق ويضاف اليها قلب لوز العناق وماء ليمون الاتفاق ويتناول بعد ذلك ثلاثة ارطال من المدام وتتبع برطلين من شيل الساقين ويدخل الحمام فانه نافع والسلام * سيف قاطع وبرق لامع ساطع فيما يتعلن بدواء علة الجوى وهو ما حكاه أرباب الرياضي في الاعداد اربعة وثمانين ومائتين وتسمى العدد المحب وصورته بالقلم الطبيعي هذه .

وحروف نقطه دفر وفي الاعداد يقال له المحبوب وهو مائتان وعشرون وصورته بالقلم الطبيعي هذه .

وحروف نقطه كر فعدد عشرين ومائتين يحبه أبداً عدد أربعة وثمانين ومائتين فاذا كان عند انسان خاتم أو لوح فضة أو ما أمكن من المعادن يكون وزنه ٢٢٠ وعند انسان خاتم ثان أو لوح زنته زنة الثاني من العددين فان الذي عنده أربعة وثمانون ومائتان يحب الذي عنده عدد عشرين ومائتين فان أردت الاستعطاف وجذب القلوب وأخذ النفوس فاكتب في رقعة صورة

الاعداد الاربعة وثمانين ومائتين بالقلم الطبيعي المتقدم صفته واكتب في رقعة أخرى صورة الأعداد المائتين وعشرين وأمسك الرقعتين بين اللذين قدتباغضا فانهما يتحابان وما يكون بينهما شر ما دامت الرقعتان معهما فان لم يمكن ذلك فالق الرقعتين في حق نظيف واكتب اسم كل واحد منهما أو لقبه المشهور وضع الحق في موضع يمران عليه فانهما يتحابان وان كتبت الاعداد المتحابة بماء وسكر وسقيت كلا منهما فانهما يتحابان واعجب من ذلك انـــك تطعم انساناً قد ابغض اخر اربعة وثمانين حبةرمان ومائتين وتطعم الآخر المبغوض في ذلك الوقت بعينه مائتين وعشرين حبة من الرمان فانهما يتحابان ومما يؤكد المحبة فيما ذكر بعض الحكماء انه اذا وصلت بلة من ريق كل من المتحابين الى معدة الآخر اختلط ذلك بجميع البدن ووصل الى جرم الكبد وكذ اذا تنفس كل واحد منهما في وجه صاحبه فانه يخرج من ذلك النفس شيء يختلط باجزاء الهواء فإذا استنشقاه دخل في الخياشيم فوصل بعضه الى الدماغ فسرى فيه كسريان النوم في جرم القلب ووصل بعضه الى الرئة ثم الى القلب فدب الى العروق الضوارب في جميع البدن فينعقد من بدن هذا ما تحلل من بدن هذا فيصير مزاجاً فيتولد العشق وتتأكد المحبة قال الشيخ مغلطاي وهذا الذي أميل اليه ويوشك أن يدوم ويثبت ولا يغيره مر الليالي وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

فصل

اختلف الفقهاء هل يجب على الزوج مجامعة امرأته فقالت طائفة لا يجب عليه ذلك لأنه حق له فان شاء استوفاه وان شاء تركه بمنزلة من استأجر دار ان شاء سكنها وان شاء تركها وهذا من اضعف الأقوال لأن القرآن والسنة والعرف والقياس يردّه قال الله تعالى ولهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف فإذا كان الجماع حق الزوج عليها فهو حق لها على الزوج بنص القرآن وقال الله تعالى وعاشروهن بالمعروف ومن ضدّ المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تعدل شهوتة أو تزيد عليها باضعاف مضاعفة ولآ يذيقها لذةالوطء مرة واحدة ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه في الردّ عليه وقالت طائفة يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر وتخير المرأة بعد ذلك ان شاءت تقيم معه وان شاءت تفارقه فلو كان لها حق في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة وهو أمثل القولين مع ما فيه وقالت طائفة يجب عليه أن يطأها بالمعروف كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشروها بالمعروف قالوا وعليه أن يشبعها وطأ اذا أمكنه كما عليه أن يشبعها قوتاً وكان ابن تيمه يرجحهذا القول ويختاره قال تلميذه ابن قيم الجوزية وقد حض النبي ﷺ على استعمال هذا ورغب فيه وعلق عليه الاجر وجعله صدقة لفاعله فقال وفي بضعأحدكم صدقة ففي هذا كمال اللـــذة وكمال الاحسان وحصول الأجر وفرح النفس وذهاب أفكارها الرديئة عنها وخفة الروح وذهاب كثافتها وغلظها وخفــة الجسم واعتدال المزاج وجلب الصحة ودفع المواد الرديئة فان صادف ذلـك وجهاً حسناً وخلقاً دمثاً أي سهلاً وعشقاً وافراً ورغبة تامة واحتسا بالثواب فذلك اللذة التي لا يعادلها شيء ولا سيما اذا وافقت كمالها فانها لا تكمل حتى

يأخذ كل جزء من البدن بقسطه من اللذة فتلتذ العـــين بالنظر الى المحبوب والاذن بسماع كلامه والأنف بشم رائحته والفم بتقبيله واليد بلمسه وتنعكف كل جارحة على ما تطلبه من لذاتها ويقابله المحبوب بنظير ذلك فان فقد من ذلك شيء لم تزل النفس متطلعه اليه متقاضية له فلا تسكن كـــل السكون ولذلك تسمى المرأة سكناً لسكون النفس اليها ولذلك فضل جماع النهار على جماع الليل وله سبب آخر طبيعي وهو أن الليل وقت تبرد فيه الحواس وتطلب حظها من السكون والنهار محل انتشار الحركات فذلك قوله تعالى وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً وكان محمد بن المنكدر يدعو في صلاته ويقول اللهم قوم لي ذكري فان فيه صلاحاً لأهلي وقال عبدالله بن صالح كان الليث بن سعد إذا غشى أهله يقول اللهم شدّ لي اصله وارفع لي صدره وسهل على مدخله ومخرجه وارزقني لذته وهب لي ذرية صالحة تقاتل في سبيلك قال وكان جهورياً فكان يسمع ذلك منه وقال علي بن عاصم حدثنا خالد الحذاء قال لما خلق الله آدم وخلق حواء قال يا آدم اسكن الى زوجك فقالت حوّاء يا آدم ما اطيب هذا زدنا منه .

الباب الثامن عشر

في تعنت المعشوق على الصب المشوق وغير ذلك من أقسام الهجر وصبر القابض فيه على الجمر

أقول هذا باب عقدناه لذكر التجني وقول المحبوب إليك عني فهو باب لمن مر به حلو المذاق عطر الخلاق بالاتفاق لا يعرف طعمـــه إلا من ذاقه وعرف وصل الحبيب وفرقه ولم تزل العشاق تستحلى تجني الحبيب وتقول :

ضرب الحبيب زبيـب　　　شرط المحبة عند أرباب الهوى

ان المليح على التجني يعشق لا يصدهم حد ولا يقفون من سيوف اللحاظ عند حد فكم رأوا جور الحبيب عدلاً وقالوا لخده اذا أقبل أهلاً وسهلاً لا يأخذهم فيه لومة لائم ولا يعدون جور بارد الظلم من المظالم :

من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه　　　حلواً فقد جهل المحبة وأدّعى

والعلم المشهور في هذا الباب قول عليه بنت المهدي :

جبـــل الحب على الجور فلو　　　أنصف المحبوب فيه لسمج
ليس يستحسن في شرع الهوى　　　عاشق يحسن تأليف الحجج

كأنها ذهبت في البيت الأوّل الى قول العباس بن الأحنف :

وأحسن أيام الهوى يومك الذي　　　تروع بالهجران فيه وبالعتب
اذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا　　　فأين حلاوات الرسل والكتب

وقد زاد النميري على هذا فقال :

راحـــتي في مقالة العذال .

وشفائي في قولهم لا تغال لا يطيب الهوى ولا يحسن الحب لصب لصب إلا بخمس خصال :

بسماع الأذى وعذل نصيح وعتاب وكاشح ومطال

وقال جميل بن معمر :

لا خير في الحب وقفاً لا تحركه عوارض اليأس أو يرتاحه الطمع
لو كان لي صبرها او عندها جرعي لكنت املك ما آتى وما أدع

ومن أبلغ ما قيل في عنت الأحباب قول بعض الأعراب في محبوبته :

شكوت فقالت كل هذا تبرما بحبي أراح الله قلبك من حبي
فلما كتمت الوجد قالت تمنتا صبرت وماهذا بفعل شجى القلب
وادنو فتقصيني فأبعد طالبـــاً رضاها فتعتد التباعد من ذنبي

فشكواي تؤذيها او صبري يسوءها وتجزع من بعـــدي وتنفر من قربي
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها اشيروا بها واستوجبوا الاجر من ربي :

وقد قسموا الهجر على أربعة اقسام فقالوا هجر دلال وهجر ملال وهجر مكافأة على الذنب وهجر يوجبه البغض المتمكن في الصدور فأما هجر الدلال فهو ألذ كثير من الوصال وعليـــه عقدت هذا الباب قال كشاجم :

لولا اطراد الصيد لم تك لذة فتطاردي لي بالوصال قليلا
هذا الشراب أخو الحياة وماله من لذة حتى تصيب غليلا

(وقال المتنبي) :

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه وفي الهجر فهو الدهر يخشى ويتقي

وقال ايضاً :

زيدي أذى مهجتي أزدك هوى ... فأجهل الناس عاشق حاقد

وقال آخر :

لئن ســـاءني ان نلتني بمساءة ... لقد سرني اني خطرت ببالك

ويستحب لمن وسم بالجمال وأخذ بقلوب النساء والرجال ان يكون كثير التذلل قليل التبذل .

فقد قال ابن وكيع :

قالوا عشقت كثير التيه ممتنعا ... فقلت هيهات عنكم غاب أطيبه
لو جاد هان وقلت الجو دعاته ... وإنما عز لما عز مطلبه

فاذا تبذّل وأجاب كل من دعاه صار عرضة للظنون لان النفس الحرة لا تنفك عن غيره وقد قال العباس ابن الأحنف :

يا قوم لم أهجركم لملالة ... مني ولا لمقال واش حاسد
لكنني جربتكم فوجدتكم ... لا تصبرون على طعام واحد

وأما هجر الملال فيثبطه مرور الأيام والليالي أما بتنائي الدار أو بطول الاختبار .

حكي أن متيم الهاشمية لما اشتراها على ابن هشام حظيت عنده واحبها حباً شديداً فاتفق انها غضبت علية في وقت من الأوقات وتمادت في غضبها فترضاها فلم ترضَ فكتب اليها الادلال يدعو الى الملال ورب هجر دعا الى الصبر وانما سمى القلب قلباً لتقلبه وقد صدق عندي قول العباس بن الاحنف :

ما أراني إلا سأهجر من ليس ... يراني اقوى على الهجران
ملني واتقى بحسن اخاء ... ما أضر الأخاء بالانسان

فلما قرأت الرقعة خرجت اليه من وقتها ورضيت وأما الهجر الذي يتولد عن الذنب فالتوبة تزيله من القلب عند الاعتراف بالذنب ولاسيما اذا كان المحبوب

ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء
يتقي الله في الحب وقد أفلـ ـح من كان همه الاتقاء

وأما الهجر الذي يوجبه البغض الطبيعي فهو الذي لا دواء له قال الحصري وهذا لا يصح بين ذوي الاخلاص وذوي الاختصاص إذ حقيقة المشاكلة تمنعه وصحة المناسبة تدفعه والذي أقوله أنا ايضاً ان هذا القسم مرضه مما لا يمكن علاجه ولا يعذب أجاجه فالمحبوب فيه لا يلام ومحبته كمن يرقص في الظلام ويسلم على من لا يرد عليه السلام :

أحبابه كم يفعلون بقلبه ما ليس يفعله به أعداؤه

أخذه الأرجاني فقال :

أأحبابنا لم تجرحون بهجركم فؤاد يبيت الدهر بالهم مكمدا
إذا اردتوا قتلي وأنتم أحبة فلا فرق ما بين الأحبة والعدا

وقال آخر :

يطالبني قلبي بكم كل ساعة إذا أفلس المديون لج المطالب
ويشتاقكم شوق الذي مسه الظما وقد منعت ظلماً عليه المشارب
اذا اردتوا قتلي وأنتم أحبة إذا فالأعادي واحدو الحبائب

الباب التاسع عشر

في الدعاء على المحبوب وما فيه من الفقه المقلوب

كقولي :

دعوت من الحبيب بعشق ظبي	يقاسي منه أنواع الجفاء
فواصله وبالـغ في صدودي	فكان اذا على نفسي دعائي

أقول هذا باب عقدناه لذكر من قارب حلول رمسه وأراد أن يدعو على روحه فدعا على نفسه فهو يتشهى ويشتكي ويتشفى وينتكي لا يثبت على حال ولا يفرق بسيف اللحظ بين الماضي والحال فبينا هو يشكو من محبوبه إذا هـو يشكو إليه وبينا هو يدعو له إذا هو يدعـو عليه فمن أحسن ما قبـل في الدعاء للمحبوب قول بلدينا محمد بن العفيف التلمساني رحم الله شبابه وجعل من الرحيق المختوم شرابه أعز الله أنصار العيون :

وخلد ملك هاتيك الجفون	وضاعف بالفتور لها اقتداراً
وان تك أضعفت عقلي وديني	وصان حجاب هاتيك الثنايا
وان ثنت الفؤاد إلى الشجون	واسبغ ظل ذاك الشعر يوماً
على قديه هيف الغصون	وخلد دولة الاعطاف فينا

وان جارت على القلب الطعين وقوله أيضاً :

أدام الله أيام الوصال	وخلد عمرها تيك الليالي

واسبــغ ظل اغصان التواني | وزاد قدودها حسن أعتدال
ولا زالت ثمار الانس فيها | تزيد لطافــة في كل حال
ولا برحت لنا فيها عيون | تغازل مقلتي خشف الغزال

وقال علاء الدين على بن المظفر الكندي :

ادام الله أيام العذار | وبارك في لياليه القصار
وأغنى الله روضة كل خد | اذا استحيت عن الديم الغزار
ولا زالت مباسم كل ثغر | لشائم برقها ذات افترار
ولا برحت على العشاق تضفو | ثياب العار في خلع العذار

وقال ابن ابي الحديد :

لا عانقتك من البرية كلها | الأيدي اليمنى وبندقبا كا
كلا ولا رشفت رضابك بعدما | قد ذقته من فيك إلا فا كا

وقال آخر :

يا رب ان قدرتة لمقبل | غيري فللمسواك أو للاكؤس
واذا قضيت لنا بصحبة ثالث | يا رب فلتك شمعة في المجلس
واذا حكمت لنا بعين مراقب | يا رب فليك من عيون النرجس

ومن أحسن ما قيل في الدعاء على المحبوب قول شهاب الدين بن غانم :

والله ما أدعو على هاجري | الا بأن يمن بالعشق
حتى يرى مقدار ما قدجرى | منه وما قــد تم في حقي

وقال الآخر :

ياذا الذي كل يوم | يزيد عقلي خبالا
ولهتني فية حتى | أعاد رشدي ضلال
أدعو عليك وقلبي | يقول يا رب لالا

وقال الآخر وأحسن ما شاء :

قد قلت لامت حتى   أراك في العشق مثلي
وقلت في السرمني   يا رب لا تستجيب لي

وقال الآخر :

أيها المعرض صفحاً   عن خطابي وجوابي الضياع
لا أزال الله عمرى   او يريني بك ما بي
رب فأجعله دعاء   خائباً غير مجاب
رق قلبي ان يرى   قلبك في مثل عذابى

وقال الآخر :

يا رب ان لم يكن في وصلة طمع   ولم يكن فرج من طول جفوته
فاشف السقام الذى في طرف مقلته   واستر ملاحة خدّيه بلحيته

وقال الآخر :

كم جفاني فرمت أدعو عليه   فتوقفت ثم ناديت ذاهل
لاشفى الله طرفه من سقام   وأراني عذاره وهو سائل

وقال ابن سنا الملك :

أسر لطول أسري في يديه   فيغضب إذ أسر لطول اسري
سألت الله ان يبلى بعشق   فيصبح عاشقاً لكن لهجري

وقال ابن وكيع :

ان كنت تعلم ما بي   وأنت بي لا تبالي
فصار قلبك قلبي   وصرت في مثل حالي
بل عشت في طيب عيش   تفديك نفسي ومالي
دعوت اذ ضاق صدري   عليك ثم بدا لي

وقوله ايضاً :

فهم غالط مني فهماً   جاءني يسأل عما علما

مقسماً ما بلغته علتي كاذب والله فيما زعما
رزق المظلوم منا رحمة ثم لا أدعو على من ظلما

وقال ابن منقذ :

يا ظالما يعرض عني اذا دعوت غضبان على ظالمي
أظنه أنت والا فلم تخشى دعائي دون ذا العالم
يا رب لا تسمعه فيه وان كان دعاء المغرم الهائم

وقال الآخر :

قلت لمحبوبي وقد مر بي محبوبه كالقمر الساري
هذا الذي يأخذ لي طرفه من طرفك الوسنان بالثار

وقال الآخر :

ولما بدا لي انه غير زائرى وان هواه ليس عني بمنجلي
تمنيت ان يهوى سواى لعله يقاسي مرارات الهوى فيرق لي

الباب العشرون

في الخضوع وانسكاب الدموع

أقول هذا باب عقدناه لذكر من اصبح دمعه مسكوباً على مسكوب فبات وهو من جريانه كالرمح كما قيل انبوب على انبوب ولا اذا تمادى الهجر أو كان عليه بعض حجر هنالك يرى من انسكاب عبرتـه العبر وينشد اذا عزم الخليط على السفر :

ومفارق سكن القلوب فلا خلت منه الربوع
بعث الرسول وقال لي وأنا السميع له المطيع
بالله قل لي ما جرى بعدي فقلت له الدموع

وقال الآخر :

قال لي من أحببت والبين قد جدّ وفي مهجتي لهيب الحريق
ما الذي في الطريق تصنع بعدي قلت ابكي عليك طول الطريق

وما أحسن قول القاضي الفاضل رحمه الله :

قد استخـدمت بالافكـار سرى وما أطلقت لي بالوصل أجره
ولم أرنى على الايـام إلا عقدت مودّة وحللت صره

ولا استمطرت سحب العين الا وصرت بادمعي في الشمس عصره وقوله ايضاً

وهو من نثره الذي اصبح بين النجوم نثره فيصير حتى تنجلي هذه الغمرة وتقلع سحائب هذه السكرة وتجف مناديل الجفون فانها صارت بالدموع عصره فقاتل الله البين ما أكثر فضوله بدخوله بين المحبين وفي هذا المعنى الباهر يقول ابن عبد الظاهر :

لا تسلني عن اول العشق اني ... أنا فيه قديم هجر وهجره
من دموعي ومن جبينك أرخ ... ت غرامي بمستهل وغره

ومن معاني المتنبي الغريبة قوله :

أتراهـا لكثرة العشـاق ... يحسب الدمع خلقه في المآق

وقوله ايضاً :

لا تعذل المشتاق في أشواقـه ... حتى يكون حشاك في احشائه
ان القتيل مضرّجاً بدموعه ... مثل القتيل مضرجاً بدمائه

وقوله ايضاً :

وهبت السلو لمن لامنى ... وبت من الشوق في شاغل
كأن الجفون على مقلتي ... ثياب شققن على ثاكل

وقول الآخر :

شقت عليه يد الأسى ... ثوب الدموع الى الذيول

وقال الآخر في الخضوع وانسكاب الدموع :

ولم أنس لا أنس ذاك الخضوع ... وفيض الدموع وغمز اليد
وخدي مضاف الى خدها ... قياماً الى الصبح لم نرقد

وقال ابواهيم بن المعمار :

وبي غضبان لا يرضيه إلا ... دموع ساكبات مستمرة
فما عطفت معاطفه بوصل ... وفي عيني بعد الهجر قطره

(وقال الآخر) :

وقائلة ما بال عينك مذرأت محاسن هذا الشخص ادمعها هطل
فقلت زنت عيني بنظر طلعة فحق لها من فيض ادمعها غسل

(وقال السريّ الرفاء) :

بروحي من ردّ التحية ضاحكاً فجدد بعد اليأس في الوصل مطمعي
وحالت دموع العين بيني وبينه كان دموع العين تعشقه معي

(وقال ابن وكيع) :

وسحاب اذا همي الماء فيه ألهب الرعد في حشاه البروقا
مثل ماء العيون لم يجر إلا ظل يذكي على القلوب الحريقا

(وقلت من قصيدة حجازية) :

خليليّ روض الرقمتين طرازه اذا لمع البرق الحجازي مذهب
فلا تعجبا من سحب دمعي اذا همت فما كل برق لاح للعين خلب

(وقلت من أخرى حجازية) :

تزنى جفنى الفريح على الخدين قد وكفا
فحسبه ما جرى من أدمعى وكفا
ان عز نظم دموعى حين انثر فالدر ما عز حتى جاوز الصدفا
لا تعجبوا من وفا دمعى غداة جرى من عينه ما جرى فالبحر فيه وفا
ما زالت أبكى على وادي العقيق الى ان قيل هذاك من عينيه قد رعفا

(وقلت ايضاً من قصيدة) :

بكيت على أرض بها كنت ماشياً فاشبهت في دمعى صخرها الخنسا
تجرأت يا دمعى فلم تجرأ دائماً فيا دمع ما أجرى ويا قلب ما اقسى

(وقلت أيضاً من قصيدة) :

ان عينى على العقيق اذا لم　　يحك دمعي بلونـه حمراء
منذ امسى لجين دمعى نضارا　　صح عندي لعيني الكمياء
لا تسل ما جري من الدمع لما　　صار من عـاذلي على اجتراء
اطلع الليل ادمعى فوق خدي　　مثل ما تطلع النجوم السماء

(وقلت من قصيدة) :

لئن فترت عينى بحر دموعها　　فثغر الذي اهوى كما قيل بارد
وان حل طرفي بالدموع وكاءه　　فنهد الذي حيت بطرفي عاقد

(وقلت من قصيد) :

سقيت ببحر الدمع بارد أرضها　　وارسلته فيها على حين فترة
فياطرف ان لم تسعف الصب بالبكى　　قطعت حبال الدمع من حيث رقت

(وقالت من قصيدة) :

خالفت فيك معنفا ونصيحا　　واطعت جفنا بالدموع قريحا
فاعمل لقتلى محضرا فمدامعى　　كتبت لقلبى بالدما مشروحاً
صب على سفح المقطم دمعه　　تجري العيون به دماً مسفوحاً
لو شاهدت عيناك احمر دمعه　　زكيت شاهد قلبه المجروحا

(وقلت أيضاً) :

الطرف من فقد الكرى　　يشكو الأسى إليه
والخد من فرط البكى　　يا ما جرى عليه

(وقلت أيضاً) :

ومن أرحم لوعتي　　وابعث خيالاً في الكرى
ودمع عينى لا تسل　　عن حاله يا ما جرى

(كان) المسعودي شارح :
المقامات رحمة الله تعالى كثيراً ما ينشد :

قالت عهدتك تبكى دما حذار التنائى
فلم تعوضت عنها بعد الدماء بماء
فقلت ما ذاك منى لسلوة وعزاء
لكن دموعى شابت من طولى عمر بكائى

وقال آخر :

وقائله ما بال دمعك ابيضاً فقلت لها يا علو هذا الذى بقى
ألم تعلمى ان البكاء طال عمره فشابت دموعى مثل ما شاب مفرقي
وعما قليل لا دموعى ولا دمى يرين ولكن لوعتي وتحرقى

وقال آخر :

وقائلة ما بال دمعك اسودا وقد كان مبيضاً وانت نحيل
فقلت لها جفت دموعى من البكا وهذا سواد العين فهو يسيل

وقال آحر :

كانت دموعى حمراً يوم بينهم فمذ نأوا قصرتها بعدهم حرقى
قطفت باللحظ ورداً من حدودهم فاستقطر البين ماء الورد من حدقى

(وقال الناشيء الأكبر) :

بكت للفراق وقد راعنى بكاء الحبيب لفقد الديار
كان الدموع على خدها بقية طل على جلنار

الباب الحادي والعشرون

في الوعد والأماني وما فيهما من راحة المعاني

أقول هذا باب عقدناه لذكر الأماني التي لا بد منها ولا غنى عنها فلا أقل منها :

أعلل بالمنى قلبي لعلي اروّح بالأماني الهم عني
وأعلم ان وصلك لايرجى ولكن لا أقل من التمني

ولم يزل المحبون يعللون بالأماني نفوسهم ويترعون براح راحتها كؤوسهم فمنهم من فاز بالأمنية قبل حلول المنية ومنهم من مات باعظم غصة وما وقع له الحبيب على قصه :

من نال من دنياه أمنية اسقطت الأيام منها الألف

وهذا النوع الأخير كثير والسقيم به من المحبين جم غفير :

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا

نعم منهم من بات من وعد الحبيب مسلوب الرقاد بعيد من لقاء الردى على ميعاد:

يصدق قول الحبيب ويكذبه ويمتحنه ويجربه ويقول :

مازلت منتظراً لوعدك سيدي في البيت ملتفتا لقرع الباب
يا كاذبا وعده بلسانه من لي بعض لسانك الكذاب

طالما أيس من وعد المحبوب وتمسك من رؤية ساقه بمواعيد عرقوب كما قيل:

وما بلوغ الأماني في مواعدها　　إلا كأشعب يرجو وعدعرقوب

(تنبيه) قولهم في المثل مواعيد عرقوب يقال لمن وعد وعداً وأخلف وأصل المثل المذكور ان عرقوباً كان له أخ فسأله شيئاً فقال له عرقوب اذا طلع نخلي فلما أطلع قال : اذا أبلح فلما ابلح قال إذا أزهى فلما أزهى قال إذا أرطب فلما ارطب قال إذا صار تمراً فلما صار تمراً أخذه ه من اليل ولم يعطِ أخاه شيئاً فضرب به المثل في خلف الوعيد فقيل مواعيد عرقوب .

قال الشماخ :

وواعدتني ما لا أحاول نفعه　　مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وقال ابن حجاج :

فديت من لقيني مثل ما　　لقيته والحق لا يصعب
فقلت يا عرقوب اطمعتني　　فقال لم نفسك يا أشعب

وقلت أنا من قصيدة حجازية :

يهددني بالهجر في كل ليلة　　أصدق فيها وصله وأكذب

ولما وردنا ماء مدين قال لي :

وحق شعيب أنت في الحب أشعب

والناس في الأماني على قولين : فمنهم من يرى راحة قلبه وتنفيس كريه فيريح بها النفس ويتعلق من ضيائها بحبال الشمس .
ومنهم من يقول :

ليس الترجي مما ينجي　　فيرى الأمانى من الخداع

والوقوع في النزاع ولكل من القولين حجة ومذهب مسلوك المحجة ومن

أحسن ما سمعته في القول الإول قول بعض بنى الحرث .

أماني من سعدى حسان كأنما سقتنا بها سعدى على ظمأ بردا
منى ان تسكن حقاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

وفول الآخر :

ولما حللنا منزلا طله الندى انيقا وبستانا من النور حاليا
اجدّ لنا طيب المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الامانيا

(وقال أفلاطون)

الأماني حلم المستيقظ وسلوة المحزون .

(وقال غيره)

الأمانى رفيق مؤنس ان لم ينفعك فقد ألهاك .

(وقيل لاعرابى)

ما أمتع لذات الدنيا فقال : ممازحة الحبيب ومحادثة الصديق وأمانى تقطع بها أيامك .

(وقال القاضي الفاضل)

وأحسن ما شاء وجدت ريح كتبه وروح قربه فرجعنا الى العادة وعادت أيامنا وصرنا الى الحسنى ورق كلامنا وعاودتنا المنى وما كادت تحطر وان حطرت فإنها كلامنا :

أتمنى تلك الليالي المنيرا ت وجهد المحب ان يتمنى

(وقال ياقوت الرومى)

لله أيام تقضت بكم ما كان أحلاها وأهناها
مرت فلم يبق لنا بعدها شيء سوى ان نتمناها

(وقال) الشيخ فتح الدين بن سيد الناس :

اصبو الى البان بانت عنه هاجرتي   تعللا بليالي وصلها فيه
عصر مضى وجلابيب الصبا قشب   لم يبق من طيبه إلا تمنيه

وقال العفيف : ايحق كاتب الانشاء للناصر داود .

لولا مواعيد آمال أعيش بها   لمت يا أهل هذا الحي من زمن
وإنما طرف آمالي به مرح   يجري بوعد الأماني مطلق الرسن

وقال ابن خفاجة :

وليل إذا ما قلت قد بان وانقضى   تكشف عن وعد من الظن كاذب
ولا أنس إلا أن اضاحك ساعة   ثغور الأماني في وجوه المطالب
حسبت الدياجي فيه سود ذوائب   لها عنق الآمال بيض الترائب

وقال آخر :

في المني راحة وان عللتنا   من هواها ببعض ما لا يكون

وقلت أنا :

رقي لصب غداً مما يكايده   من دمعه الصب يجري في مجاريه
لم يبق فيه سوى روح يرددها   لولا المني مات يا أقصى أمانيه

وقلت أيضاً :

يا طيب ريح سرى من نحوهم سحرا   لولا تلافيه قلبي في الهوى تلفا
كم ذا أعلل قلبي بالنسيم وما   أرى لداء غرامي في هواء شفا

وقال ابن زيدون :

لأسرّحن نواظري   في ذلك الروض النضير
ولآكلنك بالمني   ولا شربنك بالضمير

وقال آخر :

عللينى بموعـــد وامطلي ما حييت بـــه
ودعيني أفوز منـــك بنجوى تطلبـــه
فعسى يعثر الزمـــان بحظي فينتبـــه

وقال آخر :

وشادن قلت له هل لك في المنادمـــة
فقـــال كم من عاشق سفكت في المني دمه

وقال ابو بكر الحاتمي :

لي حبيب لو قيل لي مـــا تمنى مـــا تعديتـــه ولو بالمنون
اشتهي أن أحل في كل طرف لأراه بلحـــظ كل العيون

وقال أيضا :

أما مني قلبي فأنت جميعـــه يا ليتني أصبحت بعض منـــاك
يدني مزارك حين شط به النوى وهم أكاد بـــه أقبل فـــاك

وقال الحسين بن الضحاك :

وصف البدر حسن وجهك حتى خلت اني ومـــا أراك أراكا
وإذا ما تنفس النرجس الغض توهمتـــه نســـيم شذاكا
خـدع للمني تعللني فيـــك باشراق ذا وبهجـــة ذاكا

(ومما احتج به أرباب القول الثاني) :

وأكثر أفعـــال الغواني اساءة وأكثر ما تلقى الأماني الكواذبا

وقال الخالدي :

ولا تكن عبـــد المني فالمني رؤس أمـــوال المقـــاليس

وقال ابن شرف القيرواني :

غلف تمنوا في البيوت أمانينـــا وجميع أعمـــار اللئام أمـــاني

وقال ابن المعتز :

لا تأسفن من الدنيا على أمـل فليس باقيـه الا مثل ماضيـه

وقال : علي بن أبي طالب كرم الله وجهه تجنبوا المنى فانها تذهب بهجة ما خوّلتم وتصغر المواهب التي رزقتم . وقال رجل لأبن سيرين رأيت كـأني أسبح في غير ماء وأطير بغير جناح فقال أنت رجل تكثر الأماني .

(وحكى) أن الحجاج مر ذات ليلة بدكان لبان وعنده بستوقة فيها لبن وهو يقول متمنياً أنا أبيع هذا اللبن بكذا وكذا واشترى كـذا ثم أبيعـه فأكسب فيه كذا وكذا فيكثر مـالي ويحسن حالي وأخطب بنت الحجـاج وأتزوجها فتلد لي أبناً وأدخل اليها يومـاً فتخاصمني فاضربها برجلي هكـذا ورفس برجله فكسر البستوقة وتبدد اللبن فقرع الحجاج الباب ففتح له فضربه خمسين سوطاً وقال أليس لو رفست ابنتي هكذا فجعتني فيها .

وقال علي بن عبيدة الأماني مخايل الجهل .

وقال غيره الأماني تخدعك وعند الحقائق تدعك .

اتفق أن الزكي عبد الرحمن القوصي حضر عند الملك المظفر قبل أن يلي حماة وأنشده .

متى أراك ومن تهوى وأنت كما تهوى على رغمهم روحين في بدن
هناك أنشد والآمـال حاضرة هنيت بالملك والاحباب والوطن

فوعده الملك المظفر اذا تملك حمـاة أن يعطيه ألف دينار فلما ملكهـا أنشده :

مولاي هـذا الملك قـد نلته برغم مخـلوق من الخـالق
والدهر منقـاد لمـا شئته فـذا أوان الموعـد الصـادق

فوقع له بألف دينار وأقام معه ولزمته اسفار فانفق فيها المال الذي أعطاه ولم يحصل بيده زيادة عليه فقال :

ذاك الذي أعطوه لي جملة قد استردوه قليلاً قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا وحسبنا الله ونعم الوكيل

فبلغ ذلك المظفر فاخرجه من دار كان قد أنزله بها فقال :

اتخرجني من كسر بيت مهدم ولي فيك من حسن الثناء بيوت
فان عشت لم اعدم مكاناً يضمني وان مت تدري ذكر من سيموت

فحبسه المظفر فقال ما ذنبي اليك قال قولك حسبي الله ونعم الوكيل فأمر بخنقه فلما أحس بذلك قال أعطيتني الألف تعظيما وتكرمة يا ليت شعري أم أعطيتني ديتي قلت وقد عيب عليّ السلطان حقده عليه لأجل قوله حسبي الله ونعم الوكيل حتى قتله فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فكان حاله معه كما قيل :

فكنت كالمتمني أن يرى فلقا من الصباح فلما رآه عمى

والله القائل :

وبما يرجو الفتى نفع فتى خوفه اولى به من أمله
رب من ترجو به دفع أذى سوف يأتيك الأذى من قبله

ذكرت هنا قول الآخر :

لما بدا العارض في خده بشرت قلبي بالنعيم المقيم
وقلت هذا عارض ممطر فجاءني فيه العذاب الأليم

وقال ابن سنا الملك من رسالة المحبوب وانت الذي نفضني من يده ورفضني من باله وأنت الذي فصلني قبل أن يستكمل الوصول مدة حمله وفصاله .

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني واشمت بي من كان فيك يلوم
لعل عيناً أصابتنا فلا نظرت أو واشياً قال فيما بيننا كذبا
لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل
لعل الرضا منكم وكيف مناله يسر فؤاد اساءه منكم الهجر

لعل صدى في النفس يروي أوامه   وجمر جوى في القلب تخمد ناره
لعل عاطفة تدني الى أمل   قلباً تحير بين اليأس والطمع
لعل عين الرضا ممن كلفت به   يوماً تبهرج ما قالته حسادي
لعل زماناً قد تولى سيثنني   الينا وقلباً قد قساسيلين
لعل ذيول العفو والعفو واسع   يجرّرها الجافي على مفرق الذنب
لعل سلوّ الفؤاد يعوده   وذا غلط حاشي فؤادي أن يسلو
لعل وما تغني لعل وانها   علالة صب واستراحة هائم

ولا أقل من التعلل بلعل وما أقل غناها وأكثر عناها .

≠

الباب الثاني والعشرون

في الرضا من المحبوب بأيسر مطلوب

أقول هذا باب عقدناه لذكر المحب المطبوع والعاشق القنوع ممن يقنع الحبيب بالنظر إذا حضر ويرضي منه بالسلام ولو مرة في العام فهو في الرضا منه بالنزر اليسير كما قيل .

(قليلك لا يقال له قليل)

أنا راض منكم بأيسر شيء يرتضيه من عاشق معشوق
بسلام على الطريق إذا ما جمعتنا بالاتفاق الطريق

وقال المعري :

لاقاك في العام الذي ولى ولم يسألك إلا قبله في القابل
ان البخيل إذا تمدّ له المدى في الجود هان عليه بذل الباذل

وقال جميل :

أقلب طرفي في السماء لعله يوافق طرفي طرفه حين ينظر

وقال أيضاً :

واني لأرضى من بثينة بالذي لو استقين الواشى لقرّت بلابله
بلا وبأن لا استطيع وبالمني وبالامل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي أواخره لا تلتقي وأوائله

(قلت) : انظر الى هذا الشاعر الظريف والعاشق العفيف قد قنع من

مناهل أحبابه بالوشل واكتفى باللمح من خلل الاستار والكلل ومن هـذا المعنى المبتز قول ابن المعتز :

ألست أرى النجم الذي هو طالع عليها فهذا للمحبين نافـع
عسى يلتقي في الأفق لحظي ولحظها فيجمعنا إذ ليس في الأرض جامـع

(والعلم) المشهور في هذا الباب قول بعض الاعراب :

أليس الليـــل يجمع أم عمـرو وإيانا فـذاك بنـا تداني
نعم وأرى الهـلال كما تراه ويعلوها النهار كما علاني

كان الشيخ أثير الدين أبو حيان يقول عن صاحب هذين البيتين هذا العاشق القنوع وقال الآخر :

الى الطائر النسر أنظر كل ليلة فاني اليه بالعشية ناظر
عسى يلتقي طرفي وطرفك عنده فنشكو جميعاً ما تجنّ الضمائر

وقال بعض الأعراب :

وما نلت منها وصلها غير انني إذا هي بالت بلت حيث تبول

ذكرت هنا ما (حكى) عن بعضهم أنه رأي امرأة حسناء في طاقة فأحبها ولازم المقام على بابها والمرور تحت الطاقة الى أن أعيا وقل صبره وحصل على اليأس منها فدق الباب عليها فخرجت الجارية اليه فدفع إليها صفحة وقال دعي سيدتك تبول في هذه فبالت له في الصفحة وقالت للجارية أتبعيه وانظري ما يصنع بذلك فلم تزل تتبعه الى أن دخل بعض الخربات فوضع ... في ذلك البول وقال يا ميشوم إذا فاتك اللحم فاشرب المرق .

(وحكى ابن الجوزي في كتاب الأذكياء) ان الهدهد قال لسليمان عليه الصلاة والسلام أريد أن تكون في ضيافتي فقال له سليمان أنا وحدي فقال له بل والعسكر في جزيرة كذا في يوم كذا فمضى سليمان وجنوده الى هنـاك فصعد الهدهد الى الجوّ فصاد جرادة وخنقها ورمى بها في البحر وقال يانبيّ الله كلوا فمن فاته اللحم نال من المرق فضحك سليمان وجنوده من ذلك حولا كاملا أخذ بعضهم هذا المعنى فقال :

وكن قنوعاً فقد جرى مثل ان فاتك اللحم فاشرب المرقـة

الباب الثالث والعشرون

في اختلاط الاشباح اختلاط الماء بالراح

أقول هذا باب عقدناه لذكر من افرط في العناق إذا التفت الساق بالساق فأصبح هو ومحبيه كالشيء الواحد في رأي العين حتى عند الأحـوال الذي يرى الشيء شيئين وذلك لفرط المحبة التي لا يشتفي قلب صاحبها بالوصـال ولا تنقطع حبال دموعه بالأتصال كما قيل :

وكدت وهو ضجيعي أن أقول له   من شدة الحب قد أبعدت فاقترب

وقال ابن الرومي :

اعانقه والنفس بعد مشوقة   إليه وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاه كي تزول حرارتي   فيشتد ما ألقي من الهيمان
ولم يك مقدار الذي بي من الجوى   ليشفيه رشفاً ما سوى الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله   سوى أن ترى الروحان يمتزجان

وقال آخر :

سريت إليه والظلام كأنه   صريع كري والنجم في الافق شاهد
فلو أن روحي مازجت ثم روحه   لقلت ادن مني ايها المتباعد

وقال أبو الحسين التونسي :

ثم اعتنقنا فترانا معاً   في ظلمة الليل ونور العتاب

جسمين صارا في الهوى واحداً كشكلتين اختلطا في كتاب

(وقال خالد الكاتب)

كأنني عاتقت ريحانة تنفست في ليلها البارد
فلو ترانا في قميص الدجى حسبتنا في جسد واحد

(وقال نفطويه النحوي)

ولما التقينا بعد بعد بمجلس تغازل فيه اعين النرجس الغض
جعلت اعتمادي ضمه وعناقه فلم يفترق حتى توهمته بعضي

(وما أحسن قول أبي بكر الأربلي)

هم الرقيب ليسعى في تفرقنا ليلاً وقد بات من أهواء معتنقي
عانقته فاتحدنا والرقيب أتى فمذ رأى واحداً ولى على حنق

(وقال سيف الدين المشد)

ولما زار من أمواه ليلا وخفنا أن يلم بنا مراقب
تعانقنا لأخفيه فصرنا كأنا واحد في عقد كاتب

(وقال آخر) :

توهم واشينا بليل مزاره فهم ليسعى بيننا بالتباعد
فعانقته حتى اتحدنا تعانقاً فلما أتانا ما رأى غير واحد

قال قاضي القضاة كمال الدين بن العديم لما سمع هذين البيتين أمسكه امساك أعمى .

(وقال أبو الفضل) :

سقيا لعيش مضى والدهر يجمعنا ونحن نحكي عناقا شكل تنوين
فصرت إذ علقت كفى حبائلكم بسهم هجرك ترمي ثم ينوينى

ومثل هذا القول في عدم السلامة وتوجيه الملامة .

(قول بن سنا الملك)

وليلة بتنا بعد سكري وسكره   نبذت وسادي ثم وسدته يـدي
وبيننا كجسم واحد من عناقنـا   وإلا كحرف في الكـلام مشدد

لو قال كحرف في النظام ما وقع في الملام لأن الحرف المشدّد في اللفـظ معدود عند العروضيين بحرفين وأما في الخط فلا فعلى هذا لا يتم له مـا أراد ولو جعل ساعده للمحبوب كالوساد ولا عذر له لأن الوزن ساعده وأعانه على تحصيل هذه الفائدة وقال بعض شعراء الذخيرة :

بتنا وراء الحجاب يلحفنـا   برد وقـار والشمل مشتمـل
أثنان من شدة التعانق قـد   صارا كفرد بالروح يتصـل
لو أن غيث السـماء أمطرنا   لم يصب الأرض تحتنا بلـل

قال محمد بن عروس اجتمعت أنا وعلي بن الجهم في سفينة ونحن غـير متعارفين فتذاكرنا ووجدته حلو المذاكره فكان في بعض ما قاله أنا أشعر الناس فقلت له بماذا قال بقولي :

الا رب ليل ضمنا بعد هجعـة   وأدنى فؤاداً من فؤاد معـذب
فبتنا جميعاً لو تراق زجـاجة   من الخمر فـيما بيننا لم يشرب

فقلت له والله لقد أحسنت ولكني أشعر منك قال بأي شيء قلت بقولي :

لا والمنازل من نجد وليلتنـا   بقيد اذ جسدانـا بيننا جسد
كم رام فينا الكرى من لطف مسلكه   يوماً فما انفك لاخد ولا عضـد

والأصل في هذا قول بشار بن برد وهو من الشعر الملوكي .

ومرتجة الأرداف مهضومة الحشا   تموز بسحر عينها وتـدور
إذا نظرت صبت عليك صبابـة   وكادت قلوب العاشقين تطـير
خلوت بها لا يخلص المـاء بيننا   إلى الصبح دوني حاجب وستور

ذكرت بقولي أن في أول الباب الأحوال الذي يرى الشيء شيئين قول بعض

المغاربة في مليح له رقيب أحول .

بأبي رشا يحوى مع الاحسان ملكيـة موضوعها إنساني
أحوى الجفون له رقيب أحول الشيء في ادراكه سيآن
يا ليته ترك الذي أنا مبصر وهو المخير في الغزال الثاني
وقال ابن اسرائيل من دو بيت قد بالغ في حديثه بالمين

من قال رأيت مثله بالعين :

ما يبصر مثله سوى دى حول من حيث يرى الواحـد كالاثنين

وقول صدر الدين بن الوكيل .

يقولون لي لم ذا كلفت بأحوال يقلب بالزوجين قلت لهم عـذرا
رأت كل عين حسن أوصاف أختها فعادت بطول الدهر تنظرها شزرا

الباب الرابع والعشرون

في عود المحب كالخلال وطيف الخيال وما في معنى ذلك
من رقة خصر الحبيب وتشبيه الردف بالكثيب

أقول هذا باب عقدناه لذكر من أدىّ به النحول الى الذبول وأصبح كالطلل بين الطلول فهو من شدة الضر كما قال صردر :

وكم ناحل بين تلك الخيام تحسبه بين أطنابها
فمحبوبه في الجفاء واحد كالألف وهو في رقته كالخيال يمشي الى خلف .

ولما رأتني كعود الخلال وجسمي كما ينسج العنكبوت
فقالت تموت الي كم تـ ... فقلت انيـ ... الى أن اموت

والعلم المشهور في هذا الباب قول المتنبي :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني وفرق الهجر بين الجفن والوسن
روح تردّد في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يبن
كفى بجسمي نحولا انني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

(وقال أيضاً) :

ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ما غيرت من خط كاتب

(وقال أيضاً)

الأم طماعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل

يراد من .القلب نسيانكم   وتأبى الطباع على الناقل
واني لأعشق من عشقكم   نحولي وكل فتى ناحل
ولو زلتم ثم لم أبككم   بكيت على حبي الزائل

(وقال المعمار)

ترك اصفراري والنحول كلاهما   في العشق جسمي ينذر العشاقا
فكأنه ألف بخط مــذهب   جعل الدجى أرقى له أوراقا

وقلت أنا من قصيدة :

كأن ضباب الأفق ندّسرت به   نسيم الصبا من نحو أرض الأحبة
كأن الصدا بين الجبال متــيم   ولم يبق منه غير صوت وأنــة

(وقال المتنقل) :

ان جفاني الكرى وواصل قوماً   فله العــذر في التخلف عنى
لم يخلي الهــوى بجسمي شخصاً   فإذا جاءني الكري لم يجــدني

(وقال ابن لؤلؤ) :

وأرقني خيــال من حبيب   ثنــاءت داره لمــا رآني
فمن سهري يــلم فما أراه   ومن سقمي يطوف فــما يراني

وقال محي الدين بن عبد الظاهر :

أيها الصائد باللحــظ ومن   هو من دون الورى مقتنصي
لا تسم طــائر قلبي هربــاً   انــه من أضلعي في قفصي

(وقال مضر المغربي) :

إذا به الحب حتى لو توهمتــه   بالوهم خلق لاعيــا هم توهمــه
لولا الانين ولوعات تحركــه   لم يدره بعيان من يكلمــه

وقال محاسن الشوّاء :

ضنيت وضن من أهوى بوصلي وعاداني الخيال وكان عائد
فاشبهت الذي للسقم نقصاً وان خالفته صلة وعائد

وقال الأرجاني :

ولولا سناها لم يروني من الضنى ولا أصبحوا من أجلها خصمائي
ولكن تجلت مثل شمس منيره فلحت خلال الضوء مثل هباء

وقال آخر :

قد كان لي فيما مضى خاتم فدق جسمي فتمنطقت به
وزاد بي السقم فلو زج في مقلة النائم لم ينتبه

وقال أبو العتاهية :

لم يبقى إلا القليل فيَّ وما أحسبها تترك الذي بقيا

(وقال آخر) :

رأيت العاشقين لهم جسوم براها الشوق لو نفخوا لطاروا

(وقال بن عبد ربه) :

ولما ان رأى أهلي سقامي تجاوز حدّه حدّ السقيم
سددت منافس النسمات عني مخافة أن أطير إمع النسيم

(وقال آخر) :

وإذا عائد دنا لكلامي لعبت بي أنفاسه في الفراش

(وقال آخر) :

عبثت به أيدي الضنى فكأنه سرّ خفيّ في ضمير كتوم

وقال ظافر الحداد :

أنحلني حبك يا متلفي وزادني الشوق فلم أعرف

وذبت حتى لو رمى بي الهوى في ناظر الناظر لم يطرف .

وقال ناصر الدين الفقعسي .

يقول جسمي لنحولي وقد أفرط بي فرط ضنى واكتئاب
فعلت بي يا سقم ما لم يكن يلبس والله عليه الثياب

ومما ينخرط في هذا السلك ما وصفت به الشعراء الخصر من الخول وقد بالغ ابن إسرائيل فيه حيث قال وأحسن في المقال :

واها على الخصر الرفيق وإنما قطع الطريق حديثه الموثوق
خصر أدير عليه معصم قبلة فكأن تقبيلي له تعنيق

وقال الشيخ صفي الدين الحلي :

مليح يغار الغصن عند اهتزازه ويخجل بدر التم عند شروقه
فما فيه معنى ناقص غير خصره وما فيه شيء بارد غير ريقه

قلت أخذه من قول بلدينا محمد بن العفيف التلمساني وأراد قصره على الحسن فقصر وجرى خلفه ليمثر على المعنى فاعثر عليه بل تعثر والفرق بينهما كما بين الأجاج والكوثر والخصر والخنصر ألا ترى قول ابن العفيف وحلاوة منطقه الظريف .

فكم يتجافى خصره وهو ناحل وكم يتحالى ريقه وهو بارد
وكم يدعى صوناً وهذي جفونه بفترتها للعاشقين تواعد

(وقال أيضاً) :

شكوت الى ذاك الجمال صبابة تكلف جفني انه قط لا يغفو
فلانت لي الأعطاف والخصر رق لي ولكن تجافى الشعر وانا قل الردف

(وقال أيضاً) :

تلاعب الشعر على ردفه أوقع قلبي في العريض الطويل
يا ردفه جرت على خصره رفقاً به ما أنت إلا ثقيل

وعلى ذكر الردف ما أحسن قول الآخر :

للبدر من وجنته نكتــة وفترة في الظبى من طرفـه
إذا مشى جاذ به ردفـه كأنـه يمشي الى خلفه

وقال الشيخ صفي الدين الحلي في مليح راقص :

جاء وفي قده اعتدال مهفهف ما له عديل
قد خففت عطفه شمال وثقلت جفنه شمول
ثم انثنى راقصاً بقدّ تثني الى نحوه العقول
يجول ما بيننا بوجه فيه مياه الحيا تجول
ورنح الرقص منه عطفاً خف به اللطف والدخول
فعطفة داخل خفيف وردفه خارج ثقيل

(وقال ابن رشيق) :

احمل أثقـــالي على ردفـه وأمسك الخصر لئـلا يضيـع

(وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة) :

سألت النقا والبان يحكي لناظري روادف او أعطاف من طال صدها
فقال كثيب الرمل ما أنا حملهـا وقال قضيب البان ما أنا قدهـا

الباب الخامس والعشرون

في ذكر ما يكابده الأحباب من الأمور الصعاب
وغير ذلك بما يقاسونه من تحمل المشاق والم الفراق

كقوله :

شكى ألم الفراق الناس قبلي   وروع النوى حي وميت
وأما مثل ما ضمت ضلوعي   فاني مـا سمعت ولا رأيت

أقول هذا الباب عقدناه لذكر ما يقايسه المحب من ركوب الأخطـار في طلب الأوطار فهو لا يزال مشغولاً بحاله متقلباً تحت أحمـاله يقاسي في طلب الحبيب من الأهوال ما هو أثقل من الجبال ويسمح في مقابلة اللمحـة اليسيرة منه بالنفس والمال .

(قال الطغرائي) :

ومن طلب الأحبة كان اسخى   ببذل النفس من كعب بن مامه
ومن طلب الغنـائم لم يهب من   نضى من دون مطلبه حسامـه

(وقال أيضاً) :

لا أكره الطعنة النجلاء قد شفعت   برشقة من نبال الاعين النجل
ولا أهاب الصفاح البيض تسعدني   باللمح من خلل الاستار والكلل

وقال الإمام محمد بن داوود الظاهري :

حملت جبال الحب فيـك وانني   لاعجز عن حمل القميص واضعف

وما الحب من حسن ولا من سماحة ولكنه شيء به الروح تكلف

وهذا البيت الأخير مثل قول الآخر :

وكم في الناس من حسن ولكن عليك لشقوتي وقع أختياري

وقد أنصف هذا العاشق لاعترافه بأن ثم من هو أحسن من محبوبه ولكن غلبة الهوى وميل النفس أوقعاه في هواه ومن أحسن ما سمعته في طلب الاوطار وركوب الأخطار قول ابن خفاجة :

لقد جبت دون الحي كل تنوفة يحوم بها نسر السماء على وكر
وخضت ظلام الليل يسود فحمة ودست عرين الليث ينظر عن جمر
وجئت ديار الحي والليل مطرق منمنم ثوب الأفق بالأنجم الزهر
أشيم بها برق الحديد وربما عثرت باطراف المثقفة السمر
فلم ألق الأصعدة فوق لامة فقلت قضيب قد أظل على نهر
ولا شمت الأغرة فوق اشقر فقلت حباب يستدير على خمر
فسرت وقلب البرق يخفق غيرة هناك وعين النجم تنظر عن شزر

(قلت) أنظر الى هذه الأبيات التي أفرغت في قالب عجيب وأسلوب غريب فبينا صاحبها يصف أدهم الليل إذ مالت عليه الخيل كل الميل وبينا هو يكافح الأسود إذا به يتنهد على النهود وبينا هو يقيم قدود الملاح مقام الرماح إذا به يقول لخدودها :

من صد عن نيرانها فانا ابن قيس لا براح

قد أحسن فيها الاستعارة وساير بنظمها العالي وعددها السبعة السيارة فنظمه في النجوم ودمع المتلبس بحالته كالرجوم ومن شعره في هذا النمط ودره الداخل في هذا السقط قوله أيضاً :

وليل طرقت المالكية تحته أجد على حكم الشباب مزارا
فخالطت أطراف الأسنة انجما ودست بهالات البدور ديار

(وقال أيضاً) :

يعللني منه بموعـــد رشفـة خيال له يغري بمطـل وليان
شققت عليه لجـة من صوارم عليها حبـاب من اسنة مران

(وقال ابن بسام) :

لقد صبرت على المكروه اسمعه من معشر فيك لولا أنت ما نطقوا
وفيك داريت قوماًلا اخلاق لهم لولاك ما كنت أدري انهم خلقوا

(وقال الآخر) :

تهون علينا في المعـالي نفوسنا ومن يطلب العلياء لم يعيـه المهر

(وقال آخر) :

يغوص البحر من طلب اللآلي ومن طلب العلا سهر الليـالي
تروم المجد ثم تنام ليـلاً لقد اطمعت نفسك بالمحـال

(وقال المتنبي) :

تريدين ادراك المعالي رخيصة ولا بدون الشهد من ابر النحل

الباب السادس والعشرون

في طيب ذكر الحبيب

(أقول) هذا باب عقدناه لذكر من صال وجال وذكر محبوبه حين تكسرت النصال في كل موقف الوقوف فيه هزيمة والموت غنيمة ولا سيما إذا اقيمت القسيء مقام الحواجب والتبست الخود بنهود الكواعب واشتبهت الرماح بالقدود والبيض بحمرة الخدود هنالك يجعل حبيبه المشار إليه نصب عينيه ولا يلهيه عنه ضرب الحسام ولا جعله غرضاً للسهام وعلى هذا حكاية الظغرائي التي أربي فيها على عنترة العبسي وزاد بها في الوفاء بشرط المحبة على كل جني وانسي وهي ما حكاه غير واحد من أرباب التاريخ ممن خبر وخبر وتصدى وتصدر وذلك أن مؤيد الدين فخر الكتاب أبا اسماعيل الحسين الأصبهاني المنشيء المعروف بالطغرائي كاتب الانشاء للملك مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همدان والري وانهزم الملك مسعود كان أول من أخذ الطغرائي فلما عزم السلطان أخو مخدومه على قتله بعد أن قيل له عنه أشياء من جملتها انه ملحد وانه يحب المملوك الفلاني من مماليك السلطان ممن كان السلطان يحبه ويميل إليه فاغروه عليه الى أن أمر بقتله وأن يشد إلى شجرة وان يقف تجاهه جماعة ليرموه بالسهام ففعل ذلك وأوقف انساناً خلف الشجرة من غير أن يشعر به الطغرائي وأمره ان يسمع ما يقول وقال لأرباب السهام لا ترموه إلا إذا أشرت اليكم فوقفوا والسهام في أيديهم مفوّقة لرميه (واخبرني) بعض من حكى لي هذه الحكاية من أهل الأدب أن أول من فوق اليه السهم المملوك المتيم هو بحبه فأنشد الطغرائي في تلك الحالة يقول:

ولقد أقول لمن يسدد سهمه نحوي وأطراف المنية شرع
والموت في لحظات احور طرفه دوني وقلبي دونه يتقطع
بالله فتش عن فؤادي هل ترى فيه لغير هوى الأحبة موضع
أهون به لو لم يكن في طيه عهد الحبيب وسره المستودع

فأمر السلطان باطلاقه وحل وثاقه لما رآه من ثبات جنانه وسحر بيانه وقد زاد هذا العاشق على من تقدمه من المتصفين بهذا الوصف كابن عطاء السندي حيث يقول :

ذكرتك والخطى يخطر بيننا وقد نهلت مني المثقفة السمر
فوالله ما أدري واني لصادق إداء عراني من خيالك أم سحر

(وقال عنترة) :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

(وما ارق قول الطغرائي أيضاً)

اني لأذكركم وقد بلغ الظمأ مني فأشرق بالزلال البارد
وأقول ليت احبتي عاينتهم قبل الممات ولو بيوم واحد

(وقال آخر) :

ذكرت سليمى وحر الوغا كقلبي ساعة فارقتها
فشبهت سمر القنا قدها وقد ملن نحوي فعانقتها

(وقال ابن تميم) :

ألا من يبلغ المحبوب اني وقفت وللظي حولي ضئيل
واني جلت في جيش الأعادي برمحي وهو في فكري يجول

(وقال أيضا) :

ولقد ذكرتـك والصوارم لمع   من حولنا والسمهريـة شرع
وعلى مكافحة العدو ففي الحشا   شوق اليك تضيق عنه الأضلـع
ومن الصبا وهلم جراشيمتي   حفظ الوداد فكيف عنه أرجع

(وقال الشريف البياضي) :

ولقد ذكرتك والطبيب معبس   والجرح منغمس بـه المسبار
واديم وجهي قد فراه حديـده   ويمينـه حـذراً على يسار
فشغلتني عما لقيت وانـه   لتضيق منه برحبها الأقطار

(وقال ابن رشيق) :

ولقد ذكرتك في السفينة والردى   متلاطم متوقع الأمواج
والجو يهطل والرياح عواصف   والليل مسود الذوائب داجـي
وعلى السواحل للاعـادي عسكر   يتوقعون لغارة وهيـاج
وعلت لأصحاب السفينة ضجة   وانا وذكرك في ألذ تنـاجي

(وقال أبو الثناء محمود) :

ولقد ذكرتك والسيوف لوامع   والموت يرقب تحت حصن المرقب
والحصن في شفق الدروع تخاله   حسناء ترفل في رداء مـذهب
والموت يلعب بالنفوس وخاطري   يلهو بطيب ذكرك المستعـذب

(وقال صفي الدين الحلي) :

ولقد ذكرتك والعجاج كأنه   مطل الغنى وسوء عيش المعسر
والسوس بين مجندل في جندل   منا وبين معفر في مغفر
فظننت اني في صباح مسفر   بضياء وجهك أو مساء مقمر
وتعطرت أرض الكفاح كانما   فتقت لنا أرض الجلاد بعنبر

(وقال أيضاً) :

ولقد ذكرتك والجماجم وقع   تحت السنابك والأكف تطير

والهام في أفق العجاجة حوم ... فكأنها فوق النسور نسور
فاعتادني من طيب ذكرك نشوة ... وبدت عليّ بشاشة وسرور
فظننت اني في مجالس لذتي ... والراح تجلى والكؤوس تدور

(وقال آخر) :

وله حكاية مثل حكاية الطغرائي المتقدمة مذكورة في منازل الأحباب :

ولقد ذكرتك والرماح تنوشني ... عند الإمام وساعدي مغلول
ولقد ذكرتك والذي أنا عبده ... والسيف فوق ذؤابتي مسلول

(وقال أبو طالب الرفاء) :

ولقد ذكرتك والظلام كأنه ... يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

وللناس في هذا البيت كلام وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان :

ولقد ذكرتك والبحر الخضم طغت ... أمواجه والورى منه على سفر
في ليلة أسدلت جلبابة ظلمتها ... وعار كوكبها عن اعين البشر
والفلك في وسط الأمواج يحسبها ... عيناً وقد أطبقت شفراً على شفر
والروح من حزن راحت وقد وردت ... صدري فيالك من ورد بلا صدر
هذا وشخصك لاينفك في خلدي ... وفي فؤادي وفي سمعي وفي بصري

وقلت أنا في رمل طريق مصر الى الشام من مقامة :

ولقد ذكرتكم برمل روعه ... في قلب كل مشرق ومغرب
وبنو بياضة كالدبي من حولنا ... بسوأدهم سدوا فسيح السبب
والقضب تبري هام كل مدجج ... من كف اشوس بالحروب مهذب
واسنة الأرماح تلمع في الدجا ... كوميض برق في الدجا متلهب
وعلى العوالي كل نسر واقع ... يفري أديم الليث منه بمخلب
والرعد للارماح رعد قاصف ... والبحر يهدر كالهزبر الأغلب
والبر بحر بالدما والبحر بر ... بالفرنج وكل كلب أجرب
وعلى السواحل غارة شعواء ما ... فيها لمن يرجو النجا من مهرب

وأنا باوتار القسى كأنني فيه اغني بالرباب وزينب
وأقول ليت أحبتي يدرون ما أنا فيه من لهو وعيش طيب

وقال مجنون ليلى :

ذكرتك والحجيج له ضجيج بمكة والقلوب لها وجيب
فقلت ونحن في بلد حرام به الله أخلصت القلوب
أتوب إليك يا رحمن مما جنيت فقد تكاثرت الذنوب
فاما عن هو ليلى وتركي زيارتها فاني لا أتوب

وللناس على هذا البيت الاخير كلام (وحكى) عن ليلى الأخيلية أنهامرت مع زوجها بقبر توبة بن الحمير فقال لها هذا قبر الكذاب الذي قال :

ولو أن ليلى الاخليلية سلمت عليّ ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة اوزقا إليها صدى من جانب القبر صائح

فقالت دعه فقال أقسمت عليك الا ما دنوت منه فسلمت عليه فأبت فكرر عليها ذلك فلما تقدمت الى القبر وقالت السلام عليك يا توبة طار من جانب القبر طائر كان هناك وزقا ونفر منه جمل ليلى فوقعت من اعلاه فاندقت عنقها وماتت من وقتها ودفنت الى جانب توبة وهذا من العجائب لأنه وفى لها بما التزمه بعد الموت وقد بالغ الآخر حيث قال :

لو حز بالسيف رأسي لي مودتها لمر يهوي سريعاً نحوها رأسي
ولو بلى تحت أطباق الثرى جسدي لكنت أبلى وما قلبي لكم ناسي
لو يقبض الله روحي صار ذكركم روحاً أعيش به مادمت في الناس

(وقال آخر) :

ولقد ذكرتك والظلام معبس وأنا قعيد في البيوت وحيدتي
والجو يصفر من قعودي في الهوا ما فيه من خل يكون عنيدتي
والبق والناموس حولي عسكر يتقاتلون على شريب دميمتي

والفار يلعب في الزوايا دائماً وينط كالقعقاع فوق كويرتي
والعنكبوت يحوك حلة خيمة يصطاد ذبابا تجوز كويتي
والأكل خبز مثل رأسي يابس والشرب مر من دخيل بليدتي
وسماع نغماتي طنين بعوضة وصرير صرصرة وصفر بومة
فوددت تعنيق الفويرة كلما نطت لأنك مثلها في الخفة
وحسدت أيدي العنكبوت لشبهها باصابع لك شبهها في الرقة
وطربت من صوت الصراصر نغمة إذ أشبهت نغمات صوت حبيبتي
فبكيت شوقاً حيث لأنت معي تتنعمين تنعمي في غرفتي

* * *

الباب السابع والعشرون

في طرف يسير من المقاطع الرائقة والاغزال الفائقة مما اشتمل على ورد الخدود ورمان النهود وغير ذلك

أقول هذا الباب عقدناه لذكر طرف يسير من الغزل والنسيب ومحاسن التشبيب مما يطرب سماعه ويؤخذ لطالع الحسن ارتفاعه كقول بلدينا الشاعر الظريف محمد بن العفيف .

أيسعدني يا طلعة البدر طالع ومن شقوتي خط بخديك نازل
نعم قد تناهى في الجفاء تطاولاً وعند التناهي يقصر المتطاول

وما كنت مجنون الهوى قبل أن يرى لقلبي من صدغيك في الأسر عاقل
ولولا سنان من لحاظك قاتل لما كنت أدري أن طرفك ذابل
ولم لا يصح الوجد فيك وناظري لنسخة حسن من سناك يقابل
ولو أن قيساً واصفاً منك وجنة لا عجزه نبت بها وهو باقل

نعم هذا الباب من أوسع هذه الأبواب مجالاً وأجرأها جرياً لا وأحسنها خطاباً وأعذبها نصاباً فيه يتميز سمين الشعر من غثه وجديده من رثه ولا يكاد يجود فيه إلا ذاك ولا يدركه إلا كثير الدراية وما أدراك وقد تقدم أن أغزل بيت قالته العرب قول بشار .

أنا والله أشهى سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق

(وقال محمد بن العفيف) وأحسن ما شاء .

وعيون أمرضن جسمي وأضرمن لقلبي لواعج البلبال

وخـدود مثل الرياض زواه ما لأيام وورودهـا من زوال
لم أكن من جناتها أعلم الله واني بجمرها اليوم صالي

(وقال أيضاً) :

يحكي الغزال نظرة ولفتة من ذرآه مقبـلاً ولا افتتن
أحسن خلق الله لفظ أو فما ان لم يكن أحق بالحسن فمن
في ثغره وخده وشكـله الماء والخضرة والوجه الحسن

ولهذه الأبيات حكايه أتففت لأبن تقي المقتول بالقاهرة .

(وقال أيضاً) :

إذا ما رمت حل البند قالت معاطفه حمانـا لا يحل
وان حلت بوجنته مدام يرى لعذراه دوره ونزول

(وقال أيضاً) :

بدا وجهه من فوق أسمر قده وقد لاح من سود الذوائب في جنح
فقلت عجيب كيف لم يذهب الدجى وقد طلعت شمس النهار على رمح

(وقال أيضاً) :

أحلى من الشهد من هويت وكم فتنت به في الهوى مرارات
وكيف لا تستطاب ريقته وثغره سكر سنينات

(وقال آخر) :

ومليح قال صفني أنت في القول فصيح
قلت قولاً باختصار كل ما فيك مليح

(وقال ابراهيم المعمار) :

ومليح قال حسني أزداد سرورا
كم حوى جفني معنى قلت الفاً وكسورا

وقال أيضاً :

حاكمت في شرع الهوى قاتلي … ولي دم طل على خـــده
فاتهم الحاكم لحظــاً له … يحقق الفتنة من عنــده
ومال للحق فلما رأى … قد غريمي مال مع قــده

(وقال خطيب سمهود) :

قال لي من هويت شبه قوامي … وقد اهــتز بالجمــال دلالا
قلت غصن على كثيب مهيل … صافحته يد النسيم فـــمالا

(وقال السراج الوراق) :

قلت للاهيف الذي فضـــح … الغصين كلام الوشاة ما ينبغي لك
قال قول الوشاة عندي ربـــح … قلت أخشى يا غصن أن يستميلك

(وقال آخر) :

قال لي أهيف المعاطف صف لي … حيفي قلت يا رشيق القــوام
لك قد لولا جوارح لحظـك … لغنت عليــه ورق الحمـام

(وقال النور الأسعردي) :

قد قنعنا بالخمر والماء والخضرة … والاهيف الرشيق القوام
وتركنا مناصب الناس زهـداً … فلماذا يؤذوننا بالكلام

وقال ابن خفاجة :

ومهفهف طـاوي الحشى … كالغصن يخطران خطـر
فإذا رنا وإذا شدا … وإذا سقى وإذا سفر
فضح الغزالة والحما … مــة والغمامــة والقمر

وقال كثير عزة :

الله أعلم لو أردت زيادة … في حب عزة ما وجدت مزيدا

رهبان مدين والذين عهدتهم يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت كلامها خروا لعزة ركعاً وسجودا

(وقال أيضاً) من أبيات وهو أحسن ما قيل في حسن الحديث ولها حكاية حكاها المبرد في الكامل من الخفرات البيض ودّ جليسها إذا ماانقضت أحدوثة لو تعيدها .

وقال ابن الرومي :

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرز
ان طال لم يملل وانهي أوجزت ودّ المحدّث انها لم توجز

وقال ابن حمديس .

لا يمل الحديث منها معادا كانتشاق الهواء ليس يمل

وقال ابن ابى الحديد :

بالله ضع قدميك فوق محاجري فلقد قنعت من الوصال بذاكا
وأطل محادثتي فان مسامعي تهوى حديثك مثل ما أهواكا

وقال آخر .

ومليح قلت ما الاسم حبيبي قال مالك
قلت صف لي وجهك الزا هي وصف لين اعتدالك
قال كالبدر وكالغصن وما أشبه ذلك

وقال العطوي .

ذات خدين ناعمين ضنينين بما فيهما من التفاح
وثنايا وريقة كغدير من عقار وروضة من اقاح

وقال امرؤ القيس .

خليلي مرا بي على أم جندب نقضي لبانات الفؤاد المعذب

ألم ترياني كلما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وان لم تطيب

وقال النميري وأحسن في الوصف .

وبيضاء مكسال كعرب خريدة لذيذ لذي ليل التمام التزامها
كأن وميض البرق بيني وبينها إذا حان من بعض البيوت ابتسامها

وقال ابن أبي ربيعة .

طفلة باردة الصيف إذا ما معمعان القيظ أضحى بنقد
سخنة المشتى لحـــاف للفتى تحت ليل حين يغشاه البرد

وقال المتنبي

أرخت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليالي أربعـــا
واستقبلت قمر السماء بوجهها فأرتني القمرين في وقت معـــا

وقال ابن المستوفي الأربلي :

رأت قمر السماء فاذكرتني ليالي وصلها بالرقمتـــين
كلانا ناظر قمراً ولكـــن رأيت بعينهـــا ورأت بعيني

(قلت) وللناس عليه كلام ولهم على فهمه زحام حتى أن بعضهم وضع فيه كتاباً :

وقال آخر :

بروحي وجسمي ذلك العارض الذي غدا مسكه فوق السوالف سائلا
درى خدها أني أجنّ من الهوى فاظهر لي قبل الجنون سلاسلا

وقال سعد الدين محمد بن عربي :

لما تبدّى عارضاه في نمط قيل ظـلام بضياء اختلـط
وقيل نمل فوق عاج قد سقط وقال قوم انها اللام فقط

وقال آخر

رأيت الهـلال على وجه من رأيت الهلال على وجهـه

وقال آخر

برزت فقابل ناظري من وجهها مرآة حسن بالجمـال صقيـل
أبكي فأنظر أدمعي في خدها تجري فأحسب انها تبكي لي

وقال ابن قلاقس

فوق خديك دليل ان نهديـك ثمـار
ما اختفى الرمان إلا وتبدّى الجلنـار

وقال الخبزرازي :

رأيت الهلال ووجه الحبيب فكانا هلالين عند النظر
فلم أدر من حيرتي فيهما هلال الدجى من هلال البشر
فلولا التورد في الوجنتين وما راعني من سواد الشعر
لكنت أظن الهلال الحبيب وكنت أظن الحبيب القمر

وقال محمد السلامي .

بدائع الحسن فيه مفترقة وأعين الناس فيه متفقة
سهام ألحاظه مفوّقة فكل من رام لحظه رشقه
قد كتب الحسن فوق وجنته هذا مليح وحق من خلقـه

وقال ابن رشيق

معتدل القامة والقد مورد الوجنة والخد
قل للذي يعجب منه حسنه أقرأ عليه سورة الحمـد

وقال أيضاً

شكوت بالحب الى ظالمي فقال لي مستهزئاً ماهو
قلت غرام ثابت قال لي أقرأ عليه قل هوالله

وقال شيخ الشيوخ بحماة

سألته من ريقه شربة أشفي بها من كبدي حره
فقال أخشى يا شديد الظمأ أن تتبع الشربة بالجرّه

وقال يحي الخباز

طلبت منه قبلة قال لي إياك أن تطمع في القرب
البوس شاليش وقد اختشى أن تتبع الشاليش بالقلب

وقال ابن اسد

أريقاً من رضابك أم رحيقا رشفت فلست من سكرى مفيقا
وللصهباء اسماء ولكن جهلت بان في الأسماء ريقا

وقال السراج الوراق :

قال من شبـه ريقي بالزلال العـذب زلا
إنما ريقي شهد قلت ذا من فيك أحلى

وقال آخر :

ظبي ترى وجهك في وجهه وتشرب الخمـرة من فيـه

وقال آخر :

ما أنصفوا إذا لقبو مشاربا من بعدما أمسى لقلبي آكلا

(وقلت انا)

يا صاح سكري من هوى أغيد قوامـه كالغصن أن ماسا
ساق متى ما لاح لي كاسه ذكرني شاربه الآسا

(وقلت أيضاً) :

فتاة حـين زارتني عشاء رأيت الشمس ليـلا وسط داري

فورد خدودها مـا لاح إلا واحرق عاشقيه بجلنـــار
فصف لي شعرها ليلاً وطوّل وقل في الخصر قولاً باختصـار
تدير لنا مراشفها عقـاراً قريب العهـد من كاس مـدار

(ومنها) :

عدمتك يا عذولي فية قل لي إذا لاح العـــذار فما اعتذاري
كانك ما شعرت بأن حي غدا بعـــذاره حسن الشعار
غدوت مكاتباً فيـــه بخط قريب الشكل من قلم الغبـــار
سقاني من مقبله شرابـــا طـهوراً لم يدنس باعتصـار
واعقب وصله هجرا فقلبي على حرف من الهجران هـــار
إذا ما قادني يومـاً هواه مشيت وقطر دمعي كالقطـــار
أيطمعنى بخفض العيش دهري وجر الدمع فيه على الجـــوار

(وقلت) أيضاً من قصيدة أمدح بها مولانا السلطان حسن :

ترادفت التهاني والسرور وبشرنـــا بوصلكم بشير
وبات بقلعه الجبل انشراح وافراح وأحباب وحضور
بروج الأفق فيها فرد بدر وافق بروجها فيه بدور
تغازل باللواحظ في دجاها فما نامت ولا فتر الفتور

(ومنها)

أغار من النسيم بها إذا مـا تصافح كفه فيها الستور
إذا نشرت ذوائبها تبـدي لميت الحب في الدنيا نشور
لها ثغر يصون الدرجـا يبيت عليه من خفر خفير
وفرق بين ضوء الصبح لمـا يلوح وبينــه فرق كبير

وقال شيخ الشيوخ بحماة

سألته من ريقه شربة أشفي بها من كبدي حره
فقال أخشى يا شديد الظمأ أن تتبع الشربة بالجرّه

وقال يحي الخباز

طلبت منه قبلة قال لي إياك أن تطمع في القرب
البوس شاليش وقد اختشى أن تتبع الشاليش بالقلب

وقال ابن اسد

أريقاً من رضابك أم رحيقا رشفت فلست من سكرى مفيقا
وللصهباء اسماء ولكن جهلت بان في الأسماء ريقا

وقال السراج الوراق :

قال من شبـــه ريقي بالزلال العـــذب زلا
إنما ريقي شهد قلت ذا من فيك أحلى

وقال آخر :

ظبي ترى وجهك في وجهه وتشرب الخـــرة من فيـــه

وقال آخر :

ما أنصفوا إذا لقبو مشاربا من بعدما أمسى لقلبي آكلا

(وقلت انا)

يا صاح سكري من هوى أغيد قوامـــه كالغصن أن ماسا
ساق متى ما لاح لي كاسه ذكرني شاربه الآسا

(وقلت أيضاً) :

فتاة حـــين زارتني عشاء رأيت الشمس ليـــلا وسط داري

فورد خدودها ما لاح إلا	واحرق عاشقيه بجلنار
فصف لي شعرها ليلاً وطوّل	وقل في الخصر قولاً باختصار
تدير لنا مراشفها عقاراً	قريب العهد من كاس مدار

(ومنها) :

عدمتك يا عذولي فية قل لي	إذا لاح العذار فما اعتذاري
كانك ما شعرت بأن حبي	غدا بعذاره حسن الشعار
غدوت مكاتباً فيه بخط	قريب الشكل من قلم الغبار
سقاني من مقبله شرابا	طهوراً لم يدنس باعتصار
واعقب وصله هجرا فقلبي	على حرف من الهجران هار
إذا ما قادني يوماً هواه	مشيت وقطر دمعي كالقطار
أيطمعنى بخفض العيش دهري	وجر الدمع فيه على الجوار

(وقلت) أيضاً من قصيدة أمدح بها مولانا السلطان حسن :

ترادفت التهاني والسرور	وبشرنا بوصلكم بشير
وبات بقلعه الجبل انشراح	وافراح وأحباب وحضور
بروج الأفق فيها فرد بدر	وافق بروجها فيه بدور
تغازل باللواحظ في دجاها	فما نامت ولا فتر الفتور

(ومنها)

أغار من النسيم بها إذا ما	تصافح كفه فيها الستور
إذا نشرت ذوائبها تبدي	لميت الحب في الدنيا نشور
لها ثغر يصون الدرجا	يبيت عليه من خفر خفير
وفرق بين ضوء الصبح لما	يلوح وبينه فرق كبير

الباب الثامن والعشرون

في ذكر طرف يسير من أخبار المطربين المجيدين من الرجال وذوات الحجال وما في معنى ذلك من ذكر مولاتهم ووصف آلاتهم

(أقول) هذا باب عقدناه لذكر من استراح من العناء بسماع الغناء من كل محب يشبب بالشباب ويغني بالرباب فهو يضرب بالعود ويجمع من المذكر والمؤنث بين الشيء وضده لا يلهيه غير ملاهيه ولا سيما إذا كان في الغناء ممن يعرف الصواب ويقيم الاعراب ويشبع الألحان ويعدّل الأوزان ويصيب أجناس الايقاع ويعطي النغم حقه من الاشباع ويختلس مواضع النبرات ويستوفي ما شاكلها من النقرات ويحسن الأختلاس ويملأ الانفاس وغير وذلك مما هو معروف عند أرباب هذا الشأن من القبان ممن جمع في ذلك بين الحسن والاحسان كما قيل :

ما تغنت إلا تفرّج همّ   عن فؤادي وأقلعت أحزاني
يفضل المسمعين طيباً وحسناً   مثل ما يفضل السماع العيان

والناس في الغناء كلهم عبيد معبد واسحق الموصلي اللذين هما أطبع المتقدمين في الغناء فيما حكاه غير واحد من أرباب التاريخ وفي معبد يقول حبيب .

محاسن أوصاف المغنين جمة   وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقال البحتري يصف صهيل فرس هزج الصهيل كان في نغماته نبرات معبد

في الصهيل الأول ومعبد هذا كان منقطعاً الى البرامكة ومات في ايام الرشيد وأخباره أشهر من أن تذكر وقد ذكرها صاحب الأغاني وغيره وأما اسحق الموصلي فانه كان من أهل العلم والأدب والرواية والتقدم في الشعر وسائر المحاسن أشهر من أن يوصف وهو الذي صحح أجناس الغناء وميز طرائقها تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا بعده من تدقيق المجاري وتمييز الأصناف التي جعلوها صنفاً واحداً وهي في نفسها كذلك ولكنها تفترق عند متيقظ مثله ومن كلامه حدود الغنا أربعه النغم والتأليف والإيقاع والقسمة وكان قد سأل المأمون أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب لا مع المغنين فإذا أراده للغناء دعاه فاجابه الى ذلك وقال الواثق ما غناني اسحق قط إلا ظننت أنه زيد في ملكي وأن اسحق لنعمة من نعم الملك التي لم يحظ أحد بمثلها ولو ان العمر والنشاط مما يشترى لشريته له بشطر ملكي وجلس عند ابراهيم ابن مصعب للشرب فسقى الغلمان من حضر وجاء غلام قبيح الوجه بقدح الى اسحق فلم يأخذ منه فقال له ابراهيم الا تشرب فقال :

أصبح نديمك أقداحاً تسلسلها من الشمول واتبعها بأقداح
من كف ريم مليح الدل ريقته بعد الهجوع كمسك أكتفاح
لا تشرب الراح إلا من يدي ربنا تقبيل راحته أشهى من الراح

فدعا بو صيفة تامه الحسن في زي غلام عليها أقبية ومنطقة فسقته حتى سكر ثم أمر بتوجيهها إليه بكل ما معها في داره (ومما) لحنه أسحق وله حكاية ظريفة :

قل لمن صدَّ عاتباً ونأى عنك جانباً
قد بلغت الذي أردت وان كنت لاعباً
واعترفنا بما ادّعيت وان كنت كاذباً

وقد تركت حكاية هذه الأبيات خوف الإطالة وهذا القدر كاف في أخبار أسحق في هذا الموضع (وحكى) أبو الفرج أنه أهديت للرشيد جارية في

غاية الجمال فخلا معها في قصره يوماً واصطبح فكان من حضر من جواريــه للغناء والخدمــة ما يزيد عن ألفي جاريـــة في أحسن زي من الثياب والجواهر فوصل الخبر إلى أم جعفر فعظم ذلك عليها وأرسلت إلى علية أخت الرشيد تشكو إليها فأرسلت إليها علية لا يغيظك هذا فوالله لأردنه إليك وقد عزمت ان أصنع شعراً وأصوغ عليه لحناً وأطرحه الى جواريّ فابعثي إليّ كل جارية عندك وألبسيهن أنواع الثيـــاب والجواهر حتى ألقي عليهن الصوت مع جواري ففعلت أم جعفر ما أمرتها بـــه علية فلما صلى الرشيد العصر لم يشعر إلا وعلية قد خرجت عليه من قصرها ومعها ما ينيف عن الفي جارية عليهن غرائب اللباس وكلهنّ في نغمة واحدة يغنين بهذين البيتين:

منفصل عني وما قلبي عنه منفصل
يا قاطعي قل لي لمن نويت بعدي أن تصل

قال فطرب الرشيد وقام على رجليه حتى استقبل أم جعفر ومعه عليـة وهو في غاية السرور وقـال لم أر كاليوم سروراً قط وقـال لمسرور الخادم لا تترك في الخزانة مالاً إلا نثرته فكان مبلغ ما نثره في ذلك اليوم ستة آلاف ألف درهم وما سمع بمثل ذلك قط (وحكى) عن القاضي أبي عبدالله محمد بن عيسى أنه أخرج الى حضور جنازة وكان لرجـل من أخوانه منزل بالقرب من مقبره فعزم عليه في الميل إليه فنزل وأحضر له طعاماً فغنت جارية.

طابت بطيب لثاتك الأقداح وزها بحمرة خدك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحـه نمت بعرف نسيمـك الأرواح
وإذا الحنادس أسبلت ظلماءها فضياء وجهك في الدجـا مصباح

فكتبها القاضي طرباً بها على ظهر يده ثم خرج ، قال راويه فلقد رأيته يكبر على الجنازة وهذه الأبيات على ظهر يده .

(وما أحسن قول ابن تميم في عوّاده) :

وفتاة قد راضت العود حتى راح بعد الجماح وهو ذليـل

خاف من عرك إذنه إذ عصاها فلهذا كما تقول يقول

(وقال آخر) :

سقى الله أرضا أنبتت عودك الذي زكت منه أغصان وطابت مغارس
فغنى عليه الطير والعود أخضر وغنى عليه الغيد والعود يابس

(وقال ابن قاضى ميلة) :

جاءت بعود يناغيها ويسعدها فانظر بدائع ما خصت به الشجر
غنت على عوده الأطيار مفصحة غضا فلما ذوى غنى به البشر
فلا يزال عليه أو به طرب يهيجه الاعجمان الطير والوتر

(وقال ابن حجاج) :

هذا ومحسنة بالعود عاشقها بذلك الطيب في الأحسان مسرور
إذا انثنت وتغنمت خلف قامتها غصنا عليه قبيل الصبح شخرور

(وقال آخر) :

وجارية إذا غنتك صوتاً فما لك من فراق الحلم بدّ
كانّ يسارها في العود برق ويمناها إذا ضربته برق

(وقال آخر) :

أشارت باطراف لطاف كأنها أنابيب درّ قمعت بعقيق
ودارت على الأوتار جسا كأنها بنان طبيب في مجس عروق

(وقال النور الاسعردي في جنكية) :

لبنت شعبان جنبك حين تنطقه يغدو باصناف الحان الورى هازي
لا غرو ان صاد ألباب الرجال لها أما تراه يحاكي مخلب البازي

(وقال) الصلاح الاربلي وأحسن ما شاء .

الجنك مركب عقل في تشكله والرق قلع له الاوتار أطناب

يجري بريح اشتياق في بحار هوى   يؤم ساحل وصل فيه أحباب

(وقال ابن دانيال في دفية) :

ذات القوام الذي يهتز غصن نقا   لو مرّ يوماً عليه طائر صدحا
تبدي على الدف كالجمار معصمها   لنقره ببنان يشبه البلجا
غناؤها بريق الريح تمزجه   فما ينقط إلا كل من رشحا

(وقال ابن عديم في مغنية) :

والله لو أنصف الاقوام أنفسهم   أعطوك ماأدّخروا فيها وما صانوا
ما أنت حين تغني في مجالسهم   إلا نسيم الصبا والقوم أغصان

(وقلت أنا) :

وغانية مكملة المعاني   بلطف ما عليه من مزيد
إذا ما أطربتنا بالمثاني   تثنت بين رمان النهود
تغار السمر منها حين تبدو   كغصن البان في خضر البرود
بأطراف من الحناء حمر   والحاظ كبيض الهند سود
سوالفها من الريحان أطرى   يواخيها الشقيق من الخدود

(وقال آخر) :

بابي أغاني مطرب   أبداً وترضاه النفوس
يشدو فنرنو بالكؤس   له ونرقص بالرؤس

(وقال آخر) .

وزامر يبعث في زمره   الى قلوب الناس افراحا
كأن اسرافيل في نايه   ينفخ في الأموات ارواحا

(وقال آخر في مشبب) :

ومطرب قد رأينا في انامله   شبابة لسرور النفس أهلها
كأنه عاشق وافت حبيبته   فضمها بيديه ثم قبلها

(وقال بن قرناص في مليح مشبب) :

مشبب بجفاه راح يقتلنا فان تداركنا بالنفخ احيانا
هويت تشبيبه من قبل رؤيته والاذن تعشق قبل العين أحيانا

(وقلت انا) :

رعى الله أرباب الـيراع فانهم أزاحوا اعتذاري عنهم بالهوى العذري
مواصيلهم من نفخهم كـل ساعة جلبنا الهوى من حيث أدري ولا أدري

(وقلت أيضاً ملغزاً في شبابة) :

وما خرساء ان نطقت رأينـا تناقض فعلها أمر عجيبـا
منقبـة وليس لهـا أزار توافينا ولم تخش الرقيبـا
فتاة ان خلوت بهـا صحبي رأيت لهـم معي فيها نصيبا
ينـازعني هواهـا كل صب وان لم تشبه الرشأ الربيبا
فكم من عاشق فضحته فينا وكم جمعت بمجلسها حبيبـا
تجـدد لي إذا نطقت سروراً يعيد زماني البـالي قشيبا
أرق من النسيم الرطيب صوتاً واسرع في الورى منه هبوبـا
تغازل دائمـاً بعيونها من يطارحها التغزل والنسيبـا
فدع لومي إذا ما همت فيهـا وأنشدني من الشعر الغريبـا
وشبب لي بها أبداً وقـل لي ضروب الناس عشاق ضروبا
فاغدرهم محب ذو مـلال وأعـذرهم أشبهم حبيبـا

(وقال) المصيص الخياط يهجو عوّاداً :

وإذاً تربع لا تربع بعدهـا وغدا يحرك عوده متقـاعسا
فكأن جرذان المدينة كلها في عوده يقرضن خـبز يابسا

(وقال آخر) :

غنى أبو الفضـل فقلنـا له سبحان مخليـه من الفضل
غناؤه حدّ على شربه فاشرب فأنت اليوم في حـل

(وابلغ) ما قيل في ذم المغني قول كشاجم :

ومغن بارد النغمة مختل اليــدين
ما رآه أحــد في دار قوم مرّتين

(وقال آخر) .

ومغن بــار أذهب اللذات عنا
فسألنــاه سكوتا فــابي يسكت عنا
فشتمنــاه فغنى فاشتفى القواد منا

(وقال آخر) :

مغنية سوء ألفاظهــا يميت السرور ويحي الكرب
مقبحة الوجه مفلوجــة فــلا للنكاح ولا للطرب

(وقا آخر) :

ولرب زامرة يهيج زمرها ريــح البطون فليتها لم تزمر
شبهت انملها على ضرباتها وقبيح مبسمها الشنيع الابخر
بخنافس قصدت كنيفاً واغتدت تسعى إليه على خيار الشنبر

هذا مثل قولهم في المثل أبصر الحامل والمحمول ودار الوكالة :

(وقال آخر) .

كأنها في حالة العيان خنافس دبت على ثعبان

(وما أحسن) قول الوجيه الدرري فيمن يغني بالرباب ويجمع بين الاحباب

لا تبعثوا بسوى المعذب جعفر فالشيخ في كل الأمور مهذب
طوراً يغني بالرباب وتارة يأتي على يده الرباب وزينب

الباب التاسع والعشرون

في ذكر من ابتلى من أهل الزمان بحب النساء والغلمان

أقول هذا باب عقدناه لذكر عشاق زماننا هذا وهم ما تعرفهم بسيماهم فمنهم من أتصف بالانصاف وسلك طريقة السلف في العفاف وهذا النوع فيما يظهر أعز من الكبريت الأحمر لم أره ولا رأيت من رآه وان وجدت اسمه فأين مسماه .

فاشهد بصدق مقالتي اولا فكذبني بواحد

هيهات بل قصارى أهل هذا العصر أن يعشق أحدهم بكرة ويواصل الظهر ويسلو العصر وعلى هذا حكاية بعض العلماء من أهل المدينة فيما حكاه عمرو بن شيبة قال كان الرجل يحب الفتاة فيدور بدارها حولا يفرح ان رأى من رآها فاذا ظفر بها في مجلس تشاكيا وأنشد الأشعار واليوم يشير اليها وتشير اليه فيعدها وتعده فاذا التقيا لم يشكو حباً ولم ينشدا شعراً وقام اليها كأنه على نكاحها أمين الأمناء كما قيل .

لم يخط من داخل الدهليز منصرفا إلا وخلخالها قد قارب الشنفا

وقال الأصمعي قلت لإعرابية ما تعدون العشق فيكم قالت العناق والضمة والغمزة والمحادثة ثم قالت يا حضري فكيف هو عندكم قلت يقعد ما بين رجلي عشيقته ثم يجهدها قلت يا ابن أخي ما هذا عاشق هذا طالب ولد .

(وسئل) اعرابي عن ذلك فقال هو مص الريقة ولثم الثغر والأخذ من أطايب الحديث بنصيب فكيف هو عندكم أيها الحضري فقال العض الشديد

والجمع بين الركبة والوريد ورهز يوقظ النيام ويوجب الآثام فقال تالله ما يفعل هذا العدو فكيف الحبيب قلت وقد تقدم ان الملوك ليسوا كغيرهم في العشق وان الملط العظيم قد يعشق ولا يذهب به عشقه الى ترك تدبير ملكه وهناك طبقة اخرى دون الملوك اذا عشقوا لم يتفرغوا لاشتغالهم بصنائعهم وطبقة اخرى يبخلون بادبانهم وعقولهم عن شغل قلوبهم بما لا يحل لهم ويحرم عليهم وما سوى هؤلاء فان عشقهم عرض من الاعراض بل مرض من الامراض اذا وصلوا اليه اسرعوا بانصرافهم عنه وربما صار هجرانا بل عداوة الى آخر العمر وهذا هو الغالب على أهل زماننا هذا وهو أفسد أنواع الحب اذ يوجد عند الفراغ ويذهب عند الشغل ويحدث عند غلبة الشهوة ويتلاشى بتلاشيها فهو اضعفها لا محالة وأمر صاحبه سهل اذ هو يسلو بالجفاء ويحب بقليل الوفاء ومن كانت هذه حاله سهل امره وانطفأ بالبولة جمره فمن أهل هذا العصر من اقتصر على دميه القصر فهام بالحسناء من النساء ومنهم من خلع في الامرد العذار وقال للسلوّ عن وجنته الحمراء النار ولا العار ومنهم من قرن بين الفريقين وجمع من المذكر والمؤنث بين الضدين فتراه يأتي على ما حضر ولا يتوقف عند صورة من الصور كما قيل :

انا الرجل البصير بكل أمر دخلت من التصابى كل بـاب
فيهوى المرد والشبان قلبي ولا يـأبى مـواصلة الكعاب

(وقد زاد ديك الجن على هذا حيث قال) :

أعشق المراد والنكاريش والشيـ ـب وعند مثل البنين البنات
خذ ما يشتهي ويعشق عندي حيوان نحـل فيه الحياة

(وقال ايضاً)

أنـا من قـولي مليح أو قبيـح مستريـح
كل من يمشي على وجـ ـه الثرى عندي مليح
حدّ ما ينكح عندي حيوان فيه روح

(وقال ابن تميم مضمنا) :

ومعشر عدلوا لما ركبت على أحوى محاسنه قبحن فعلهم
دع يعدلوا ما استطاعوا انني رجل لو أستطعت ركبت الناس كلهم

(وقال بعض مشايخ العصر) :

وعارض قد لام في عارض وطاعن يطعن في سنه
وقال لي قد طلعت ذقنه فقلت لا افكر في ذقنه

(وقال ايضاً) :

شب وجدي بشائب من سنا البدر اوجه
كلما شاب ينحني بيض الله وجهه

(وقال ايضاً بعض مشايخ العصر) :

وقـــد عنفوني في هـــواه بقولهم ستطلع منه الذقن فاصبر على الحزن
فقلت لهـــم كفو فـــاني واقع وحقكم بالوجد فيه الى الذقني

(وقال ايضا بعض مشايخ العصر) :

وكامل العارض قبلته فصدني وازور من قبلتي
وقال كم انهاك عن فعل ذا وانت ما تفكر في لحيتي

(وكتبت انا الى بعضهم) :

ليهن مولانا حبيب لم يزل بوصله في كل محسنا
كم زينته لحية في وجهه انبتها الله نباتا حسنا

(فكتب اليّ الجواب عن ذلك) :

يا مادحاً للحية سلواننا عن روضها لما زها لن يحسنا
مذ انبت فيه نباتا حسنا قبلتها منه قبولا حسنا

(فكان كما قيل) :

حاشى لمثلي عن هواه يتوب　　　هو دون كل العالمين حبيب
اهواه طفلا في القماط وامردا　　　وبلحية واذا علاه مشيب

(وقال ايضا) بعض مشايخ العصر وقد عشق شيخا

كلفت به شيخاً كان مشيبه　　　على وجنتيه ياسمين على ورد
اخو العقل يدري ما يراد من الفتى　　　امنت عليه من رقيب ومن ضد
وقالوا الورى قسمان في شرعة الهوى　　　لسود اللحى ناس وناس الى المرد
فقلت لهم لو كنت اصبوا لامرد　　　صبوت الى هيفاء مياسة القدّ
وسود اللحى ابصرت فيهم مشاركا　　　فاثرت ان ابقى بابيضهم وحدي

وقال آخر وقد عشق عجوزاً .

كلفت بها شمطاء شاب وليدها　　　وللناس فيما يعشقون مذاهب

(وقال ياقوت الحموي) وقـد ظلم أهل الموصل من خصهم بالنسبه الى اللواط حتى ضرب بهم المثل .

(وقال فيهم الشاعر) :

كتب العذار على صحيفة خدّه　　　سطراً يلوح لناظر المتأمـل
بالغت في استخراجه فوجدته　　　لا رأى الا رأى أهل الموصل

ولقد جبت البلاد ما بين جيحون والنيـل فمن رأيته لا يخرج عن هذا المذهب فلا أدري لم يخص به أهل الموصل قيل وليس الأمر كذلك كما ادعى ياقوت من كل وجه لأن مجرّد الميل الى الذكر لا تخلو منه بقعة إنما أهـل الموصل يزيدون على ذلك بأنهم يميلون الى أصحاب الذقون وربما مالوا الى من في عـذاره شيب ويقولون هنا شعرة وشعرة أي شعرة سوداء وشعرة بيضاء وبعضهم يسميه زرزوريا وهذا قلّ أن يوجد في غير بلدهم وقد رموا بهذا من بين أهل البلاد وأهل الاسكندرية لأنهم يقولون مـا نعطي فليستنا إلا لمن ينفقها على عائلته ووليداته ، ما نعطيها لمن يأكل بها حلاوة قـال الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزيـة في كتابه روضة المحبين بعد ذكر قصة عـاد

وما أفضى اليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة ثم قصة قوم صالح كذلك ثم قصة العشاق أئمة الفساق ناكحي الذكران وتاركي النسوان وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون وقطع دابرهم وهم في سكرة عشقهم يعمهون وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أئمة من الأمم أجمعين وجعلهم سلفاً لاخوانهم اللوطية من المتقدمين والمتأخرين .

قال لما تجرؤ على هذه المعصية وتمرّدوا ونهجوا لإخوانهم طريقاً وقاموا بها وقعدوا ضجت الملائكة الى الله من ذلك ضجيجاً وعجت الأرض الى ربها من هذا الأمر عجيجاً وهربت الملائكة الى أقطار السموات وشكتهم الى جميع المخلوقات وهو سبحانه قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم والتقدم بالوعد والوعيد اليهم فلما خالفوا الرسول المرسل اليهم ووقعت الحجة عليهم فعل الله تعالى بهم ما أخبر به في كتابه العزيز فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسوّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد فهذه عاقبة اللوطية عشاق الصور وهم السلف واخوانهم بعدهم على الأثر .

فان لم يكونوا قوم لوط بعينهم ... فما قوم لوط منهم ببعيد
وانهم في الخسف ينتظرونهم ... على مورد من مهلة وصديد
يقولون لا أهلا ولا مرحبا بكم ... الم يتعدكم ربكم بوعيد
فقالوا بلى لكنكم قد سننتم ... صراطاً لنا في العشق غير حميد
اتينا به الذكر ان من عشقنا لهم ... فاوردنا ذا العشق شر ورود
فانتم بتضعيف العذاب أحق من ... متابعكم في ذاك غير رشيد
فقالوا وانتم رسلكم أنذرتكم ... بما قد لقيناه بصدق وعيد
فما لكم فضل علينا فكلنا ... نذوق عذاب الهون ذوق مزيد
كما كلنا قد ذاق لذة وصلهم ... ويجمعنا في النار غير بعيد

(حكى) قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان عن الاصمعي انه قال دخلت يوماً أنا وابو عبيدة المسجد فاذا على الاسطوانة التي يجلس اليها ابو

عبيدة مكتوب على نحو سبعة أذرع :

صـــلى الاله على لوط وشيعته   أبا عبيدة قـــل بالله آمينا
فأنت عندي بلا شك بقيتهم   منذ احتملت وقد جاوزت سبعينا

قال لي يا أصمعي امح هذا فركبت ظهره ومحوته بعد ان أثقلته فقال أثقلتني وقطعت ظهري أنزل فقلت له بقيت الطاء فقال هي شر حروف هذا البيت وقيل انه لما ركب على ظهره وأثقله قال له عجل فقال قد بقى لوط فقال من هذا يهرب وكان الذي كتب ذلك أبو نواس .

(قلت) وقد جاء في تفسير قوله تعالى ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض ان فسادهم كان اللواط.

(فصل في النظر الى وجه الامرد)

ذكر الحافظ محمد بن ناصر

من حديث مجالد عن الشعبي قال قدم عبد القيس على النبي ﷺ وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة فاجلسه عليه السلام وراء ظهره وقال كانت خطيئة من مضى النظر (وفي الكامل عن أبي هريرة نهى رسول الله ﷺ ان يحدّ الرجل النظر الى الغلام الامرد وكان سعيد بن المسيب يقول اذا رأيتم الرجل يلح بالنظر الى غلام أمرد فاتهموه وصرح الشيخ محي الدين النووي في المنهاج بتحريم النظر الى وجه الأمرد بشهوة أو بغير شهوة وذكر الخطيب من حديث عبد الرحمن ابن وافد عن عمرو بن أزهر عن أبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ لا تجالسوا أولاد الملوك فان الأنفس تشتاق إليهم مـا لا تشتاق الى الجواري العواتق .

وكان ابراهيم النخعي وسفيان الثوري وغـيرهم من السلف ينهون عن مجالسة الأمرد وقال النخعي مجالستهم فتنـة وإنما هم بمنزلة النساء (حكى)

عن أبي سعيد الجزار وكان من المشايخ المعروفين بالزهد والعبادة انه قال رأيت ابليس في منامي وهو يمر عني ناحية فقلت تعال فقال اي شيء اعمل بكم أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس قلت وما هو قال الدنيا ثم قال غير ان لي فيكم لطيفة قلت وما هي قال صحبة الاحداث فأخذت العصا لاضربه فقال أنا ما أخاف من العصا انما اخاف من نور القلب .

(قال فتح الموصلي) صحبت ثلاثين شيخا من الابدال كلهم يقولون اياك ومعاشرة الاحداث (وحكى) أبو عبد الله احمد ابن الجلاد قال كنت أمشي مع استاذي فرأيت حدثا جميل الصورة فقلت أترى يعذب الله هذه الصورة بالنار فقال أو نظرت اليه سوف ترى غبها قال فنسيت القرآن بعد عشرين سنة ومن المعلوم ان النظر الى الامرد يوقع في سكرة العشق كما قال تعالى عن عشاق الصور لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون فالنظر كاس من خمر والعشق هو سكر ذلك الشراب وسكر العشق هو أعظم من سكر الخمر فان سكران الخمر يفيق وسكران العشق لم يفق الا وهو من عسكر الاموات.

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى يفيق فتى به سكران

(أنشدني بعض مشايخ العصر) :

يا من غدا بالمرد ذا لوعة ما انت في حبهم بالمصيب
في الخرّد العين الذي تشتهي منهم ويفضلن بحب الحبيب

(وقال آخر) :

حبك الغلمان ان امـ ـكنك النسوان غبن
انما يفسق في الظهـ ـر اذا أعوز بطن

على ان عشق النسوان أيضا والنظر الى من لا يجوز النظر اليها فيه ما فيه مما لا يدرك تلافيه وقد ثبت في الصحيحين من حديث اسامة بن زيد ان النبي ﷺ قال ما تركت بعدي فتنة اضر على الرجال من النساء (قلت) ولا سيما نساء هذا الزمان من كل شمس خدر تطلع من قوادها بين قرني شيطان

وغيرها ممن اشتغلت بالسحاق والخروج بعد زوجها من الباب اوالطاق كما قيل في معنى ذلك :

شغل المرد بالبدال واضحى ... نسوة الناس شغلهم بالسحاق
كل جنس بجنسه قد تكفي ... فعزاء يا معشر الفساق

(وحكى) عن بعضهم انه قال لجارية تساحق ارجعي الى الحق فقالت الحق بعض مرادي تريدان السحق بعض حروفه الحق وهذا من الاجوبة اللطيفة فما احقها أن يقال في حقها

مغرمة بالسحاق اضحت ... تبكي عليه بكل عين
فما اكتفت في الهتوك الا ... تضيف اسحاق في حنين

(حكى) ان رجلا دخل الى بيت فوجد امرأتين وهما في السحاق فجذب التي هي من فوق وقعد مكانها وقال هذا عمل يحتاج الى حبال ورجال .

وقال شيخنا زين الدين ابن الوردي في نساء أهل العصر هذا الشعر .

قولوا لمن تهوى السحاق الذي ... حرمه الله وما فيه خير
أخطأت يا كاملة الحسن إذ ... أقمت اسحق مقام الزبير

(وقال آخر) :

قل لمن تدعى السحا ... ق الى كم تساحقي
ليس يشفى غليلك ... من جميع الخلائق
غير ذي الأصلع الفقيـ ... ـر الحليق الجوالق

(وقال ابن سناء الملك) :

يا هذه لا تستحي ... مني قد انكشف المغطى
ان كان ... تشا ... ءب ... قد تمطى

(وقال بعض مشايخ العصر) :

... إذا نديته ... لحاجة تختص بي

قـام لهـا بنفسه ما هو إلا عصبي

(وسألني) بعض الأصحاب أن أنظم له مثـل هـذا فقلت واستغفر الله وأتوب اليه .

تـاخرت لحيضها قلت لهـا تقدمي
. . . هـذا عصبي يدخل معك في الدم

(وقال بعض مشايخ العصر) :

وكنت إذا رأيت ولو عجوزاً يبادر بالقيام على الحرارة
فأصبح لا يقـوم لبدر تمّ كأن النحس قد ولى الوزارة

(وقلت أنا) :

يا ... ان مر الحبيب مسلما وأشار نحوك دون كل الناس
فانهض لخدمته ولأنك أحمقا ما في وقوفك ساعة من بأس

(وقلت) أيضاً واستغفر الله العظيم من كل ذنب .

لما وفى في الصيام الحب أنشدني ... وقال : اشترط ما شئت واحتكم فالأمر أمرك ما عندي مخالفة ان صمت صمنا وان أفطرت لم نصم (وحكى) قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان بعد أن ردّ قـول بعضهم .

ولقد قـال لي صديقي لمـا ان رآني أضرني الافـلاس
قم تسكع بذا العمود فهذا ... يرجى بمثـله ويرأس
قلت قد كان ذا ولكن دهري أهـله كلهم لئام خساس
أين من كان عندهم يرفع ... وعلى الراحتين ثم يباس
أين من كان عالماً بمقادير . . . الكبار مات الناس

فقال قيل ان الأمير فخر الدين ابن الشيخ رأى هذه الأبيات مكتوبة على ظهر كتاب بخط شرف الدين ابن قيم الشام فكتب تحتها من خلف مثلك ما مات (وقال آخر) :

زعموا أنني خسرت عليها ... ليت شعري من أين تلك الخسارة
من مفل من ضيعتي من قماشي ... من بقايا أموال تلك التجارة
حضرتني فقام ... اذ ذا ... ك يحاكى بقطينة أو خيارة

(وقال آخر) :

ويحك يا . . . أما تستحي ... تخجلني ما بين جلاسي
تطلع من طوقي كذا عامداً ... تنكس العمة عن راسي

(وقال ابن مطروح) :

سألت من أمر ضنى ... في قبلة تشفي الألم
فقال لا لا أبداً ... قلت له نعم نعم
فقال غصباً قلت لا ... الا سماحا وكرم
قال فسر اقلت لا ... إلا على رأس علم
قال فخذها بالرضا ... مني حلالا وابتسم
فلا تسل عما جرى ... واستغفر الله ونم

الباب الثلاثون

في ذكر من اتصف بالعفاف وبأحسن الاوصاف

أقول هذا باب عقدناه لذكر أكثر المحبين ميلا وأظهرهم دليلا وأحسنهم سيرة وأزكاهم سريرة وأعفهم مع القدرة ولا سيما بنو عذرة الذين هم أشد الناس غراماً وأعظمهم هياماً فلذلك قلت وأقول العشق مع العفه في بني عذرة كثير والمقتول منهم عشقاً جم غفير فان ذكر أحدهم بالعفة فجميل جميل الصفات صادق العزمات وسنورد من أخباره في هذا المقام ما يصدق هذه الدعوى ويحقق أن التسلي بالمحبوب عن غيره ضرب من السلوى (فمن ذلك) ما حكاه محمد بن جعفر الاهوازي قال مرض جميل بمصر مرضه الذي مات فيه فدخل عليه العباس بن سهل فقال له جميل ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قط ولم يزن ولم يقتل النفس ولم يسرق يشهد ان لا إله إلا الله قلت أظنه قد نجا وأرجو له الجنة فمن هذا الرجل قال أنا فقلت له ما أحسبك سلمت وأنت منذ عشرين سنة تسبب ببثينة فقال اني لفي أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا فلا نالتني شفاعة محمد يوم القيامة ان كنت وضعت يدي عليها لريبة قط فما قمنا حتى مات سنة اثنتين وثمانين من الهجرة (ومن غريب) ما حكاه الزبير من أخبار جميل أن بثينة المذكورة من بني عذرة وبنو عذرة قبيلة مشهورة بالعشق في قبائل العرب واليهم ينسب الهوى العذري لأنهم أشد سائر خلق الله عشقاً (قال سعيد بن عقبة) لأعرابي ممن أنت قال من قوم إذا عشقوا ماتوا قال عذري ورب الكعبة ثم قال ولم ذلك قال لأن في نسائنا صباحة وفي فتياتنا عفة (وقال) رجل لعروة بن

حزام يا هذا بالله أصحيح ما يقال عنكم أنكم أرق الناس قلوباً قال نعم والله لقد تركت ثلاثين شاباً في الحي قد خامرهم الموت ما لهم داء إلا الحب (وقال) رجل من بني فزارة لرجل من بني عـذرة تعدون موتكم بالحب مزية وفضيلة وإنما ذلك ضعف بنيه وضيق روية ورق وخور تجدونه فيكم يابني عذرة فقال له والله لو رأيتم النواظر الدعج من فوقها الحواجب الزج من تحتها المباسم الفلج والشفاه السمر تفترعن الثنايا الغر لاتخذتموها اللات والعزى ثم أنشد :

تتبعت مرمى الوحش حتى رميتني من النيل لا بالطائشات الخواطف
ضعائف يقتلن الرجال بـلا دم فيـا عجباً للقاتلات الضعائف

(وقيل لبعضهم) ما كنت صانعاً لو ظفرت بمن تحب فقـال أحل الخمار وأحرم ما وراء الازار واظهر للحب مـا يرضي الرب (وقال) الحافظ أبو محمد الأموي ان امرأة يثق بهـا حدثته ان فتى علقهـا وعلقته وشاع أمرهما فاجتمعا يوماً خالين فقال لها هلمي نحقق ما يقال فينا فقالت لا والله لا كان هذا أبـداً وأنا أقرأ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوا لا المتقين (وقيـل) لبعضهم وقد طال عشقه لجارية من قومه ما أنت صانع ان ظفرت بهـا ولا يرا كما إلا الله قـال والله لا جعلته أهون الناظرين لا أفعل بها خالياً إلا مـا أفعله بحضرة أهلها حنين طويل ولحظ من بعيد وأترك ما يكره الرب ويفسد الحب (وقيل لآخر) ما كنت صانعاً لو ظفرت بمحبوبتك فقال ضمها ولثمها وعصيان الشيطان في أثمها ولا أفسد عشق عشرين سنة بلذة ساعة تفنى ويبقى حسابها اني ان فعلت هذا اللئيم ولم يلدني كريم (قلت) وممن اتصف من العفاف بأحسن الأوصاف من الخلفاء هرون الرشيد وذلك انه عشق جارية فلما راودها عن نفسها قالت ان أباك ألم بى فتركها وشغف بهـا حتى كاد يخرج على وجهه فكان ينشد :

أرى ماء وبي عطش شديد ولكن لا سبيل الى الورد

فقال له القاضي أو كلما قالت جارية شيئاً تصدق قولها فقال الرشيد ما

فوق الخلافة مرتبة فانظر ما أحسن عفة الجارية وامتناع هرون الرشيد مع شدة شغفه بها (ودخل عليه) منصور بن عمار فاستدناه حتى ألصق ركبتيه بركبتيه فقال له منصور يا أمير المؤمنين تواضعك في شرفك أحب الينا من شرفك فقال عظني فقال من عف في جماله وواسى من ماله وعدل في سلطانه كتبه الله من الأبرار فبكى الرشيد وقال زدني فقال لو طلبت شربة ماء فلم تجدها إلا بنصف الدنيا أكنت تشتريها به قال نعم قال فلو تعسرت عليك بعد شربها أكنت تشتري خروجها بالنصف الآخر قال نعم قال قبح الله دنيا تشتري بشربة ماء وبولة (وحكى) عن السلطان ملك شاه السلجوقي انه حضرت بين يديه مغنية فأعجب بها واستطاب غناءها فهم بها فقالت يا سلطان العالم اني أغار على هذا الوجه المليح الجميل ان يعذب بالنار وان الحلال أيسر وبينه وبين الحرام كلمة فقال صدقت واستدعى القاضي وتزوجها وأقامت في عصمته حتى مات رحمه الله (وحكى) سهيل أكبر خدم السلطان نور الدين الشهيدان السلطان المذكور اشترى مملوكاً بخمسمائة دينار وخلعة وبغلة وكان جميل الصورة وسلمه إلي وكنت قد ربيت السلطان فقلت في نفسي انا لله وإنا اليه راجعون هذا ما اشترى مملوكاً قط بخمسين ديناراً فلم أشتري هذا بخمسمائة دينار ثم تركني أياماً وقال أحضره مع المماليك يقف في الخدمة كل يوم فلما كان بعد أيام قال أحضره بعد العشاء الى الخيمة ونم أنت وأياه على باب البرج فقلت في نفسي هذا الشيخ في زمان شبابه ما ارتكب كبيرة ولما كبر سنه يقع فيها والله لا قتلته قبل أن يقع في المعصية فأخذت كتارة فأصلحتها وجئت بالمملوك وأنا في قلق فسهرت عامة الليل ونور الدين في أعلى البرج ثم غلبتني عيني فنمت ثم استيقظت فوقعت يدي على وجه الغلام فاذا به مثل الجمرة وعليه حمى شديدة فرجعت به الى خيمتي وأحضرت الطبيب فمات وقت الظهر فغسلته وكفنته ودفنته فدعاني نور الدين في اليوم الثاني وقال يا سهيل ان بعض الظن أثم فاستحيت فقال قد عرفت حالي وأنت ربيتنى هل عثرت لى على زلة قلت حاشا لله قال فلم حملت الكتارة وحدثتك نفسك بالسوء ما أنا معصوم لما رأيت المملوك وقع فى قلبي منه مثل النار

فقلت أشتريه لعله يذهب عني ما أنا فيه فلم يذهب فقالت لي نفسي أريد كل يوم أن أراه فأمرتك باحضاره فقالت أريـــد أن تحضره الى البرج بالليـل فأمرتك بإحضاره فلما حضر ما تركتني النفس أنام وبقينا في حرب الى السحر فهممت أن أصعده الى عندي فتداركني الله برحمته فكشفت رأسي وقلت إلهي عبدك محمود المجاهد في سبيلك الذاب عن دين نبيـــك ﷺ الذي عمر المساجد والمدارس والربط يختم أعماله بمثل هذا فسمعت هاتفـــاً يقول قد كفيناك يا محمود فعلمت انه قد حدث به حدث وأما أنت فجزاك الله عني خيراً والله أن أقتل عندي أهون من المعصية ثم أحسن إلي (وحكى) عن فاطمة بنت الخثعمي انهـــا دعت عبدالله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ الى نفسها للنور الذي رأته بين عينيه فأبى وقال :

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

قلت قصة عبدالله مع فاطمة هذه مثل قولهم في المثل واحد يشتهي التين وآخر يقطفه فحاله معها كحال توبة مع ليلى الأخيلية وهو مـــا حكى انه راودها عن نفسها فنفرت منه وأنشدت :

وذي حاجة قلنا له لا تبح بها فليس اليها ما حييت سبيل
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخليل

فكانت كما قيل :

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا وأخرى بنا مجنونة ما نريدها

ومثل قول الآخر :

علقتها عرضاً وعلقت رجـــلاً غيري وعلق أخرى غيرها الرجل

وممن اتصف بالعفاف من ذوي الغرام الامام ابن الإمام محمد بن داود الظاهري وله في ذلك حكايات مشهورة وهذا موضع إيرادها ونشر أبرادها

فمن ذلك قوله لكل شيء زكاة وزكاة الوجه الحسن إمكان أهل العفة من النظر اليه (وحكى) محبوبه محمد وقيل اسمه وهب بن جامع الصيدلاني انه دخل على أمير المؤمنين فسأله عن ابن داود هل رأيت منه ما تكره فقال لا يا أمير المؤمنين إلا إني بت عنده ليلة فكان يكشف عن وجهي ثم يقول اللهم أنت تعلم أني أحبه واني أراقبك فيه قال فما بلغ من رعايتك له فقلت دخلت الحمام فلما خرجت نظرت في المرآة فاستحسنت صورتي فوق ما عهدت فغطيت وجهي وآليت أن لا ينظر أحد الى وجهي قبله وبادرت اليه فلما رآني مغطى الوجه خاف أن يكون لحقني آفة فقال ما الخبر فقلت رأيت الساعة وجهي في المرآة فأحببت أن لا يراه أحد قبلك فغشى عليه قال الليث بن سكرة كان محمد بن واسع يتفق على محمد بن داود وما عرف فيما مضى من الزمان معشوق ينفق على عاشقه ويتقرّب الى قلبه بأنواع البر إلا هذا مع ما هو فيه من الصيانة وحسن الديانة فالحمد لله الذي رأينا في زماننا من يتخلق بأخلاق الناس ولهذا العاشق مع هذا المعشوق حكاية غريبة أضربت عنها خوف الإطالة وكان محمد بن داود قد وضع كتاب الزهرة لأجل محبوبه محمد بن جامع المذكور وهو مجموع أدب أتى فيه بكل غريبة ونادرة وشعر أنيق وقال في أوله وكيف تنكرت من تغير الزمان وأنت أحد مغيريه ومن جفاء الاخوان وأنت المقدم فيه ومن عجيب ما تأتي به الأيام ظالم يتظلم وغابن يتندم ومطاع يستظهر وغالب يستنصر ومن كلامه ما انفككت من هوى منذ دخلت الكتاب وبدأت في كتاب الزهرة وأنا في الكتاب ونظر أبي في أكثره .

ومن ألطف ما حكى عنه انه التقى هو وأبو العباس بن سريج في مجلس أبي الحسن بن عيسى الوزير فتناظرا في مسئله من الإيلاء فقال له ابن سريج أنت بقولك من كثرت لحظاته دامت حسراته أحذق من أن تتكلم في الفقه فقال له محمد بن داود ان قلت ذلك فاني أقول :

أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي ان تنال محرّما

وأحمل من ثقل الهوى ما لو انه ... يصعب على الصخر الأصم تهدّما
وينطق طرفي عن مترجم خاطري ... فلولا اختلاسي رده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم ... فلست أرى حباً صحيحاً مسلما

فقال له ابن سريج فيم تفتخر عليّ ولو شئت لقلت :

ومساهر بالغنج من لحظاته ... قد بت أمنعه لذيذ سناته
شغفاً بحسن حديثه وعتابه ... وأكرر اللحظات في وجناته
حتى إذا ما الصبح لاح عموده ... ولي بخاتم ربه وبراته

فقال محمد احفظ عليه أيها الوزير ما أقر به من الاجتماع حتى يقيم البينة بشاهدي عدل على البراءة فقال له ابن سريج يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك :

أنزه في روض المحاسن مقلتي ... وامنع نفسي أن تنال محرّما

قال فضحك الوزير وقال لقد جمعتما علماً وفهماً وظرفاً ولطفاً (ومن لطيف ما يحكى عن محمد) أيضاً ما حكاه أبو القاسم الصائغ قال : قال لي محمد بن داود ما دخلت جامع المدينة مما يلي باب خراسان منذ عشرين سنة قلت ولم قال لأني دخلت ذات يوم فرأيت غلامين من أحسن الناس وجهاً يتعاتبان فلما رأياني تفرّقا فآليت أن لا أدخل من باب كنت فيه السبب في الفرقة بين المتحابين ودخل عليه ثعلب فقال له أسمعنا شيئاً من صبوتك فأنشد :

سقى الله أياماً لنا ولياليا ... لهنّ بأكناف الشباب ملاعب
اذا العيش غض والزمان بغرّة ... وشاهد آفات المحبين غائب

(ومن شعره) :

لكل امرئ ضيف يسر به بقربه ... ومالي سوى الأحزان والهم من ضيف
يقول خليلي كيف صبرك بعدنا ... فقلت وهل صبر فيسئل عن كيف

(وقال ابن السراج) في كتاب مصارع العشاق وعن أبي عبدالله ابراهيم ابن محمد بن عرفة النجوي قال دخلت على محمد بن داود الظاهري في مرضه الذي مات فيه فقلت كيف نجدك فقال حب من تعلم أورثني ما ترى قلت له ما منعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه فقال الاستمتاع على وجهين أحدهما النظر المباح والثاني اللذة المحظورة فانه منعني منها ما حدثني أبي قال حدثني سويد بن سعيد قال حدثنا على بن مسهر عن أبي يحيى العقاف عن مجاهد عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال من عشق وكتم وعف وصبر غفر الله ذنبه وأدخله الجنة ثم أنشد :

أنظر الى السحر يجري في لواحظه	وانظر الى دعج في ظرفه الساجي
وانظر الى شعرات فوق عارضه	كأنهن نمال دب في عاج

وأنشدنا لنفسه :

ما لهم أنكروا سواداً بخديه	ولم ينكروا سواد العيون
ان يكن عيب خده بذر الشعر	فعيب العيون شعر الجفون

فقلت له نفيت القياس في الفقه وأثبته في الشعر فقال غلبة الهوى وملكة النفس دعوا اليه . ومات في ليلته رحمه الله (قلت ؛ وقد اختلف الناس في قوله عليه الصلاة والسلام من عشق وكتم وعف الحديث فقال بعضهم كتم عشقه عن الناس وقال بعضهم كتم اسم محبوبه وقال الحصري أحب فكتم ووصل فعف وهجر فمات فهو شهيد وقال عثمان بن زكريا المؤدب أحد رواة الحديث عن سويد كتم محبوبه أنه يحبه قال الشيخ الإمام العلامة الحافظ علاء الدين أبو عبدالله مغلطاي في كتابه الواضح المبين هذا حديث اسناده صحيح وان كان جماعة من العلماء أعلوه بما ليس بعلة يرد بها يعني قوله ﷺ من عشق فكتم الحديث . ونقل في كتابه المذكور أيضاً أن هذا الحديث سنده كالشمس لا مرية في صحته ولا لبس قلت ولهذا عد جماعة من الفقهاء ميت العشق من الشهداء أخذا بهذا الحديث منهم الرافعي وغيره فبعضهم اشترط الشروط المذكورة وبعضهم أطلق كالشيخ محيي الدين النووي فإنه أطلق ولم يشترط شيئاً فقال والميت عشقاً والميتة طلقاً يعني من الشهداء هذا

مع شدته في الدين وعدم مساهلته في هذه الأشياء وما أحسن قول ابن الأثير دمع العاشق ودم القتيل متساويان في التشبيه والتمثيل إلا أن بينهما بوناً لأنهما يختلفان لوناً وقال الإمام العلامة أبو الوليد الناجي :

إذا مات المحب جوى وعشقا   فتلك شهادة يا صاح حقا
رواه لنا ثقاة عن ثقاة   الى الحبر بن عباس ترقى

(وقال عبد الكريم القشيري) :

إن المحب إذا توفي صابراً   كانت منازله مع الشهداء
يرويه أقوام غدوا في صدقهم   علماً وناهيكم بهذا الداء

(وقال الحسن بن هاني) :

ولقد كنا روينا   عن سعيد عن قتاده
عن سعيد بن المسيب   إن سعد بن عباده
قال من مات محباً   كان من أهل الشهاده

(وقال بن رواحه الحموي) وأحسن ما شاء :

لاموا عليك وما دروا   أن الهوى سبب السعاده
إن كان وصل فالمنى   أو كان هجر فالشهاده

وإنه عكس قوله هذا فقال :

يا قلب دع عنك الهوى واسترح   ما أنت فيه حامداً أمرا
أضعت دنياي بهجرانه   إن نلت وصلاً ضاعت الأخرى

(وقال آخر) :

خليلي هل خبرتما أو سمعتما   بأن قتيل الغانيات شهيد

(وقلت كأني حاضر أخاطبه) :

نعم قد سمعنا أن من كتم الهوى   وعف الى أن مات فهو شهيد

فخذ عن مقال أنت فيه مذبذب　　فذلك ما قد كنت عنه تحيد
سياق الذي يرويه ركب ذوي الهوى　　به كل يوم سائق وشهيد
يطوفون بالأحباب خلف بيوتهم　　فمنهم قيام حولها وقعود
يعومون في بحر المدامع عندما　　تميل بهم سفن الهوى وتميد
أتبكي دوين العام من عام منهم　　وقد حد حولاً للبكاء لبيد

قلت وقد انقضى الكلام على هذه الأبواب المحكمة العقود النقية النقود المجبورة الكسور العالية القصور مشتملاً كل باب منها على بيت قصيد وبحر مديد .

يسقي ثمر غروسها ويروي المجدب من طروسها .

بعينين نجلاوين لو رقرقتها　　لنوء الثريا لاستهل سحابها

وما بقي إلا ذكر مصارع العشاق وأخبار من أصبح من المحبين ميتاً بالأشواق .

إن لم أمت في هوى الأجفان والمقل　　فوا حيائي من العشاق واخجلي
ما أطيب الموت في عشق الملاح كذا　　لا سيما بسيوف الأعين النجل
يا صاحبي اذا ما مت بينكما　　دون الشهيين ورد الخد والقبل
فاستغفرا لي وقولا عاشق غزل　　قضى صريع القدود الهيف والمقل

(وقال بلدينا محمد بن العفيف التلمساني رحمه الله) :

للعاشقين بأحكام الغرام رضا　　فلا تكن يا فتى بالعذل معترضا
روحي الفداء لأحبابي وإن نقضوا　　عهد الوفا للذي للعهد ما نقضا
قف واستمع راحماً أخبار من قتلوا　　فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا
رأى فحب فرام الوصل فامتنعوا　　فسام صبراً فأعيا نيله فقضى

(وقال جرير) :

إن العيون التي في طرفها حور　　قتلتنا ثم لم يحيين قتلانا

يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وقال آخر :

ما زال يهوى المقلا قلبي إلى أن قتلا
الحمد لله الذي مات وما قيل سلا

(وقال آخر) :

ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا
قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا ماتوا فإن عاد من يهوونه بعثوا

(وقال محمد الواعظ) :

دعا لومي فلومكما معاد وقتل العاشقين له معاد
ولو قتل الهوى أهل التصابي لما ماتوا ولو ردوا لعادوا

(خاتمة الكتاب في ذكر من مات من حبه وقدم على ربه) من صغير وكبير وغني وفقير على اختلاف ضروبهم وتباين مطلوبهم ولأجل ذكرهم أسست قواعد هذا الكتاب ودخلت فيه من باب وخرجت من باب لأتوصل منه إلى ذكر من ساقه الهجر الى السياق وتحمل من العشق ما لا طاقة له به من الباب الى الطاق ومن هنا أشرع في ذكر مصارعهم وعرض بضائعهم إذ منهم الخاسر والرابح والصالح والطالح (فمنهم شقي وسعيد) ومنهم قتيل وشهيد .

(حكى) أبو الفرج بن الجوزي قال ذكر لي شيخنا أبو الحسن علي بن عبدالله ان رجلاً عشق نصرانية حتى غلب على عقله فحمل إلى البيمارستان وكان له صديق يترسل بينهما فلما زاد به الأمر ونزل به الموت قال لصديقه قد قرب الأجل ولم ألق فلانة في الدنيا وأخشى أن أموت على الإسلام ولا ألقاها فتنصر فمات فمضى صديقه الى النصرانية فوجدها عليلة فقالت أنا ما ألقيت صاحبي في الدنيا وأريد أن ألقاه في الأخرى وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ثم ماتت قلت لم أسمع بأغرب من هذه الحكاية ولا أعظم من هذه النكاية قد سبق على صاحبها الكتاب وضرب بينه وبين محبوبته

بسور له باب فابتلى من فراق محبوبته ودينه بداءين ودارت عليه دائرة السوء في الدارين وكيف لا وقد ورد بكسادة في الحب دار البوار وأصبح بكفره واسلامها على شفى جرف هار .

سارت مشرقة وسرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

ذكرت بهذه الحكاية قول عبد الوهاب الأزدي يرثي حبيب له نصرانياً وأحسن ما شاء حيث قال :

أخي بوداد لا أخي بديانة   ورب أخ في الود مثل نسيب
وقالوا أتبكي اليوم من ليس صاحبا   غدا ان هذا فعل غير لبيب
فقلت لهم هذا أو أن تلهفي   وشدة أعوالي وفرط نحيبي
ومن أين لي أبكي حبيباً فقدته   اذا خاب منه في المعاد نصيبي

وكان هذا النصراني موسوماً بالجمال خماراً فعلقه عبد الوهاب المذكور واشتهر به وأقام ببايته في الحانة ثلاث سنين ويدخل معه الكنيسة في الأعياد والحدود طول هذه المدة حتى حفظ كثيراً من الانجيل وشرائع أهله وهجره مرة فلم يجد سبيلا اليه وزعم أن عليه قسماً شديداً ان لا يكلمه الى مدة شهر فلما يئس دعا بالفاصد فافتصد في احدى يديه ودعا فاصداً آخر فافتصد في اليد الأخرى ودخل داره وأغلق باب بيته وفجر الفصادين فما شعر أهله إلا والدم يدفع من سدة باب المحل الذي هو فيه فأدركوه وقد أشرف على الموت فصالحه محبوبه النصراني خوفاً على نفسه .

(ومن شعره فيه) :

أنظر الى الشامة في خد من   ألحاظه باللحظ جراحه
كأنها من حسنها أذبدت   حبة مسك فوق تفاحة

(ومنهم شيهد)

قال ياقوت في تاريخه كان مدرك ابن علي الشيباني شاعراً اديباً فاضلاً وكان كثيراً ما يلم بدير الروم ببغداد ويعاشر نصاراه وكان بدير الروم غلام من أولاد النصارى يقال له عمرو بن يحيى وكان من أحسن الناس صوره وأكملهم خلقاً وكان مدرك بن علي يهواه وكان لمدرك مجلس تجتمع فيه الاحداث لا غير فان حضر شيخ أو صاحب لحية قال له مدرك قبيح بك ان تختلط بالاحداث والصبيان فقم في حفظ الله فيقوم وكان عمرو يحضر مجلسه فعشقه مدرك وهام به فجاء عمرو يوماً الى المجلس فكتب مدرك رقعة وطرحها في حجرة فقرأها فإذا فيها :

بمجالس العلم التي ... بك تمّ حسن جموعها
الإرثيت لمقلة ... غرقت بفيض دموعها
بيني وبينك حرمة ... الله في تضييعها

قال فقرأ الأبيات ووقف عليها من كان في المجلس وقرؤها فاستحيا عمرو وانقطع عن الحضور وغلب الأمر على مدرك فترك مجلسه ولزم دار الروم وجعل يتبع عمرا حيث شاء وقال فيه شعراً كثيراً قال الحريري وقد رأيت عمرا أبيض الرأس واللحية ومن شعر مدرك فيه هذه القصيدة المزدوجة الغريبة العجيبة المشهورة وهي :

من عاشق ناء هواه داني ... ناطق دمع صامت اللسان
معذب بالصد والهجران ... موثق قلب مطلق الجثماني
من غير ذنب كسبت يداه ... يشكو هوى نمت به عيناه
شوقاً الى رؤية من اشقاه ... كأنما عافاه من أضناه
يا ويحه من عاشق ما يلقى ... من أدمع منهلة ما ترقا
ناطقة وما اجادت نطقا ... تخبر عن حب له استرقا
لم يبق منه غير طرف يبكي ... بأدمع مثل نظام السلك
تطفئها نار الهوى وتذكى ... كأنها قطر السماء تحكي

الى غزال من بني النصارى ... عذار خديه سبي العذارى
وغادر الاسد به حياري ... في ربقة الحب له أسارى
ريم بدار الروم رام قتلي ... بمقلة كحلاء لا من كحل
وطرة بها استطار عقلي ... وحسن وجه وقبيح فعل
ريم به أيّ هز بر لم يصد ... يقتل باللحظ ولا يخشى القود
متى يقل هاقالت الالحاظ قد ... كأنها ناسوته حين اتحد
ما أبصر الناس جميعاً بدرا ... ولا رأوا شمساً وغصنا نضرا
أحسن من عمر وفديت عمرا ... ظبي بعينيه سقاني خمرا
ها انا ذا بقده مقدود ... والدمع في خدي له اخدود
ماضر من فقدي به موجود ... لو لم يقبح فعله الصدود
ان كان ذنبي عنده الاسلام ... فقد سعت في نقضه الايام
واختلت للصلاة والصيام ... وجـــاز في الدين له الحرام
يا ليتني كنت له صليباً ... اكون منه ابدا قريبـا
ابصر حسنا وأشم طيبا ... لا واشيا اخشى ولا رقيبا
يا ليتني كنت له قرباناً ... الثم منـه الثغر والبنانا
اوجاثليقا كنت او مطرانا ... كيما يرى الطاعة لي ايمانـا
يا ليتني كنت لعمرو مصحفا ... يقرأ مني كل يوم أحرفا
او قلما يكتب بي ما القا ... من أدب مستحسن قد صنفا
يا ليتني كنت لعمرو عوده ... اوحلة يلبسها مقـدوده
او بركة باسمه معدوده ... او بيعة في داره مشهوده
يا ليتني كنت له زنارا ... يديرني في الخصر كيف دارا
حتى اذا الليل طوى النهارا ... صرت له حينئـذ ازارا
واكبدي من خده المضرّج ... واكبدي من ثغره المفلج
لا شيء مثل الطرف منه الادعج ... اذهب للنسك وللتحرج
اليك أشكو يا غزال الانس ... ما بي من الوحشة بعد الأنس
يا من هلالي وجهه وشمسي ... لا تقتل النفس بغير النفس

جدلي كما جدت بحسن الود   وارع كما أرعى قديم العهد
واصدد كصدى عن طويل الصد   فليس وجد منك مثل وجدى
ها أنا في بحر الهوى غريق   سكران من حبك لا أفيق
محترقا ما مسني حريق   يرثى لي العدو والصديق
فليت شعري فيك هل ترثى لي   من سقم ومن ضنى طويل
أم هل الى وصلك من سبيل   لعاشق ذى جسد نحيل
في كل عضو منه سقم وألم   ومقلة تبكي بدمع وبدم
شوقا الى شمس وبدر وصنم   منه إليه المشتكى اذا ظلم
أقول اذ قام بقلبي وقعد   يا عمرو يا عامر قلبي بالكمد
أقسم بالله يمين المجتهد   ان امرأ اسعدته لقد سعد
يا عمرو ناشدتك بالمسيح   ألا استمعت القول من فصيح
يبيح عن قلب له جريح   ناح بما يلقي من التبريح
يا عمرو بالحق من اللاهوت   والروح روح القدس والناسوت
ذاك الذي في مهده المنحوت   عوّض بالنطق عن السكوت
بحق ناسوت ببطن مريم   حل محل الريق منها في الفم
ثم استحال في قنوم الاقدم   يكلم الناس ولم ينفطم
بحق من بعد الممات قمصا   ثوباً على مقداره ماقصصا
وكان لله تقياً مخلصا   يشفي ويبرى ألمها وابرصا
بحق محيي صورة الطيور   وباعث الموتى من القبور
ومن إليه من الأمور   يعلم ما في البر والبحور
بحق من في شامخ الصوامع   من ساجد لربه وراكع
يبكي اذا ما نام كل هاجع   خوفاً من الله بدمع هامع
بحق قوم حلقوا الرؤسا   وعالجوا طول الحياة بوسا
وقرعوا في البيعة الناقوسا   مستعملين يعبدون عيسى
بحق ماري مريم وبولس   بحق شمعون الصفا وجرجس
بحق دانيل بحق يونس   بحق حزقيل وبيت المقدس

بحق ما في قلة الميرون ‏ من نافع الادواء للجنون
بحق ما يؤثر عن شمعون ‏ من بركات الخوص والزيتون
بحق اعياد الصليب الزهر ‏ وعيدا نسموني وعيد الفطر
وبالشعانين العظام القدر ‏ وعيد مرماري العظيم الذكر
بحق شعياء وبالهيا كل ‏ والدخن اللاتي بكف الحامل
يشفى بها من كل خبل خابل ‏ ومن دخيل السقم في المفاصل
بحق سبعين من العباد ‏ قاموا بدين الله في البـلاد
وارشدوا الناس الى الرشاد ‏ حتى اهتدى من لم يكن بهادي
بحق اثني عشر من الامم ‏ ساروا الى الاقطار يتلون الحكم

٢ — قوله فأقسطت الصواب فقسطت تأمل .

حتى اذا اصبح الدجى جلا الظلم ‏ ساررا الى الله ففازوا بالحكم
بحق ما في محكم التنزيل ‏ من محكم التحريم والتحليل
وغير من نبأ جليـــل ‏ يرويه جيل قد مضى عن جيل
بحق مر عيد الشفيق الناصح ‏ بحق لوقاذي الفعال الصالح
بحق تمليخا الحكيم الراجح ‏ والشهداء بالفلا الصحا صح
بحق معمودية الأرواح ‏ والمذبح المشهور في النواحي
ومن به لابس الامساح ‏ وعابد باك ومن سيـاح
بحق تقريبك في الاعياد ‏ وشربك القهوة كالفرصاد
وطول تفتيتك للاكباد ‏ بما بعينيك من السواد
بحق ما قدس سعيا فيه ‏ بالحمد لله وبالتنزيه
بحق نسطور وما يرويه ‏ عن كل ناموس له فقيه
بحق جمع من شيوخ العلم ‏ وبعض أركان التقى والحلم
لم ينطقوا قط بغير فهم ‏ موتهم كان حياة الخصم
بحرمة الأسقف والمطران ‏ والجائليـق العالم الرباني
والقس والشماس والديراني ‏ والبطرك الأكبر والرهبان
بكل ناموس له مقدم ‏ يعلم الناس ولما يعلم

بحرمة الصوم الكبير الأعظم　　وما حوى مفرق رأس مريم
بحق يوم الذبح في الاشراق　　وليلة الميلاد والتلاقي
بالذهب الأبر يزفي الأوراق　　بالفصح يا مهذب الأخلاق
ألا رغبت في رضا أديب　　باعده الحب عن الحبيب
قد ذاب من شوق الي المذيب　　أعلى مناه أيسر القريب
فانظر أميري في صلاح أمري　　محتسباً فيّ عظيم الأجر
مكتسياً فيّ جميل الشكر　　في نثر ألفاظ ونظم در

قيل إنه ضعف وسل جسمه وذهب عقله وانقطع عن اخوانه ولزم الفراش قال حسان بن محمد بن عيسى فحضرته عائداً مع جماعة من أصحابه فقال ألست صاحبكم القديم العشرة لكم فما منكم أحد يسعدني بنظرة الى وجه عمرو قال فمضينا بأجمعنا الى عمرو وقلنا له ان كان قتل هذا الرجل دينيا فان أحياءه مروءة قال وما فعل قلنا قد صار الى حال ما نحسبك تلحقه قال فلبس ثيابه ثم نهض معنا فلما دخلنا عليه وسلم عليه عمرو أخذ بيده وقال كيف تجدك يا سيدي فنظر اليه ثم أغمي علية ثم أفاق وهو يقول :

أنا في عافية الا　　من الشوق اليكا
ايها العائد ما بي　　منك لا يخفى عليكا
لا تعد جسما وعد قلبا　　رهيناً في يديكا
كيف لا يهلك مرشو　　ق بسهمى مقلتيكا

ثم انه شهق شهقة فارق فيها الدنيا فما برحنا حتى دفناه رحمه الله تعالى .

(ومنهم قتيل)

قال العلامة أبو القاسم محمد بن عبد الرحمن الشيرزي في كتاب روضة القلوب ونزهة المحب والمحبوب وشاهدت امرأة كانت من أهل شيرز تزوجت رجلاً جندياً أعجمياً وكانت تجد به وجداً شديداً حتى كانت لا تصبر عنه لحظة وكان اذا مشى الى نوبته الى القلعة تاتزر وتظل قائمة قبالته حتى ينصرف

فاذا دخل عليها لاعبها وقبلها فيسكن بعض مـــا تجده فدخل عليها يوماً مغضباً من كلام جرى بينه وبين مقدمه فلما دخل أرادت منه العـــادة فلم يلتفت اليها فظنت أن ذلك لسبب حدث منهـــا فارتاعت وجزعت فمكث ساعة عنها لم يرفع طرفة اليها فقوى عندها التخيل فلما خرج خرجت خلفه كعادتها فانتهرها فلم تشك ان غضبه لأجلها فرجعت وجعلت في رقبتها حبلاً وشدته في السقف فاختنقت به وماتت .

(ومنهم شهيد)

قال الوداعي حكى الأمير شهاب الدين احمد العقيلي ان شرف العلا هوى غلاماً نصرانياً وتهتك فيــه حتى لبس المسح وتزيا بزي الرهبـــان وكان يتبع الغلام حيث توجه فاتفق أن الملك الظاهر صلاح الدين سمع بحاله فبينما هـــو يتصيد في نواحي حلب قيــل له ان شرف العلا في هــذه الأرض فأرسل اليه من يحضره على هيئته فلما حضر وكان السلطان في مجلس الشراب قـــال لبعض ندمائه املأ قدحاً كبيراً والق شرف العلا بـــه فلما رأى القدح أخذه بيده وشربه وأنشد في الحال ارتجالا يخاطب الملك الظاهر .

جمعت بالكاس شملي   فالله يجمـع شملك
بحـق رأسك دعني   حتى أقبـل نعـلك

(ومنهم قتيل)

وهو مما رأته عيناي وسمعته أذناى ووعاه قلبي وذلك اني لمـــا كنت في دمشق سنة اثنتين وخمسين وسبعمائه اتفق ان شاباً من أبنـــاء دمشق جميل الصورة عدا على انسان كان يحبه فقتله فحمل الى الوالي فلما سأله انكر فعراه ليضربه بالسياط فتقدم انسان كان يعشق ذلك الشاب وقال للوالي لا تضربه فانه ما قتله وإنما قتلته أنا فأحضر الوالي الشهود وكتب عليه محضراً باقراره بالقتل وأطلق الشاب وكان يتمش نائب دمشق يومئذ فلما حكيت له هـــذه القصة واطلع على باطنها توقف في قتله وأمر بحبسه فلم تمض إلا أيام قلائل حتى حضر ارعون الكاملي من حلب عوضاً عن ايتمش في نيـابته بدمشق فكان

أول شيء حكم فيه من الدماء شنق ذلك العاشق المسكين بمقتضى المحضر المكتتب عليه ولقد رأيته تحت القلعة وهو مشنوق والناس حوله يتأسفون عليه ويذكرون حكايته ويتعجبون منها وحكيت هذه الحكاية للقاضي كمال الدين بن النحاس فتعجب منها وأخبرني عن القاضي زين الدين بن السفاح وأخيه القاضي شمس الدين وجماعة من أهل حلب الموجودين الآن انهم أخبروه ان ناصر الدين محمد بن يكتوب أحد كتاب المنسوب المعروف بالقلندري انه كان يهوى مغنية لا تزال زرموزتها معه في كيس حرير أطلس معلق في رقبته تحت ثيابه فإذا حضر في مجلس ولم يتفق حضورها فيه أخرج الزرموزة من الكيس ووضعها قدامه وجعل يبكي فان لم يتفق له بكاء شديد أنشد :

لأمتعت عين محب بما ‏ ‏ ‏ يسرها ان هي لم تسجم

ثم انه يأمر من حضر بربط رجليه وضربه عليهما حتى يبكي انتهى ما أخبرني به القاضي كمال الدين قلت ولهذا البيت المتقدم حكاية غريبه وهي ما حكاه المسترد عن النميري أن رجلاً قدم على ملك كسرى أنوشروان وكان عالماً بجميع الفلسفة وعلم الموسيقى فتعجب الملك من كمال أخلاقه المحمودة فحبسه عن وطنه مدة من دهره فشكى اليه غلبة الوجد وطول الكمد بألف فارقه في بلده فماطله كسرى بالأذن وحمله على التسويف فبينما هو على هذه الحالة إذ قدم عليه رجل من بلده ونعى اليه حبيبه ودفع اليه خاتمه فإذا فيه كتابة بالهندية فترجمت لكسرى فاذا هي كلام موزعون بالموسيقى يشاكل من الشعر العربي .

لأمتعت عين محب بما ‏ ‏ ‏ يسرها ان هي لم تسجم
على حبيب تلفت نفسه ‏ ‏ ‏ من التباريح ولم يضرم

فلما قرأها لم يملك نفسه خوفاً وجزعاً فأسعدته عينه اليسرى ولم تسعده اليمنى فاقسم ان لا ينظر بها ما عاش في الدنيا ان لم تسعده بالبكا على حبيبه وهي أقوى حاسة من اليسرى فكان يسمى الصابر (قلت) ومن غريب ما يحكى ان ناصر الدين القلندري المتقدم ذكره كان يضع المحبرة في يده الشمال

والمجلد من الكتاب على زنده ويكتب منه وهو يغني ويضرب برجله الأرض ويكتب في هذه الحالة ما شاء ولا يغلط ولا يلحن وأخبرني بعض من كتب عليه ان من غريب مـــا شاهد من حاله انه كان يهوى شاباً من أولاد الجند بطرابلس كان يكتب عليه وكان آخر مـــا تمثل به ومات عقبه سنة خمس وثلاثين وسبعمائة قول الصاحب بن عباد :

يا من وهبت له نفسي فعذبها ورمت تخليصها منه فلم أطق
أدرك بقية نفس فيك قد تلفت قبل الممات فهذا آخر الرمق

قلت وليكن هذا ما وقع عليه الاختيار وطابت به لابن أبي حجلة حين سقط بمصر أوطار وكيف لا وقد سقطت منه على الخبير وأتيت من أخبار من غفر الله لنـــا ولهم بالجم الغفير فشهداؤه من أعيان المشاهد وقتلاؤه وان اختلفت أسباب موتهم فداؤهم واحد ففي ذلك والحمد لله كفاية وأن كان التفسير قصراً غير مقصود عن الغاية على أن في رحلتي نشر العلمين في زيارة الحرمين مـــا هو كفص الخاتم لهذه الخاتمة والأمواج العظيمة لهذه الأبحر المتلاطمة لا جرم اني لم أذكر من اختبار أهل الحجاز إلا ما أشار إليه هــذا الكتاب ببنان بيانه وبدأ من ورقه وقلمه على صفحات وجهه وفلتات لسانه فكم في الرحلة المذكورة في ذكر من مات على هذه الصورة من أخبار متيم امتنع من هجوعه وأصبح غريقاً بسحاب دموعه .

لدى سمرات الحي برق يسامره يذكره بالثغر مـــا هو ذاكره
يذكره عهد العذيب وما حوى على حاجر سالت عليه محاجره
اذا ما بدا البرق اليماني لعينه فما هـــو إلا وشيه وحبائره
سقى السفح من ذيل المقطم عارض تعارضه من دمع عيني مواطره
فكم فيه من صب قضى وغرامه أوائـــله لا تنقضي وأواخره
تطاول ليلي في هواه ولو يشا لقصره من حجبته مقـــاصره
فيا للهوى العذري ما العذر عندما تغادر يومي مثل ليلي غدائره
صحا ماصحا من زال في الحب عقله بسكرة حب لا تزال تخامره
أيبرد مـــا ألقاه يا جارتي وقد سباني ظبي فاتن الطرف فاتره

أحاول منه وصله كل ساعة فتمنعني أستاره وستائره
ولو لم يكن سلطان حسن لما سرى بمصر وكل العاشقين عساكره
يجود عليهم حين يسري جواده فيحضر في قلب المتيم حافره
فلولاه ما أمضى أمير ذوي الهوى ولا نفذت في العاشقين أوامره
ولولا سطا السلطان في مصر ما مشى مع الذئب ظبي كان قبل يحاذره
هو الناصر المنصور والعادل الذي يباطنه ما جار في الملك ظاهره
له في سبيل الله خير ذخيرة وحسن الثنا بين الملوك ذخائره
ودرياقه في الثغر عقرب نبله وسمر عواليه بمصر نواشره
جزى الله عنه مصر ما هو أهله فكم أمنت في قطرها من يجاوره
جواد غدت نعما معنا قريبة وان بعدت في السبق عنا ضوامره
فما عابه أن الجنود جنائب وما ضره أن البروق ضرائره
له من بياض الصبح والليل أدهم وأشهب كالبازي ينقض كاسره
فلا جابر يوماً لما هو كاسر ولا كاسر يوماً لما هو جابره
لله سر في علاه لأجل ذا تباهى به فوق السرور سرائره
وتستقبل الآمال كعبة جوده كما استقبل البيت المعظم زائره
فأي نوال ما أضاعت شموسه وما هي ان حققت إلا دنانره
هو البحر إلا أن منهل جودة موارده راقت به ومصادره
ولو لم يكن يجري ونظمي دره لما عرضت يوماً عليه جواهرة
أجوّد فيــه المدح كل عشية وإذكار فكري بالثناء تباكره
إذا تاه مدحي في دجى ليل نفسه عن القصد دلته عليه مآثره
عبرت على الشعري العبور فأومأت إلي وقالت أنت والله شاعره
فمدحي له مدح المحب حبيبه إذا زاره والليل قد نام ساهره
وحبي له ما أن يقاس بغيره لأني قيس الحب فيه وعامره
وقد مات قلبي أول الحب وانقضى ولو مت أمسى الحب قد مات آخره

وصلى الله وسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين .